

الأدب الأندلسي

الدكتور
سامي يوسف أبو زيد



الأدب الأندلسي



9 789957 068912



دار

المسيرة

للنشر والنوزيع والطباعة

www.massira.jo

شركة جمال احمد محمد حيف وإخوانه

الأدب الأندلسي

سامي يوسف أبو زيد
الطبعة الأولى

ادبيات

عرب

٩

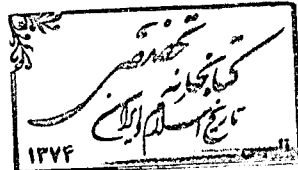
٥

٢



www.massira.jo

شركة جمال احمد محمد حيفه وإخوانه



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأدب
الاندلسي

رقم التصنيف : 810.96

المؤلف ومن هو في حكمه : سامي يوسف أبو زيد

عنوان الكتاب : الأدب الاندلسي

رقم الايداع : 2011/9/3376

الخواصفات : الأدب العربي / العصر الأندلسي

بيانات النشر : عمان - دار المسيرة للنشر والتوزيع

සූර්යාගේ උෂ්ණත්වය 5500°C වන අතර, එහි මධ්‍යයේ උෂ්ණත්වය 15,000,000°C වේ.

حقوق الطبع محفوظة للناس

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة لدار المسيرة للنشر والتوزيع عمان - الأردن
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على اشرطة
كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على اسطوانات ضوئية الا بموافقة الناشر خطياً

Copyright © All rights reserved

No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى 2012م - 1433هـ



عنوان الدار

الرئيسي : عمان - العبدلي - مقابل البنك العربي هاتف : +962 6 5627049 فاكس : +962 6 5627059

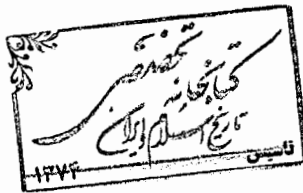
الفرع : عمان - ساحة المسجد الحسيني - سوق البتراء هاتف : 962 6 4640950 فاكس : 962 6 4617640

صندوق بريد 7218 عمان - 11118 الأردن

E-mail: Info@massira.io . Website: www.massira.io

الأدب الاندلسي

□□



الدكتور
سامي يوسف أبوزيد



الفهرس

المقدمة..... 11

الفصل الأول

الحياة السياسية والاجتماعية والحضارة الأندلسية والحياة الثقافية في
الأندلس

المبحث الأول: الحياة السياسية 17

المبحث الثاني: الحياة الاجتماعية 33

المبحث الثالث: الحضارة الأندلسية والحياة الثقافية 41

الفصل الثاني

الأغراض الشعرية التقليدية

المبحث الأول: المديح 49

المبحث الثاني: الرثاء 53

المبحث الثالث: الغزل 58

المبحث الرابع: الهجاء 64

المبحث الخامس: الزهد والتصوف 70

الفصل الثالث

شعر الطبيعة

المبحث الأول: العوامل المؤثرة في شعر الطبيعة 79

المبحث الثاني: موضوعات شعر الطبيعة	83
المبحث الثالث: الطبيعة في موضوعات الشعر الأخرى	92
المبحث الرابع: خصائص وسمات شعر الطبيعة في الأندلس	95

الفصل الرابع

الفنون الشعرية المستحدثة

المبحث الأول: الموشحات	99
المبحث الثاني: الرّجل	125

الفصل الخامس

الأغراض الشعرية الموسّعة

المبحث الأول: رثاء المدن والإمارات والأندلس	139
المبحث الثاني: شعر الحنين	145
المبحث الثالث: الشعر التعليمي	150
المبحث الرابع: شعر الاستغاثة	155

الفصل السادس

أعلام الشعر الأندلسي

المبحث الأول: ابن عبد ربه	161
المبحث الثاني: ابن هانئ الأندلسي	168
المبحث الثالث: ابن درّاج القسطلي	181
المبحث الرابع: ابن شهيد	188
المبحث الخامس: ابن زيدون وولادة بنت المستكفي	196

205.....	المبحث السادس: ابن حمد يس الصقلي
211.....	المبحث السابع: ابن خفاجة
217.....	المبحث الثامن: المعتمد بن عبّاد

الفصل السابع

شاعرات الأندلس

232.....	المبحث الأول: شاعرات إشبيلية
234.....	المبحث الثاني: شاعرات قرطبة
236.....	المبحث الثالث: شاعرات غرناطة
242.....	المبحث الرابع: شاعرات المرّة
244.....	المبحث الخامس: شاعرات وادي الحجرة

الفصل الثامن

نصوص من الشعر الأندلسي (دراسة وتحليل)

249.....	المبحث الأول: قصيدة «أضحى التناهي» لابن زيدون
271.....	المبحث الثاني: قصيدة «وصف الجبل» لابن خفاجة
278.....	المبحث الثالث: قصيدة «رثاء الأندلس» لأبي البقاء الرندي

الفصل التاسع

النثر الأندلسي

293.....	المبحث الأول: الخطابة
298.....	المبحث الثاني: المناظرات
303.....	المبحث الثالث: الرسائل

320.....	المبحث الرابع: المقامات الأندلسية.....
332.....	المبحث الخامس: رسالة التوايع والزوايع لابن شهيد
344.....	المبحث السادس: قصة حي بن يقظان لابن طفيل
353.....	المبحث السابع: طوق الحمامة لابن حزم
357.....	المصادر والمراجع

قال أحمد شوقي في الأندلس

أأين (مروان) في المشارق عرش

أموي، وفي المغرب كُرسی؟

سَقَمَتْ شمسُهُمْ، فردُّ عليها

نُورَها كلُّ ثاقبِ الرأي نُطسِ

ثمَّ غابت، وكلُّ شمسٍ سوى هاتيه

كُ تَبلى، وتنطوي تحت رَمْسِ

وعظ البحريَّ إيوان كسرى

وشفتني القصورُ من عبد شمسِ

خرج القومُ في كتائب صُم

عن حفاظ، كموكب الدفن خُرسِ

ركبوا بالبحار نعشاً، وكانت

تحت آبائهم هي العرشُ أمسِ

المقدمة

هذا الكتاب في أصوله الأولى محاضرات أعدناها للطلاب الجامعي الذي أعد نفسه لنيل شهادة آداب اللغة العربية بكلية الآداب، بعد أن درّسنا الأدب العربي زمناً طويلاً. وهو يرصد مسيرة الأدب الأندلسي عبر ثمانية قرون تمتد من فتح الأندلس سنة 92هـ حتى سقوطها سنة 898هـ. ومن المعروف أن حركة الأدب والفنون بعامة والشعر بخاصة تغاير حركة التاريخ التي تتمثل في التغيير السياسي المفاجئ، في حين تستغرق هذه الحركة في نطاق التطور الفني مدة أطول مهما تكن سرعته. ومن هنا فقد اتصف الأدب الأندلسي بأنه ولد في رحم الأساليب والفنون التقليدية في المشرق، واحتاج زمناً حتى تبرز شخصيته وملاحمه.

وقد درج الدارسون في ميدان الأدب الأندلسي على تسميته باسم الإقليم الذي ظهر فيه وهو الأندلس، لا إلى زمن بعينه، وهي حالة تفرّد بها هذا الأدب. ومن الأسف أن هذا الأدب شهد نهايته بخروج العرب من الأندلس خروجا نهائياً، ولكنه ظل شاهداً على الزمن العربي فيها.

وزعتُ الكتاب على تسعة فصول، جاء أولها تمهيداً لهذه الدراسة، تحدّث فيه بإيجاز عن الحياة السياسية، فالاجتماعية، فالحضارة الأندلسية والحياة الثقافية، ومدى تأثير ذلك في مسيرة الأدب الأندلسي، ثم انتقلت إلى الفصل الثاني، فتناولت الأغراض الشعرية التقليدية من مديح، وثناء، وغزل، وهجاء، وزهد وتصوف، وهي أغراض يغلب عليها تقليد المشاركة في صورهم وألفاظهم، لا نكاد ننتبين من خلالها روحاً أندلسية، وقد بقيت هذه الظاهرة إلى أوائل القرن الخامس الهجري، وبدأت في شعر ابن عبد ربّه، وابن هانئ، وابن شهيد، وابن درّاج القسطلي. ثم أتيت في الفصل الثالث على شعر الطبيعة، فأوضحت بواعثه وتحدّثت عن موضوعاته وذكرت خصائصه، ولا شك في أن طبيعة الأندلس الخلابة جعلتهم يُكثرّون من وصف الطبيعة والتغني بمحاسنها.

وتحدثت في الفصل الرابع عن فنون الشعر المستحدثة في الأندلس وهي الموشحات والزجل، والتي تبرز فيها الشخصية الأندلسية وقد دفعهم إلى التفنن فيها تطور اجتماعي تمثل في مجالس الغناء والطرب واللهو. وفي المفاضلة بين الأندلس وبرّ العدو (المغرب) يقول أبو الوليد الشقندي عن إشبيلية: «وأما ما فيها من الشعراء والوشاحين والزجالين فيما لو قُسموا على برّ العدو ضاق بهم»⁽¹⁾.

وانتقلت في الفصل الخامس إلى الأغراض الشعرية الموسّعة وشعر رثاء المدن والممالك على وجه الخصوص، وهو من الأغراض التي توسعوا فيها، وقد كان لسقوط مدنها في أيدي الإسبان أثر بالغ في الإكثار من هذا الشعر.

وتحدثت في الفصل السادس عن أعلام الشعر الأندلسي بدءاً بالمقلدين الذين أشرنا إلى طائفة منهم، ومروراً بالشعراء الذين ترددوا بين المحاكاة والتجديد من أمثال ابن زيدون، والمعتمد بن عباد، وانتهاءً بالمجددين الذين بلغت بهم الحركة الشعرية مداها من أمثال ابن حمديس، وابن خفاجة.

وتناولت في الفصل السابع شاعرات الأندلس، اللاتي عشن في بيئة أندلسية متنوعة الأصول، نالت فيها المرأة جانباً من التحرُّر. وكشف شعرهنّ عن جوانب مهمة في نفسية المرأة.

وحرصت في الفصل الثامن على الوقوف عند بعض القصائد المشهورة، وهي قصيدة ابن زيدون النونية التي بعث بها إلى ولادة بنت المستكفي من إشبيلية بعد هروبه من سجن ابن جهور في قرطبة سنة 432هـ متشوقاً إليها، وقصيدة ابن خفاجة في وصف الجبل، وقصيدة أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس.

أما الفصل التاسع وهو الفصل الأخير فقد تناولت فيه فنون النثر الأندلسي، من فنون شفاهية كالخطابة والمناظرات، وفنون النثر الكتابي من رسائل ديوانية وإخوانية وأدبية، وسرديات متنوعة من مقامات أندلسية، ورسائل قصصية تمثلت في «التوابع والزوابع» لابن شهيد، و«حي بن يقظان» لابن طفيل، ودراسات فكرية أدبية تمثلت في كتاب «طوق الحمامة» لابن حزم.

(1) نفح الطيب، 3/ 214.

وأخيراً، فإني لأرجو أن أكون قد وُفِّقت في هذه الدراسة، وهي جدّ متواضعة، قابلة للتطوير والتجديد، وليست نهاية المطاف، وفي ذلك يقول العماد الأصفهاني مقولته المشهورة: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّرَ هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر».

بقي عليّ في الختام أن أتوجه بالشكر الجزيل لدار المسيرة التي لها يد في نشر هذا الكتاب وإبرازه، ثم شكري الخالص لكل من ساعدني على تحمّل عناء البحث وصعوباته، وأخصّ بالذكر القائمين على مكتبة جامعة الإسراء الخاصة.

ولا يسعني، إلا أن أشيد بفضل من سبقني من الدارسين والباحثين الذين تناولوا هذا الأدب بالبحث والدراسة والتحليل، والذين أفدت من دراساتهم في إعداد هذه الفصول وإثرائها بما توصّلوا إليه، من أفكار وآراء، ولا سيّما أستاذي الجليلين الدكتور عبد العزيز عتيق، والدكتور مصطفى الشكعة.

فإلى الزملاء الذين اطّلعوا على هذا الكتاب أو درّسوه، وإلى الطلبة الأعزاء في مختلف الجامعات أهدي هذا العمل، وأرجو أن ينتفع به القارئ.

والله ولي التوفيق

المؤلف

الحياة السياسية والاجتماعية والحضارة الأندلسية والحياة الثقافية في الأندلس

المبحث الأول: الحياة السياسية

المبحث الثاني: الحياة الاجتماعية

المبحث الثالث: الحضارة الأندلسية والحياة الثقافية

الفصل الأول

الحياة السياسية والاجتماعية والحضارة الأندلسية

والحياة الثقافية في الأندلس

المبحث الأول

الحياة السياسية

تمهيد

نرى قبل الشروع في الحديث عن الحياة السياسية في الأندلس، أن نتناول كلمة «الأندلس» التي لم يعرفها العرب إلا في الإسلام، حين أطلقوها على شبه جزيرة إيبيريا بعد فتحها. وأصل هذا الاسم مشوب ببعض الغموض، شأنه في ذلك شأن الاسمين القديمين: إيبيريا عند اليونان، وإسبانيا عند الرومان⁽¹⁾.

إن اسم الأندلس مشتق، في الأرجح، من «فنداليسيا» Wandalicia، والفندال هم القبائل التي غزت إسبانيا في القرن الخامس للميلاد. ولما دخل الفاتحون من عرب وبربر أطلقوا هذا الاسم على البلاد التي وقعت في حوزتهم.

ويذكر المقرئ أن «أول من سكن بالأندلس على قديم الأيام فيما نقله الأخباريون..... قوم يُعرفون بالأندلس - معجمة الشين - بهم سُمي المكان، فعُرب بعد بالسين غير المعجمة»⁽²⁾

(1) انظر: دائرة المعارف الإسلامية، 3/ 35.

(2) نفح الطيب، 1/ 130

ومنذ أخذ الإسبان يستولون على البلاد فَقَدْ هذا الاسم مدلوله بالتدريج، فاقصر على الأقاليم الجنوبية التي ظلت في حوزة العرب تُعرف به، ثم لم يعد يُعرف به بعد ذلك سوى إقليم صغير هو مملكة غرناطة⁽¹⁾.

وكثيراً ما يطلق على الأندلس اسم «جزيرة الأندلس» وهي في الواقع شبه جزيرة، وإنما سُميت جزيرة بالغلبة، كما سميت جزيرة العرب⁽²⁾.

تقع الأندلس في الجنوب الغربي من أوربا، يحدها من الغرب بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) ومن الجنوب بحر الزقاق (مضيق جبل طارق) وجزء من بحر الروم (البحر المتوسط) الذي يكتنفها ممتداً إلى شرقيها. أما في الشمال فتحدها بلاد الفرنجة (فرنسا)، ويفصل بينهما الجبل الحاجز (جبال البرانس).

اجتاح القوط الغربيون هذه البلاد في أوائل القرن الخامس الميلادي، وأسسوا فيها دولة عاصمتها مدينة طُلَيْطَلَة. وكانت قُبَيْل الفتح الإسلامي تشهد أحوالاً سيئة، من تنافر بين طوائف الشعب، وضرائب باهظة على الناس، واستبداد الموسرين بالفلاحين، وتضعضع السلطة، مما هيا الفرصة لغزو هذه البلاد. وسنقف في دراستنا للحياة السياسية عند المحاور الآتية:

1. فتح الأندلس.
2. عهد الولاة.
3. الدولة الأموية الأندلسية.
4. ملوك الطوائف.
5. دولة المرابطين.
6. دولة الموحدين.
7. بني الأحمر.

(1) انظر: دائرة المعارف الإسلامية، 3/ 36 و37.

(2) انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1/ 362.

أولاً: فتح الأندلس

عاش العرب في الأندلس نحو ثمانية قرون تمتد من سنة 91هـ/ 711م حتى سنة 898هـ/ 1492م، وكان فتح الأندلس امتداداً لحركة الفتح الإسلامي، بهدف نشر الدعوة، وكان مما ساعد عليه انشقاق البيت القوطي المالك في الأندلس، إذ اغتصب لذريق Roderic العرش القوطي بعد وفاة الملك غيطشة Witiza. وكان يوليان Julien حاكم سبتة Ceuta يسعى لإسقاط لذريق، فعرض على موسى بن نصير أن يفتح العرب الأندلس، ووعد بالمساعدة، فاستأذن موسى بن نصير الخليفة الأموي الوليد ابن عبد الملك، فأذن له ونصحه بالترث في مواجهة العدو، فبعث موسى مولى له يدعى طريف بن مالك النخعي في حملة صغيرة في رمضان سنة 91هـ بمعونة يوليان، ونزل على ساحل الجزيرة الخضراء التي أصبحت تسمى جزيرة طريف Tarifa لنزوله بها، فقتل وسبى وعاد بغنائم كثيرة.

وفي العام التالي أعد موسى بن نصير حملة بقيادة مولى له آخر هو طارق بن زياد في سبعة آلاف رجل من البربر ليس فيهم إلا ثلاثمائة من العرب، فأقلتهم سفن يوليان. ونزلوا في خامس رجب من سنة 92هـ (28/4/711هـ) عند المنطقة الجنوبية من الأندلس التي عرفت فيما بعد باسم جبل طارق وفي وادي بكة Bekka التقى المسلمون بجيش لذريق، وكان طارق قد استنجد بموسى فأمدّه بخمسة آلاف رجل فأصبح جيشه اثني عشر ألفاً، في حين بلغ جيش لذريق، على رواية ابن خلدون أربعين ألفاً، ونشبت المعركة بين المسلمين والقوط في 28 رمضان من سنة 92هـ (19/7/711م)، وبعد ثمانية أيام من القتال الضاري تمزق الجيش القوطي وانهزم لذريق، وتم النصر للمسلمين وقد عرفت هذه المعركة بمعركة وادي البرباط على مقربة من مدينة «شدونة».

ويصف المقرئ المعركة بقوله⁽¹⁾: «فلما أصبح الفريقان تجمعوا وعبثوا جيوشهم، وحمل لذريق وهو على سريره، وحمل على رأسه رواق ديباج يظلمه، وهو مقبل في غابة من البنود والأعلام، وبين يديه المقاتلة والسلاح. وأقبل طارق في أصحابه عليهم

(1) نفح الطيب، 1/ 226 و 227.

الزرد، ومن فوق رؤوسهم العمائم البيض، وبأيديهم القسيّ العربية، وقد تقلّدوا السيوف، واعتنقوا الرّماح. فلما نظر إليه لثريق داخله منهم الرعب، ورآه طارق فقال: هذا طاغية القوم، ثم حمل وحمل أصحابه معه، ففترقت المقاتلة من بين يدي لثريق، فخلص إليه طارق فضربه بالسيف على رأسه، فقتله⁽¹⁾ على سريرته، فلما رأى أصحابه مصرع صاحبهم، اقتحم الجيشان، وكان النصر للمسلمين، ولم تقف هزيمة العدو على موضع، بل كانوا يُسلمون بلداً بلداً ومعقلاً ومعقلاً.

ولم تكذب شائراً هذا الانتصار تصل إلى عدوة المغرب، حتى أخذ المسلمون يتدفقون على الأندلس ويستوطنون النواحي المفتوحة، وانضم كثير منهم إلى جيش طارق. وتجدر الإشارة إلى أن موسى بن نصير وهو الذي أمد طارقاً بخمسة آلاف جندي، نبّهه إلى عدم التّوغل بغير إذنه، وأمره ألا يتجاوز مكانه حتى يلحق به. ولكنه استمرّ في فتوحاته حتى بلغ بها إلى مدينة طليطلة وما وراءها.

ولم يلبث موسى بن نصير أن توجه إلى الأندلس، بجيش يزيد على العشرة آلاف من البربر والعرب، وكان لقاء القائدين في طليطلة سنة 93هـ.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن موسى بن نصير كان ناقماً على طارق لأنه تجاوز الخطة المرسومة له، وافتتح أكثر الأندلس فوبّخه وأهانته. وهي مسألة اختلف فيها المؤرخون⁽²⁾.

وإذ وصلت أنباء هذا الفتح العظيم إلى الخليفة الوليد، وبلغه ما أصاب المسلمون من الأموال والغنائم، بعث إلى موسى بخطاب يأمرهما فيه بالشخص إلى دمشق، فولّى ابنه عبد العزيز وعاد مع طارق، وقد بلغ الفتح منتهاه في الأندلس.

وكان سليمان بن عبد الملك ولي العهد، قد أحس بدنوّ أجل أخيه، فكتب إلى موسى يأمره بالترّيث في رجوعه بالغنائم والأسرى، حتى يصل إلى دمشق وهو (أي

(1) اختلف المؤرخون في ذلك، فمنهم من اتفق مع المقرّي، ومنهم من زعم أنه غرق، والواقع ليس كذلك.

(2) نفع الطيب، 218/1.

سليمان) خليفة، إلا أنه وصل والوليد حيّ، فرأى أمراء القوط يمرون أمامه ووراءهم الغنائم الثمينة.

فلما تولى سليمان الخلافة سنة 96هـ نكب موسى بن نصير، بحكم سياسته التي بناها على العصبية اليمنية، والحقده على الولاة ذوي العصبية القيسية. ومن ثمّ أفل نجم موسى وهو القائد العظيم. وكذلك انتهت حياة طارق وطواه النسيان، وقد علمنا من المؤرخين أنه رحل مع مولاه موسى بن نصير إلى الشام وانقطع خبره، دون أن ينال شيئاً مما كان قد أنجزه من فتح عظيم وغنائم وفيرة امتلأت بها خزائن بني أمية. وإذا كان سليمان قد غمطه حقه، فإن اسمه ظل في ذاكرة الزمن على تلك البقعة التي وطئها قدماه، وسميت باسمه «جبل طارق».

ويبدأ عهد جديد بتوليّ عبد العزيز بن موسى ولاية الأندلس، عُرف بعهد الولاة.

ثانياً: عهد الولاة 95-138هـ/714-755م

ويبدأ هذا العهد بولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير، إثر عودة أبيه إلى دمشق سنة 95هـ/714م. واتخذ عبد العزيز إشبيلية عاصمة له. واستطاع أن يحقق إنجازات حربية تلبية لرغبة الخليفة الوليد بن عبد الملك وقد شجع مصاهرة الإسبان بتزوجه أم عاصم زوجة لذريق ولم تطل مدة ولايته إذ قتل بتدبير من حبيب بن أبي عبيدة الفهري سنة 98هـ/716م.

ثم تعاقب على ولاية الأندلس سبعة عشر والياً بعد عبد العزيز، وكانوا يُعيّنون من قبل الخليفة حيناً، ومن قبل عامل إفريقيا حيناً آخر. وقد اتسم هذا العهد بالفتن والاضطرابات التي أذكتها العصبية القبلية بين العرب في الأندلس حيناً والتنافس بين العرب والبربر حيناً آخر.

ومع هذه الصراعات فإن المسلمين افتتحوا بلداً جديدة كبرشلونة Barcelona وقشتالة Castille ووصلوا إلى قلب فرنسا في ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، حتى بلغوا Tours. وخاضوا معركة بلاط الشهداء التي تغلب فيها الإفرنج عليهم بقيادة شارل مارتل حيث استشهد الغافقي سنة 114هـ/732م.

وأيا كان الأمر، فقد كان يوسف بن عبد الرحمن الفهري آخر هؤلاء الولاة، وبقي والياً على الأندلس إلى أن غلب عليها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، المعروف بالداخل، وأسس فيها الدولة الأموية الثانية سنة 138هـ/755م.

ثالثاً: الدولة الأموية الأندلسية

1. إمارة قرطبة (138-300هـ/755-912م)

بعد سقوط الدولة الأموية في دمشق سنة 132هـ، على أيدي العباسيين، الذين أعملوا السيف في رقاب بني أمية، استطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ابن عبد الملك بن مروان أن يفلت من قبضة العباسيين، ويفر مع مولاه بدر حتى خلص إلى المغرب، ولم يلبث بعد خمس سنوات أن نزل على أخواله بني نفزة بالقرب من سبتة، وكانت أمه من سبيهم. مما ساعده على كسب ودهم.

كان عبد الرحمن يطمح في الأندلس، وكانت تضمّ الجند الشاميين الذين بعث بهم جدّه هشام بن عبد الملك إلى الأندلس بقيادة بلج بن بشر؛ لإخماد ثورة البربر فيها. وبعث مولاه بدر إلى الأندلس، فاجتمع بهم وقاموا بالدعوة له.

وإذ نجحت هذه الدعوة عبر البحر إلى الأندلس ودخلها في شهر ربيع الأول من سنة 138هـ، إبان عهد الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، واستقبل استقبالاً حسناً ولُقّب عبد الرحمن بالداخل لأنه أول أمير أموي دخل إلى الأندلس. واستطاع أن يلحق هزيمة منكرة بآخر ولاية الأندلس يوسف الفهري، ولم يلبث أن دانت له بلاد الأندلس، واستقلّ له الأمر فيها، وقطع الدعوة للخليفة المنصور العباسي وآله من فوق منابر الأندلس⁽¹⁾.

وتمكن من إلحاق هزيمة بالجيش الذي سيّره إليه بقيادة العلاء بن المغيث والي إفريقيا من قبل المنصور، وبعث برؤوس كثير من القتلى بمن فيهم العلاء إلى القيروان ومكة، حيث ألقيت سرّاً في أسواقها، ومعها لواء العباسيين، وكتاب المنصور للعلاء،

(1) نفح الطيب، 1/ 310-358.

فارتاع المنصور لذلك وقال: ما هذا إلا شيطان! الحمد لله الذي جعل بيننا وبينه البحر⁽¹⁾. وسمّاه «صقر قریش»، إعجاباً به وبشجاعته.

قويت الدولة في عهد عبد الرحمن الداخل، فكانت تفد عليه في قرطبة رُسل إمبراطور القسطنطينية بالهدايا، واستطاع أن يلحق هزيمة بشارلمان في مقاطعة الباسك، التي أثمرت ملحمة شعرية في الأدب الفرنسي عُرفت بـ «أنشودة رولان» في تمجيد مصرع قادة شارلمان، ومنهم القائد رولان.

وقد كانت مدة حكم عبد الرحمن الداخل أربعاً وثلاثين سنة، وقد شهدت الدولة في عهده ازدهاراً سياسياً واجتماعياً، يغلب عليه الطابع الأموي الشامي سواء في العادات أو في طريقة الحكم أو في التنظيم الإداري.

وتجدر الإشارة إلى أن عبد الرحمن الداخل كان يقرض الشعر، ويعبر به عن حنينه إلى الأهل والوطن، فقد رأى ذات يوم نخلة منفردة في رصافة قرطبة بعد أن أنشأها، فأهاجت شجنه وتذكّر وطنه، فقال بديهة⁽²⁾:

تبدّت لنا وَسَطَ الرّصافةِ نخلةٌ تناءتْ بأرضِ الغربِ عن بلدِ النخل
فقلتُ: شيهي في التّغربِ والتّوى وطولِ التّناهي عن بنيّ وعن أهلي
نشأتْ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ فمثلُك في الإقصاءِ والمتّاي مثلي
سقاكُ غواذي المّزنِ من صوبها الذي يَسُحُّ ويستمرّي السماكين بالوَبَلِ⁽³⁾

وتداول الحكم من بعده في إمارة قرطبة ستة من أبنائه وأحفاده، هم: هشام ابن عبد الرحمن الداخل (172-180هـ) والحكم ابنه (180-206هـ)، وعبد الرحمن ابن الحكم (602-238هـ) وولده محمد (238-273هـ)، ثم المنذر (273-275هـ) وعبد الله (275-300هـ) ولدا محمد بن عبد الرحمن الحكم.

(1) نفع الطيب، 1/ ص311.

(2) البيان المغرب، 2/ 90.

(3) يستمرّي: يستدّر، والسّماكان: نجمان منيران.

2. خلافة قرطبة (300-422هـ / 912-1031م)

أ. عبد الرحمن الناصر

تقلّد عبد الرحمن الثالث الحكم وهو في الرابعة والعشرين من عمره، في اليوم الذي توفي فيه جدّه الأمير عبد الله، الذي كان يؤثّر على بنيه ويتوسّم فيه خيراً. وقد دام حكمه خمسين سنة وستة أشهر وثلاثة أيام، من مستهل ربيع الأول سنة 300هـ / 912م إلى ليليتين خلّتا من شهر رمضان سنة 350هـ / 961م⁽¹⁾.

وشهد عهده ازدهاراً، لطول مدة حكمه من جهة، ولمقدرته وحسن سياسته في مواجهة الأحداث، إذ دامت غزواته عقدين من الزمن تغلب فيها على مناوئيه من ملوك الإسبان، وأخضع العصاة الثائرين وجمع كلمة المسلمين، حتى غدت دولته مرهوبة الجانب «ولم تبق أمة سمعت به من ملوك الروم والإفرنجة والمجوس وسائر الأمم إلا وفدت عليه خاضعة راغبة، وانصرفت عنه راضية، ومن جملتهم صاحب القسطنطينية العظمى فإنه هاداه ورغب في موادعته»⁽²⁾.

وعبد الرحمن الثالث هو أول من تسمى من أمراء الأمويين في الأندلس بأمير المؤمنين، وذلك بعد اضطراب أمر الخلافة العباسية واستبداد الأعاجم من ترك وديلم بالخليفة العباسي الذي أصبح ألعوبة في أيدي جنودهم. ومن ثم أعلن عبد الرحمن نفسه خليفة وتلقّب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله سنة 316هـ / 928م.

وبلغت الأندلس في عهده أوج مجدها، فنهضت الآداب والعلوم في قرطبة التي نافست بغداد وأصبحت مدينة العلم والأدب والفن، وبنى على مقربة منها قصر الزهراء الذي استغرق بناؤه خمساً وعشرين سنة، واستدعى إليه مهرة البنائين من بغداد والقسطنطينية.

وأنشأ أسطولاً بحرياً وجيشاً قوياً لبسط سيطرته على الأندلس، وفرض هيبة الدولة على الأعداء في الخارج.

(1) البيان المغرب، 2/ 234.

(2) نفح الطيب، 1/ 343. وموادعته: مهادنته ومسألته.

وقد وافته المنية وهو في الرابعة والسبعين من عمره. وعلمنا أنه كتب بخط يده: أيام السرور التي صفت لي دون تكدير يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا، فعُدَّت تلك الأيام فوجد فيها أربعة عشر يوماً⁽¹⁾. مما يدل على أنه لم يقعد عن الجهاد وأنه لم يأل جهداً في سبيل وحدة الأندلس وأمنها واستقرارها.

ب. الحكم المستنصر (350هـ-366هـ/961-977م)

تولى الخلافة بعد أبيه الناصر سنة 350هـ/961م، وبويع في حفل عظيم وصفه المقرئ وصفا مفصلاً يدل على أبهة المراسم التي جرت له. وكانت سياسته امتداداً لسياسة أبيه، فكانت غزواته كثيرة، أخضع فيها الثائرين مع الفرنجة، وكان ميالاً إلى العلوم والآداب، ويذكر المقرئ أن عدد الفهارس في خزانة العلوم والكتب في عهده بلغت أربعاً وأربعين فهرسة، في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر الدواوين لا غير⁽²⁾.

وقد امتاز عهده بإنشاء المدارس والمكاتب، فابتنى في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة، واتخذ لها المؤدين، وجعلها مجاناً للطلاب، وأتم بناء المسجد الجامع بقرطبة، وأرسل البعوث العلمية إل الشرق لنسخ الكتب، وقد بلغت في خزانته أربعمئة ألف كتاب، منها كتاب الأغاني الذي اشترى نسخة منه بمبلغ ألف دينار من الذهب⁽³⁾.

قال ابن خلدون: «ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة إلى أن بيع أكثرها في حصار البربر، وأمر بإخراجها وبيعها الحاجب «واضح» من موالي المنصور بن أبي عامر، ونهب ما بقي منها عند دخول البربر قرطبة، واقتحامهم إياها غنوة⁽⁴⁾».

ج. الحاجب المنصور

هو محمد بن عبد الله بن أبي عامر، ويعود نسبه إلى عبد الملك المعافري، أحد الوافدين إلى الأندلس إبان حملة طارق بن زياد. وقد انتقل محمد من قرية «تركش» إلى

(1) البيان المغرب، 2/ 346.

(2) نفح الطيب، 1/ 182.

(3) م.ن، 1/ ص 361 و 362.

(4) م.ن.

قرطبة حيث اتخذ لنفسه دكانا عند باب القصر يكتب فيه لمرافقي السلطان وخدمه. ثم إن الحكم عهد إليه أمر الإشراف على ابنه هشام، واستطاع أن يكسب عطف الملكة «صبح» امرأة الحكم الإسبانية الأصل.

ولما توفي الحكم سنة 366هـ استبدت بأمور الدولة، لصغر سن هشام، وأخذ يتخلص من منائيه ولم يلبث أن تسلّم السلطة وأصبح ملكاً على الأندلس، ولقب نفسه بالحاجب المنصور.

وقد عُرف المنصور بكثرة غزواته التي استردّ بها ما كان فقدته الحكم وأعاد إلى الدولة سطوتها وهابه ملوك الإسبان. وكان محبا للأدب والعلوم يجود على العلماء والشعراء، على أنه وُجّهت في عهده التهمة إلى المشتغلين بالفلسفة في دينهم، ولم يسلم الشعراء من هذه التهمة كابن هانئ الأندلسي الذي رُمي بالزندقة، والشاعر أبي عبد الله البجالي الذي اتهم في دينه، وسجنه المنصور.

وموته سنة 392هـ ومقتل ابنه المظفر من بعده ينتهي حكم العامريين، وتعود السلطة إلى بني أمية، ويتعاقب فيها خلفاء غير أكفاء⁽¹⁾ فتدبّ الفوضى وينعدم الأمن، ويبدأ عهد الاضطراب أو كما يسميه المؤرخون «عهد الفتنة»، وقد ظلت نار هذه الفتنة مشتعلة حتى 422هـ/ 1031م وهي السنة التي مات فيها هشام الثالث آخر خليفة أموي. وقد كانت قرطبة إبان هذه الفترة مسرحاً لاضطرابات دامية، أدى فيها البربر دوراً مهماً ليلهم إلى العامريين، فلاقت من جرّاء هذه الفتنة ضرراً كبيراً فنُهبت وخرّب أجل قصورها.

(1) الخلفاء الذين تعاقبوا في أثناء الفتنة.

1. محمد المهدي (349-400هـ).
2. سليمان المستعين بالله (400-407هـ).
3. عبد الرحمن المرتضى (408-409هـ).
4. عبد الرحمن المستظهر بالله (414هـ).
5. محمد المستكفي بالله (414-416هـ).
6. هشام الثالث المعتمد بالله (418-422هـ).

ولم يلبث أن صار الأمر في قرطبة إلى أمراء الطوائف، من بربر وعرب وموال، أخذوا يقتسمون الأندلس ويستبدّون بأمرها، ويبدأ عصر جديد هو عصر ملوك الطوائف.

رابعاً: ملوك الطوائف (403-536 هـ/1012/1142م)

لم تكد الدولة تبلغ نهاياتها حتى استحالت إلى دويلات صغيرة متناثرة، يحكمها رؤساء الطوائف الذين عرفوا في التاريخ الأندلسي بملوك الطوائف ومن أهم هذه الدويلات:

1. الدولة الهوديّة: في سرقسطة Saragosse من سنة 400هـ/1009م إلى سنة 536هـ/1141، وهي دولة عربية، أشهر ملوكها المقتدر بالله وابنه المؤمن.
2. الدولة الزيرية: استقلّت في غرناطة سنة 403هـ، وهي دولة بربرية، من سنة 403هـ/1012م إلى سنة 483هـ/1090م.
3. الدولة الحمودية: استقلّت في عهد المستعين الأموي سنة 407هـ/1016، وهي شيعيّة من المغرب تنتسب إلى إدريس من سلالة الحسن بن علي، وتعاقب على الحكم فيها أحد عشر ملكاً، تنقلت بين قرطبة ومالقة والجزيرة الخضراء، ثم انتهت بمقتل آخر ملوكها القاسم الواصل سنة 450هـ/1058م.
4. الدولة العامرية: في بلنسية Valence، من سنة 412هـ/1023م إلى سنة 478هـ/1901م وهم من موالي بني عامر. ومنهم زهير العامري الذي أخرج المؤيد هشام بن الحكم من «المرية» عندما ظهر بعد اختفائه وانقطاع أخباره.
5. الدولة العبّادية: في إشبيلية من سنة 414هـ/1023م إلى سنة 484هـ/1091م، وهي عربية من بني لحم من ولد النعمان بن المنذر. ومن ملوكها المعتمد بن عبّاد، وتعد من أبهج الدول في الكرم والفضل والأدب، فقد اتصل بملوكها الشاعر ابن زيدون.
6. دولة بني الأفطس: في بطليوس Badagoz سنة 413هـ/1032م إلى سنة 487هـ/1094م، وبني الأفطس من مشاهير ملوك الطوائف، وينتمون في الأصل إلى بربر مكناسة. ولابن عبدون قصيدة في رثائهم مطلعها:
الدهرُ يفجع بعد العين بالآثر فما البكاء على الأشباح والصور؟!

7. الدولة الجَهَوْرِيَّة: في قرطبة من سنة 422هـ / 1301م إلى سنة 463هـ / 1070م، قامت بعد سقوط الخلافة الأموية. وأول ملوكهم أبو الحزم بن جهور، وكان وزيره ابن زيدون.

8. دولة بني ذي النون: في طليطلة من سنة 487هـ / 1075م وأصلهم من بربر المغرب. عاشت هذه الدويلات نحو مائة عام، وإذ جمع الملوك الإسبان كلمتهم فقد هاجموا واحدة واحدة حتى إذا طلبت إشبيلية النجدة من يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، تقدّم من عدوة المغرب إلى الأندلس ومحا هذه الدويلات إلا دولة سرقطه التي احتمت بالفرنجة حيناً، ثم أصبحت في عهدة المرابطين سنة 503هـ / 1109، واستعادها ألفونس الأول ملك أرغون Aragon سنة 512هـ / 1118م.

أما أسباب سقوط هذه الدويلات فتعود إلى تفرّق الكلمة، وإلى الحروب المتصلة التي قامت بين ملوكها، وكان بعضهم يلوذ بالفرنجة ويستنجد بهم، فيغتنم هؤلاء الفرصة ويهاجمون الأندلس ويستولون على مدنها.

وكان من بين هؤلاء الملوك من خطب لبني أمية على المنابر أو لبني العباس على بعد الشُّقَّة، وقد يتلقب بعضهم بنعوت الخلفاء كبني عباد، فكان منهم المعتضد والمعتمد. وقد عرّضهم ذلك للنقد والسخرية، في مثل قول أبي بكر بن عمّار⁽¹⁾:

مما يَزْهَدُ في أرض أنْدلسٍ أسماءُ معتضدٍ فيها ومعتمد
القابُ مملكةٍ في غير موضعها كاهراً يحكي انتفاخاً صورة الأسدِ

وإذا أردنا أن نسجل مآثرة لهذا العهد، فهي النهضة التي شهدتها الأندلس، إذ اشتد التنافس بين ملوك الطوائف، سواء في ابتناء القلاع والحصون أو في مجالس الأدب وتشجيع الشعراء والكتاب.

خامساً: دولة المرابطين في الأندلس (484-555هـ / 1091-1160م)

نشأت دولة المرابطين في المغرب، وتعود إلى قبائل صنهاجة التي كانت تسكن صحراء شنقيط (موريتانيا حالياً)، وكان من عاداتهم أن يضعوا لثاماً على وجوههم فلقبوا بالملثمين.

(1) نفح الطيب، 2 / 125.

وعُرفوا بالمرابطين لأن أحد زعمائهم وهو يحيى بن إبراهيم أقام دعوته في رباط في أقاصي الصحراء، وكثر أتباعه حتى بلغ عددهم نحو ألف رجل ثم انطلقوا إلى الجهاد، ونجحوا في تأسيس دولة المرابطين، التي عظم أمرها في عهد يوسف بن تاشفين، إذ فتح فاس وطنجة وسبتة وبنى مراكش واتخذها عاصمة له سنة 454هـ.

وكانت الأندلس تعاني من التهديد الإسباني، ومن ملوكها الذين أسرفوا على أنفسهم في اللهو والمجون، وفي معاداة بعضهم بعضاً. واستطاع ألفونس السادس ملك قشتالة أن يخضع ملوك الطوائف وأن يصل بجنده إلى جزيرة طريف. وإذ بلغ الضعف بالمسلمين منتهاه؛ فقد استنفروا الأمير يوسف بن تاشفين، وكتب إليه المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية يستصرخه ويشرح له واقع الحال، فلبى النداء وعبر إليهم بجيش المرابطين، وأنقذهم من أعدائهم الإسبان في واقعة الزلاقة الشهيرة سنة 479هـ/1086م، وتلقب منذ ذلك اليوم بأمير المسلمين، ثم رجع إلى المغرب. ولم يلبث أن أعاد الإسبان الكرة، فطلب المعتمد النجدة ثانية، فعاد ابن تاشفين في سنة 483هـ/1090م وأنقذ المسلمين من أعدائهم سنة 484هـ/1091م إلا أنه في هذه المرة كان يطمح في الأندلس ومواردها، إذ طابت له برياضها وقصورها، فقضى على ملوك الطوائف، وأخذ المعتمد بن عباد أسيراً إلى أغمات، وضم الأندلس إلى ملكه.

توفي يوسف بن تاشفين سنة 500هـ/1106م وقام بأمر الدولة من بعده علي ابن يوسف، فجعل مقره مراكش وترك في الأندلس أخاه ولم تنعم الأندلس في عهده بالاستقرار، بل ازدادت الأوضاع سوءاً، فثار أهل الأندلس على المرابطين وطردها عما لهم. وكان ذلك إيذاناً بقدوم الموحيدين إلى الأندلس سنة 555هـ/1160م.

سادساً: دولة الموحيدين (555-665هـ/1160-1267م)

قامت دولة الموحيدين في المغرب الأقصى بعد تغلبها على المرابطين، وتعود إلى قبائل المصامدة. وعُرفوا بالموحيدين لقولهم بالتوحيد على طريقة الأشاعرة، وهم من أتباع محمد بن تومرت الملقب بالمهدي، وكان قد خرج يطلب العلم في الأندلس ثم رحل إلى الشرق حاجاً، وأخذ عن الإمام الغزالي في المدرسة النظامية ببغداد.

فلما رجع إلى المغرب شرع يدعو الناس إلى التمسك بالشرع وأحكام السنة، ومحاربة الفساد، وقد انضم إلى دعوته خلق كثير، ثم دعاهم إلى جهاد المرابطين في بلاد الغرب، فأوقعوا بهم حتى بلغوا مراكش، ولكنها امتنعت عليهم. وقد عاجلته المنية سنة 524هـ.

فخلفه كبير أصحابه وهو عبد المؤمن بن علي الكومي، من قبيلة مصمودة فتابع جهاده حتى قضى على دولة المرابطين سنة 546هـ وأقام دولة الموحدين. ولم تلبث أن جاءته الوفود من الأندلس تباعه وتستنجد به على الإسبان الذين أغاروا على أطراف البلاد، ثم جاز مضيق جبل طارق فاستولى عليها سنة 555هـ، وضمها إلى دولة الموحدين.

توفي عبد المؤمن سنة 558هـ/1162م، وخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذي عبر إلى الأندلس وحارب الأعداء على أبواب مدينة شنترين حيث أصيب وتوفي سنة 580هـ. وخلفه ولده أبو يوسف يعقوب الخليفة المنصور، وفي عهده بلغت الدولة أوج مجدها، إذ تغلب على الفرنجة في معركة الأرك سنة 591هـ وقتل منهم ما يزيد على مائة ألف وأسر منهم عشرات الآلاف.

ولما توفي خلفه ابنه محمد بن يعقوب الملقب بالناصر، وفي عهده هُزم المسلمون في معركة العقاب سنة 609هـ، مما أضعف دولة الموحدين، وأدى إلى سقوط المدن الأندلسية في أيدي الإسبان. وولي الخلافة بعد وفاته سنة 610هـ عدد من الخلفاء الضعاف المتصارعين على السلطة، حتى خرجت الأندلس من طاعة الموحدين سنة 665هـ بعد سقوط سرقسطة في يد الإسبان وقيام مملكة بني الأحمر في غرناطة. وبذلك انتهى حكم الموحدين الذي زاد على مائة سنة.

شهدت الأندلس في عهد الموحدين نهضة علمية وأدبية، فقد استقدم أبو يعقوب الفلاسفة إلى بلاطه كابن طفيل وابن رشد، وكان محبا للعمارة ومن آثاره الباقية منارة الجامع الكبير في إشبيلية.

سابعاً: دولة بني الأحمر (635هـ-898م/1237-1492م)

كانت الأندلس تشهد حالة من الفوضى والاضطراب بعد زوال الموحيدين منها، ولم يستطع محمد بن هود صاحب بطليوس أن يصمد في وجه ملوك الإشبانية، ولا أن يحرس مملكته، فاستولى الإفرنج على قرطبة سنة 633هـ/1235م، وكان سقوطها كارثة عظيمة، وقتل ابن هود في المرية Almeria، ولم يبق للمسلمين غير إمارة واحدة هي دولة بني الأحمر.

ويعود بنو الأحمر إلى أصول عربية، فهم يُعرفون ببني نصير، وينتسبون إلى سعد ابن عبادة سيد الخزرج⁽¹⁾.

وقامت دولتهم في غرناطة، واستطاعت هذه الإمارة أن تقف في وجه الفرنجة زهاء قرنين ونصف وذلك لعاملين:

1. أولهما: أنها كانت تستنجد سلاطين المغرب أيام المحنة، فتعبر إليها الجيوش لدفع الأعداء عن أرباضها.

2. والثاني: انشغال ملوك الإشبانية بالقتال فيما بينهم.

وقد عرفت غرناطة في عهدهم أزهى عصورها، إذ شُيّد قصر الحمراء الذي لا تزال معالمه حتى اليوم، كما شهد نهضة أدبية وعلمية. إلا أنها على الصعيد السياسي شهدت أسوأ عصر مُئيت به الأندلس، من حروب وفتن واضطرابات وصراع على السلطة، بلغ ذروته بين السلطان أبي الحسن علي بن سعد وابنه أبي عبد الله محمد من ناحية، ثم بين الأخير وعمه أبي عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل من ناحية أخرى⁽²⁾.

ويُروى أن أبا عبد الله بات هو وأهل بيته ليلتهم الأخيرة في الحمراء يزُمون حقائبهم استعداداً للرحيل وغادروا صباحاً والناس نيام والشوارع خالية، أما عائشة الحرة والدته فكانت متجلدة، وأما امرأته وسائر جوارى القصر فقد غلب عليهنَّ

(1) نفح الطيب، 1/ 421.

(2) انظر: شكيب أرسلان، خلاصة تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة، ص 349.

البكاء! ولما وصل الركب إلى قرية على الطريق المؤدي إلى المكان المعين لهم في جبل الشارق، وقف الركب ينتظر وصول أبي عبد الله.

وعند مطلع شمس اليوم الثاني من يناير عام 1492م التقى الملكان بأبي عبد الله بجانب جامع صغير قريب من النهر، وهناك سلّماه ابنه الذي كان مرهوناً، فضّمه إلى صدره وأخذ يُقلبه ثم سلّم مفاتيح غرناطة إلى الملك قائلاً: هذه المفاتيح هي آخر ما بقي من سلطان العرب في إسبانيا، خذها فقد أصبح لك مُلكنا ومتاعنا وأشخاصنا، كما قضت مشيئة الله تعالى، فتقبّلها بالرافة التي وعدت بها، والتي ننتظرها منك⁽¹⁾.

ومضى أبو عبد الله إلى أهله عند مرقب عالٍ يشرف على غرناطة، وأخذ يودّع مدينته الجميلة، متأملاً في أبراجها وقلاعها ومنايرها الصاعدة في السماء، ومروجها الخضراء المنقطعة النظير! وبينما هو على هذه الحال، وإذا بالدخان قد ارتفع فوق القلعة! وإذا بأصوات المدافع تُدوي في الفضاء إيذاناً بأن غرناطة قد دخلت في حوزة الإسبان، وانقطعت منها دولة الإسلام.

ولم يتمالك أبو عبد الله نفسه من هول ما رأى وما سمع، فصاح «الله أكبر» ثم أجهش بالبكاء، فقالت له أمه عائشة:

ابكٍ مثل النساء مُلكاً مُضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال!
ولا يزال هذا الموضع الذي وقف عليه آخر سلاطين العرب في الأندلس، يبكي المنزل والحبيب يُسمى «زفرة المغربي».

ولم يطق أبو عبد الله بعد هذا اليوم أن يُقيم في ضيعته الجديدة، فعبر البحر إلى المغرب، ونزل بمدينة فاس واتخذها مقراً حتى مات عام 940هـ.

وانطوت بذلك آخر صفحة من تاريخ الأندلس، وزال ملك العرب من بلاد تركوا فيها مجدهم وآثارهم وحضارتهم، بعد أن عمروها ثمانية قرون، مرّت كالحلم: وصار ما كان من مُلكٍ ومن مُلكٍ كما حكى عن خيال الطيف وسنانُ

(1) انظر: شكيب أرسلان، خلاصة تاريخ الأندلس، ص 341.

المبحث الثاني

الحياة الاجتماعية

شهدت الأندلس تطوراً كبيراً في مختلف مناحي الحياة الاجتماعية. وسوف نتحدث بإيجاز عن ملامح هذه الحياة، فنتناول عناصر الشعب الأندلسي، فنظام الحكم في الأندلس، فصفات الأندلسيين وعاداتهم التي تميّزوا بها.

أولاً: عناصر الشعب الأندلسي

تألف المجتمع الأندلسي من جملة عناصر، شكّلت النسيج الاجتماعي، وهي خمسة: العرب، والبربر، والموالي، والمولدون، وأهل الدّمة.

1. العرب

وكان العرب في مستهل الفتح قلةً بالقياس إلى البربر الذين شكلوا الأثرية الإسلامية في الأندلس، ثم أخذت أعدادهم تتكاثر بقدم موسى بن نصير أولاً ثم دخول بلج بن بشر بن عياض القشيري وفي صحبته عشرة آلاف، ألفان من الموالي والباقي من بيوت العرب. كما شهد قدوم عبد الرحمن إلى الأندلس تدفقاً جديداً للعرب. وقد شكل العرب طبقة أرستقراطية كانت تحس بالتفوق والتعالي؛ مما ولّد احتكاكاً بالبربر الذين كانوا يثورون عليهم أحياناً. وقد أثر العرب الاستيطان في البوادي والمفاوز التي تلائم طبائعهم⁽¹⁾ وانقسموا إلى قيسية ويمانية. ومن الناحية الاجتماعية ارتبط العرب بمجيرانهم من أهل البلاد بالمصاهرة، وكانوا يسمّونهم «عجم الأندلس».

وقد عُرف العرب بكثرة الإنجاب، مما زاد عددهم في الأندلس، فقد علمنا أن الحكم الرّبضي ترك خمسين من الأبناء عشرين منهم ذكوراً والباقي إناثاً، وترك ابنه المطرف عبد الرحمن مائة من الأولاد خمسين منهم ذكوراً وخمسين إناثاً⁽²⁾.

وقد تدهورت الروح العسكرية عند العرب، ويعود ذلك إلى رغبة الحكام في التخلص من العصية بين القيسية واليمانية، بالاعتماد على الممالك والموالي، فضلاً

(1) نفح الطيب، 1/ 131.

(2) المغرب، 1/ 39 و45.

عن انصرافهم إلى اللهو والترف بعامة، وتزوجهم أو تسريهم بالإسبانيات اللاتي أضعن في أبنائهن روح العروبة.

2. البربر

وكان البربر يشكلون في مستهل الفتح الأكثرية بالقياس إلى العناصر الأخرى، فقد دخل طارق بن زياد في سبعة آلاف رجل من البربر ليس فيهم إلا ثلاثمائة من العرب. ولم تتوقف هجرتهم بحكم الجوار إلى الأندلس وقد اندمجوا في البيئة الجديدة، فاتخذوا زوجات لهم من أهل البلاد، وأقبلوا على اللغة العربية واتخذ بعضهم أسماء عربية. ولم يلبثوا أن أصبحوا في جملة النسيج الاجتماعي الأندلسي.

3. الموالي

وهم موالى بني أمية، سواء من دخلوا إبان الفتح أو بعده، وكانت صلتهم قوية بأمراء بني أمية إذ نالوا مركزا اجتماعيا رفيعاً، وعُرفت منهم بيوتات مشهورة مثل بني أبي عبده، وبني شهيد، وبني حرير وغيرهم. ويليهم في المنزلة «الحلفاء»، وهم فتيان القصر في العهد الأموي، وهم أول من تؤخذ منهم البيعة⁽¹⁾

وقد شكلت هذه العناصر الثلاثة أساس المجتمع الأندلسي، في حين شكلت عناصر أخرى الجزء الأكبر من السكان، وهم: المولّدون وأهل الذمة.

4. المولّدون

وهم الجيل الذي نشأ من المصاهرة بين العرب والبربر من جهة، والعرب بالإسبانيات والصقليّات من جهة أخرى، وقد عرف المولّدون من الإسبانيات بالذكاء والشجاعة والجمال، وكان العرب يقبلون على اتخاذ الزوجات الأجنبية لما عُرف عنهن من جمال وبياض بشرة وزرقة عيون. ولم تلبث أن اختفت هذه التسمية بعد القرن الثالث الهجري إذ تحوّل أهل الأندلس إلى أندلسيين دون تمييز.

(1) نفح الطيب، 1/ 182.

5. أهل الذمة

وهم اليهود والنصارى الذين بقوا على ديانتهم، وتركوا لهم حرية العقيدة، وأدخلوا في ذمة المسلمين. وفي الإجمال كان التسامح معهم هو الغالب، إلا في بعض الأحيان، كان الذميون فيها يوالون العناصر المناوئة للمسلمين.

وتجدر الإشارة إلى أن اليهود استقبلوا الفاتحين العرب بوصفهم محررين، ذلك أن القوط كانوا يسومونهم أنواع العذاب، ولهذا فقد ساعدوا العرب. وفي القرن العاشر الميلادي كانت قرطبة وغرناطة تضمّان أعداداً كبيرة من اليهود، الذين امتهنوا تجارة العبيد، وبيع أدوات الزينة، فضلاً عن أن بعضهم تقلّب في مناصب الدولة ولا سيما في عهد الناصر.

وفي مستهل القرن الرابع الهجري اتخذ الخليفة عبد الرحمن الناصر جيشاً من المماليك، يُوطّد به حكمه، وهم من الصقالبة أسرى الحروب، ومن الرقيق الذين وقعوا في حوزة المسلمين. وبهذا أدخل الناصر على الأندلس عنصراً جديداً هو عنصر الصقالبة مُقلداً في ذلك الخليفة المعتصم الذي أنشأ جيشاً من الأتراك يعتمد عليه لما تعب من العرب⁽¹⁾.

ومن ثمّ لعب الصقالبة الدور نفسه، إذ تقلدوا مناصب عالية في الدولة، وقويت شوكتهم إبان ضعف الخلافة الأموية في الأندلس؛ فاشتركوا في المؤامرات التي كانت تُحاك في قرطبة على الدولة.

ثانياً: نظام الحكم في الأندلس

كانت السلطة العليا في الدولة بيد الأمير أو الخليفة، وهي سلطة كانت تستقر عند وجود الحاكم الحازم من أمثال عبد الرحمن الداخل، والحكم بن هشام، وعبد الرحمن الناصر، والحاجب المنصور بن أبي عامر، فلماذا لم يكن حازماً اضطربت أمور الدولة وعمّت الفوضى.

(1) انظر: أحمد أمين، ظهر الإسلام، 3/ ص 1 و ص 5.

وكان للأندلسيين خطط (وظائف) لتنظيم أعمال الدولة، تبدأ بالوزارة فكان يساعد الخليفة في أمور المالية والأعمال الخارجية ورفع المظالم (القضاء) والإدارة الحربية أربعة وزراء، وكان له مستشاران يسميان الوزيرين، وكثيرا ما كان يطلق على كل منهما اسم ذي الوزارتين.

وكان يتوسط نقل الأوامر بين الخليفة والوزراء رجل يسمى «الحاجب». وقد صارت وظيفته فيما بعد أرفع من وظيفة الوزير، مما جعل بعض الحجاب يستبد بالخلفاء، كالحاجب المنصور وكثيراً ما كان يتسابق ملوك الطوائف إلى أخذ هذا اللقب. وكان لكل مصلحة في الدولة كتاب مختصون بها. والكتابة على نوعين: كاتب الرسائل الذي يتولى كتابة الرسائل الرسمية وغير الرسمية. وله مكانة مرموقة في الأندلس والكاتب الآخر كاتب الزمام، وهو كاتب حسابي.

وصاحب الخراج ذو مكانة عالية تربو على مكانة الوزير؛ لكونه أكثر أتباعاً وأجدي منفعة، إلا أنه كان يتعرض للنكبة والمصادرة إذا ما بدت عليه أعراض كسب غير مشروع.

وكانت وظيفة القضاء مهمة؛ لصلتها بأمور الدين، ولأن القضاة لهم سلطة كبيرة. فكان في كل مدينة قاضٍ، وكان قاضي الجماعة (رئيس القضاة) يقيم في قرطبة، ولم يكن يشغل هذا المنصب سوى أكابر العلماء والفقهاء.

وكان إلى جانب وظيفة القضاء وظيفة العدالة (كاتب العدل)، ويقوم صاحبها بتسجيل العقود والاتفاقات، وكان يُعهد حفظ الأمن إلى رئيس الشرطة، ويُعرف بـ «صاحب المدينة وصاحب الليل»، وبعد منصبه من أعظم المناصب الإدارية والقضائية، فهو يُقيم الحدّ على الزنا وشرب الخمر، كما ترجع إليه كثير من الأمور الشرعية. ويلحق به العسس الذين يسهرون على أمن البلاد، فكان لكل زقاق بائث فيه، أو خفيّر يخفّره، له سراج مُعلّق، وكلب يسهر في حراسته، وسلاح معدّ لوقت الحاجة.

وكذلك وظيفة «الحسبة» التي يتولّاها رجل فطن، فيقوم على مراقبة الأسواق معه أعوانه وميزانه، فيزن الخبز ويمتحن الأسعار ويراقب البطاقات على السِّلَع، ولا

سيما بطاقات أسعار الخبز واللحم وقد يُراقب الباعة سرّاً، فإن ثبتت على أحدهم خيانة ضرب وجُرّس في الأسواق⁽¹⁾.

وكان إلى جانب الطبقة الحاكمة طبقة الفقهاء، ذات النفوذ الواسع، وكثيرا ما كانت تستغلّه في السياسة وتدير الملك.

وهناك طبقة الزراع والتجار والصّناع، وهم الذين نهضت بهم الأندلس وارتقت حاضرتها.

ثالثاً: صفات أهل الأندلس

تميّز أهل الأندلس بصفات خاصة، تكشف عن طباعهم وأخلاقهم وعاداتهم المألوفة، وقد امتدح المقرّي ظرفهم وأدبهم وقال إن فيهم صفات متأصلة تميّزهم عن غيرهم ويتناقلها أولادهم وعلمائهم وكُبرائهم. وفي ما يلي أبرز هذه الصفات:

1. حب النظافة

عُرف أهل الأندلس بحب النظافة، فكانوا «أشدّ خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون وغير ذلك مما يتعلّق بهم، وفيهم من لا يكون عنده إلا ما يقوّنه يومه، فيطويه صائماً، ويبتاع صابوناً يغسل به ثيابه، ولا يظهر فيها ساعة على حالة تنبو العين عنها»⁽²⁾.

2. الكسب والتدبير

وصف الأندلسي بحسن التدبير، وتميّز بحب العمل وكسب العيش بمجده وعمل يده، فكانوا يكرهون الكُذيه والتسوّل، وإذا رأوا قادراً على العمل يمدّ يده للناس احتقروه، ولم يعطوه، فندر المتسولون عندهم، فإن وجدت سائلاً فهو صاحب عذر.

3. الزّيّ الأندلسي

اهتم الأندلسي بلباسه وهندامه، من ذلك أنه يلبس الطيلسان؛ وهو ثوب موصول به غطاء للرأس، وكثيراً ما يلبس الغفيرة؛ وهي لباس يغطي العنق والقفا.

(1) الجرس من أدوات التشهير، والمقصود بالتشهير بالبائع كأنما وضع في رقبة جرس.

(2) نفح الطيب، 1/ 208.

ويغلب على أهل الأندلس ترك العمائم، ولا سيما في شرقي الأندلس، أما أهل غربها فيتعممونها، ولا تكاد ترى فيهم فقيهاً أو قاضياً وهو بعمامة. وكثيراً ما يتزيّا سلاطينهم وجنودهم بزيّ الإسبان المجاورين لهم. والدّؤابة لا يُرخيها إلا العلماء، ويُسدلونها من تحت الأذن اليسرى.

وتسرف بعض النساء الأندلسيات في الزي والزينة، فقد كنّ يعمدن إلى التفتن في لبس المصبّغات والمذهبات والديباجات من الملابس والتماجن في أشكال الحلّي، مما جعل ابن الخطيب يقول: نسأل الله أن يغضّ عنهن فيها عين الدهر⁽¹⁾.

وكان يغلب على الحرائر من النساء الحجاب كأهل الشرق، أما الإماء والسراي فلا تشديد عليهنّ فيه. ولما سمرت ولادة بنت المستكفي وشاركت في مجالس الشعر والأدب، قوبل ذلك بالاستغراب!

4. مذهبهم الديني

كان أهل الأندلس على مذهب مالك إذ أصبح المذهب الرسمي لدولتهم، وذلك لعنائهم الشديد للعباسين الذين ألحقوا أذى كبيراً بملك؛ لميله إلى ثورة محمد النفس الزكية في الحجاز.

ومتذهب بعضهم بمذهب الشافعي، وبعضهم بمذهب داود الظاهري. كما دخل إليهم مذهب الخوارج، ومذهب الاعتزال الذي واجهه فقهاء الأندلس باستنكار شديد. وأتبع بعضهم المذهب الأشعري.

وتجدر الإشارة إلى أن فقهاء الأندلس وسموا أصحاب الفلسفة والمنطق بالزندقة، ولم يسلم ابن حزم وهو الفقيه العالم من الاضطهاد، إذ أحرقت كتبه، وذلك لمهاجمته فقهاء المالكية وإباحته دراسة الفلسفة والمنطق. وكذلك تعرّض ابن رشد الفيلسوف المعروف لأذى شديد وأحرقت كتبه.

5. الغناء واللهو

عُرف الأندلسي بحبه للهو والغناء والموسيقا، وساعد على ذلك عوامل كثيرة، منها كثرة المغنيات الوافدات من الشرق، وقد أفرد لهن الأمير عبد الرحمن الأوسط

(1) الإحاطة، 1/ 145.

داراً بقصره سميت دار المديّنات⁽¹⁾، ومن أشهرهنّ «فضل» المديّة وزميلتها «علّم» المديّة، وكانت كلتاهما أثيرة لديه لجودة غنائها ورقة أدبها.

ومن الفتيات المشرقيات «قمر» التي «جمعت أدباً وظرفاً، ورواية وحفظاً، مع فهم بارع، وجمال رائع، وكانت تقول الشعر بفضل أدبها»⁽²⁾ وكانت جارية لإبراهيم ابن حجاج، ومنهنّ «أنس القلوب» جارية المنصور بن أبي عامر، وكانت من رقة الشعر وحذق الغناء في مكان رفيع⁽³⁾.

ومنها قدوم زرياب الذي أدخل إلى الأندلس الموسيقى والأغاني الشرقية، وقد تلقّن الغناء عن إسحاق الموصلي، وبرع فيه. وفي الأندلس أصبح نديماً لعبد الرحمن بن الحكيم، فأغدق عليه الهبات، وأقطعته الضياع والبساتين. وهو الذي جعل للعود خمسة أوتار، بعد أن كانت أربعة. وقد تعاطى أبناؤه وجواريه الغناء، وساروا على نهجه ومنها ظهور الموشحات الأندلسية التي أخذت طريقها إلى الغناء والموسيقى.

وانتشرت مجالس الغناء في مدن الأندلس بعامة، وإشبيلية بخاصة، حتى صحّ فيها قول ابن رشد: «إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حُمِلت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حُمِلت إلى إشبيلية»⁽⁴⁾.

6. الحرص على العلم

عُرف أهل الأندلس بحب العلم وتقدير العلماء، وقد أنشئت في البلاد معاهد للعلم، في قرطبة وإشبيلية وغرناطة وطليطلة، وكانوا يطلبون العلم في المساجد. وقد راجت العلوم بأنواعها في الأندلس، وكان لها عند أهلها حظ واعتناء، وبخاصة العلوم الدينية واللغوية، ولكن الفلسفة كادت تُصاب بالعقم، ولم تنل اهتماماً إلا عند خواصهم، وهؤلاء لا يتظاهرون بها خوفاً من العامة، فإنه كلما قيل: «فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم». أطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه.

(1) نفح الطيب، 4/ 146.

(2) م.ن، 4/ 136.

(3) م.ن، 2/ 146.

(4) م.ن، 1/ 205-207.

وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحدث عندهم رفيعة، ولفقه رونق ووجاهة، ولقب «الفقيه» عندهم لقب جليل. وعلم النحو عندهم في نهاية من علو الطبقة، وهم كثيرون البحت فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه. والشعر عندهم له حظ عظيم، وللشعراء من ملوكهم وجاهة ورواتب جارية، والمجيدون منهم يُنشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويوقع لهم بالصلوات على أقدارهم⁽¹⁾.

(1) انظر: نفح الطيب، 1/ 205-207

المبحث الثالث

الحضارة الأندلسية والحياة الثقافية

كانت الأندلس من أجمل البلدان الإسلامية، بجوّها المعتدل، وبما فيها من خضرة وماء، وبساتين وأنهار، وجبال وسهول، تجلّت في قول ابن خفاجة:

يا أهل أندلسٍ لله دركم ماءً وظلٌّ وأنهارٌ وأشجارٌ

وقد أضفت الحضارة الأندلسية رونقاً من البهاء والعظمة على هذه البلاد، تمثّلت في المظاهر العمرانية وفي الحركة الثقافية الزاهية التي عمّت أرجاء الأندلس فقد حفلت مدن الأندلس بالقصور الأنيقة، والمساجد، والحمامات والبرك والأحواض والجسور، التي بقيت آثارها حتى اليوم، ومنها القصر الكبير والمسجد وقصر الزهراء وقصر الزاهرة في قرطبة، وقصر إشبيلية وقصر الحمراء الذي شيّده بنو الأحمر في غرناطة.

وقد تنافس الملوك والخلفاء في بناء هذه القصور وأغرموا بتزيينها وزخرفتها، في طليعتهم عبد الرحمن الأوسط الذي بنى عدداً من القصور منها البهو والكامل والمنيف، وابنتى عبد الرحمن الناصر قصراً عظيماً سمّاه «الزاهر»، ولم يلبث أن ابنتى قصراً أعظم منه وأفخم، أسماه «دار الروضة» واستدعى لبنائه كبار المهندسين من بغداد والقسطنطينية⁽¹⁾.

وعبّر عن غرامه ببناء القصور، وذلك في قوله:

هممُ الملوكِ إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالسُنِّ البُنيانِ
أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم ملكٍ حواه حوادثُ الأزمانِ!
إنّ البناءَ إذا تعاضم شأنه أضحى يَدُلُّ على عظيم الشأنِ

وبلغ حدّ الإسراف حين جعل سطح القبة الصغيرة التي كانت تعلو قصر «المرد» قراميد من ذهب وفضة أنفق عليها أموالاً طائلة، وجعل سقفها صفراء ناقصة

(1) انظر: نفح الطيب، 2/ 112.

إلى بيضاء ناصعة تستلب الأبصار بأشعة نورها، وكان لهوسه بها يقول لخواصه: هل رأيتم أو سمعتم ملكاً قبلي فعل مثل هذا أو قدر عليه⁽¹⁾. وكانت هذه القصور حافلة بالأثاث الفاخر والتحف النادرة، ومُحاطة بالبساتين والحدائق والأزهار والرياحين.

أما المنصور بن أبي عامر فقد أمر ببناء خاصية أخرى لقرطبة تنافس «الزّهراء» التي بناها عبد الرحمن الناصر شمالي قرطبة سنة 325هـ، أطلق عليها اسم «الزاهرة»، استغرق بناؤها عشر سنوات (360-370) وأقام فيها هو وحاشيته.

وشهدت الأندلس نهضة فكرية وأدبية، تمثلت في طائفة من علوم اللغة، والدين، والطب، والرياضيات، والفلسفة، والتاريخ والجغرافيا، والموسيقى، والأدب والشعر.

1. علوم اللغة: انبرى علماء اللغة يصنفون المعاجم، والشروح اللغوية، والنحو والصرف، ومنهم: أبو علي القالي (356هـ/967م) صاحب كتاب «الأمالي» وفيه معلومات في اللغة والنوادر والأمثال. وله كتاب «البارع» في اللغة. وأبو بكر الزبيدي (-397هـ/989م)، وله «الواضح» في النحو و«لحن العامة». وابن سيده (-458هـ/1065م) ومن آثاره «المحكم» وهو معجم رتبت ألفاظه على ترتيب كتاب «العين» للخليل بن أحمد، و«المخصص» ورتب مواده بحسب المعاني. والشتمري (-476هـ/1084م) ومن شروحه «شرح ديوان المتنبي» و«شرح الحماسة».

2. العلوم الدينية: وأشهر من عُني بها يحيى بن يحيى الليثي (-849/234م) وقد رحل إلى المدينة، وسمع من مالك وروى عنه، وسافر إلى مصر وأخذ من علمائها، ثم عاد ونشر علمه بين أهل الأندلس⁽²⁾، وعبد الملك بن حبيب السلمي (-238هـ/853م) وقد برع في فقه المالكية، وأبو عبد الرحمن بقي بن مخلد (-276هـ/889م) وهو من أئمة الحديث في الأندلس، والقاضي عياض (-544هـ/1149م)، الذي ولي القضاء بسبته، وكان إمام الحديث في زمانه.

(1) نفح الطيب، 2/ 108 و109.

(2) م.ن، 2/ 217.

3. **الطب والصيدلة:** ومَن برع فيها أبو القاسم الزهراوي (516هـ/1122م) وله «كتاب التعريف لمن عجز عن التأليف» تحدَّث فيه عن الطب النظري والجراحة. وهو أول من استعمل ربط الشريان لمنع النزف، وابن البيطار (-646هـ/1248م) وبرع في علم الأعشاب، وله «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية».
 4. **الرياضيات:** اشتغل بها أبو القاسم أصبغ بن محمد (-426هـ/1035م) وكان عالماً في الحساب والهندسة، وعباس بن فرناس. وقد صنع آلة لمعرفة الأوقات سماها «المثقال»، وحاول أن يطير، فكسا جسمه بالريش، ومدَّ ليديه جناحيه، ولكنه نسي الذنب، فسقط بعد أن طار مسافة بعيدة، وتأذى.
 5. **العلوم الفلسفية:** وقد أقبل عليها طلبة العلم وذاعت عند الخاصة، لكنها تعرّضت لنقد الفقهاء، ووقف الأمراء إلى جانب الفلاسفة تارة، ونقموا عليها تارة أخرى مسترضين العامة بإحراق كتب الفلسفة واتهام أصحابها بالزندقة. ومن أبرز الفلاسفة الأندلسيين:
 - أ. ابن باجة (-533هـ/1138): وهو عميد الفلسفة الأندلسية، وله «مجموعة الفلسفة والطب والطبيعات».
 - ب. وابن طفيل (-581هـ/1185م): صاحب رسالة: «حي بن يقظان».
 - ج. ابن رشد (595هـ/1198م): وهو أشهر فلاسفة الأندلس، وكان كبير القضاة في قرطبة، ولكنه اتهم بالزندقة والخروج على الدين فأحرقت كتبه ونفي ثم عاد من منفاه قُبيل وفاته، ومن مصنفاته «فلسفة ابن رشد» و«فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» و«تهافت التهافت» ردَّ فيه على الغزالي، و«تلخيص كتب أرسطو».
 - د. موسى بن ميمون (-601هـ/1204م): وكان من يهود قرطبة، ثم لم يلبث أن رحل إلى الشرق واستقرَّ في القاهرة. من كتبه «دلالة الحيران» للتوفيق بين مبادئ الوحي ومبادئ الفلسفة.
- وكان ابن حزم (-456هـ/1064م) عالماً مشهوراً، وله «طوق الحمامة» في أحوال المحبِّين والحب وعلاماته، وكذلك أبو بكر الطرطوشي

(520هـ/1126م) صاحب «سراج الملوك» في سياسة السلطان وصفات الوزراء ونظام الدولة.

6. التاريخ: من المؤرخين الذين اهتموا بتاريخ العرب وتاريخ الأندلس:

أ. المؤرخ ابن حيّان (-469هـ/1076م) صاحب كتاب «المبين» في تاريخ الأندلس، ويقع في 60 جزءاً.

ب. الفتح بن خاقان (-529هـ/1134م) وله كتابان، هما: «قلائد العقيان» في تاريخ شخصيات أندلسية من معاصريه، و«مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلح أهل الأندلس» في العلماء والقضاة والفقهاء.

ج. ابن بسام (-542هـ/1147م) صاحب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» في تاريخ الأندلس وأدائها في القرن الخامس الهجري.

د. ابن بشكوال (-494هـ/1100م) وله نحو خمسين مؤلفاً في التاريخ، منها كتاب «الصلة».

هـ. ابن الأبار القُضاعي (685هـ/1259م) ومن مؤلفاته «الحلّة السيّراء» في أخبار المغرب من المئة الأولى للهجرة إلى السابعة.

7. الجغرافيا والرحلات: ومن مشاهير الجغرافيين والرحالة الذين وصفوا رحلاتهم وحالات البلدان:

أ. أبو عُبيد البكري (-487هـ/1094م) ومن مؤلفاته «معجم ما استعجم».

ب. الشريف الإدريسي (-560هـ/1165م) طوّف في البلدان، وانتهى به المطاف إلى صقلية، ونزل على صاحبها روجر الثاني Roger II، وكتب له «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» شرح فيه جغرافية الأرض وأحوال البلاد، ورسم خرائطه وهي إحدى وسبعون.

ج. ابن جبير (-614هـ/1217م): وهو رحالة أندلسي، وصف البلدان التي رحل إليها في كتابه «رحلة ابن جبير». وقد مات في الإسكندرية في أثناء رحلته الثالثة إلى الشرق..

وأيا كان الأمر، فقد كانت الحضارة الأندلسية امتداداً للحضارة الإسلامية في الشرق، وكذلك كان الأندلسيون في آدابهم رديفاً لأداب المشاركة، ولم تكن آدابهم تقليداً فحسب؛ لجدلية العلاقة بينهما، إذ وفد إلى الأندلس بعض المشاركة، مثل أبي علي القالي صاحب كتاب «الأمالى» الذي أسس ثقافة مشرقية في الأندلس، كان من ثمراتها كتاب «العقد الفريد» لابن عبد ربه. وفي المقابل رحل بعض الأندلسيين إلى الشرق، طلباً للعلم تارة، وطلباً للاستقرار تارة أخرى، فقد رحل يحيى الليثي إلى «المدينة» وأخذ عن الإمام مالك، ثم انتقل إلى مصر وأخذ عن علمائها، ثم عاد إلى الأندلس ونشر هذا العلم الذي حمله من المشرق. وكذلك رحل أبو عبد الله محمد بن مالك يطلب النحو والصرف، ورحل ابن زهر يطلب الفلسفة والعلوم الدخيلة، ورحل أبو بكر الطرطوشي يطلب علم السياسة والأخلاق.

لقد تطور الأدب الأندلسي، فاجتاز ثلاثة أطوار، قلّد في الأول فكانت الأساليب والمعاني شرقية في شعر ابن عبد ربه وابن هانئ، وابن شهيد، وابن درّاج القسطلي. وتردد بين المحاكاة والتجديد، في الطور الثاني فالشعراء يمثلون بيئتهم الأندلسية ونزعاتهم الذاتية دون أن يتخلصوا من القديم أو يهملوه إهمالاً تاماً، عند أمثال ابن زيدون، وابن عمار، والمعتمد بن عباد، وابن الحّدّاد. ولم يلبث أن جدّد في الطور الثالث، فبلغت حركة التجديد ذروتها في القرن السادس الهجري عند أمثال: ابن حمديس، وابن عبدون، وابن خفاجة، ولسان الدين بن الخطيب.

ومن معالم هذا التطور والتجديد، تخلص الأدب الأندلسي من قيود القصيدة التقليدية، الذي تجلّى في فن الموشحات، وهو فن أندلسي بامتياز، وفتن الشاعر الأندلسي بجمال الطبيعة، فأخذ يصف إقليمه ودياره التي عاش فيها، وبكى الإمارات والممالك الدارسة. وأبدع الأديب الأندلسي في كتابة القصة الفلسفية التي تمثلت في رسالة «حي بن يقظان» لابن طُفيل، ووضع المصنفات التي أسهمت في إثراء الحركة الأدبية والفكرية، وفي طليعتها «طوق الحمامة» لابن حزم، و«الذخيرة» لابن بسام.

الأغراض الشعرية التقليدية

المبحث الأول: المديح

المبحث الثاني: الرثاء

المبحث الثالث: الغزل

المبحث الرابع: الهجاء

المبحث الخامس: الزهد والتصوف

الفصل الثاني الأغراض الشعرية التقليدية

المبحث الأول

المديح

المديح من فنون الشعر التي نظم فيها الشعراء الأندلسيون، وقد أكثروا منه، حتى لنجد بعض كبار شعرائهم قد خرج معظم شعرهم في المديح من أمثال ابن هانئ الأندلسي، وابن درّاج القسطلبي، وابن حمديس الصقلّي. وقد سار هؤلاء الشعراء على نهج الأقدمين في ألفاظهم ومعانيهم، وفي بناء القصيدة، في تعدّد موضوعاتها.

وكانوا يُعنون بالاستهلال وحسن التخلص، والوقوف على الأطلال والديار، وقد ملأوا مدائحهم بالتملّق والاستجداء، ولكنهم لم يُغرقوا في استعمال الغريب سوى ما نراه عند ابن هانئ الأندلسي الذي تعمّد الغريب، وغالى في مدائحه.

وأكثر ممدوحيه من الملوك والخلفاء والأمراء، وتدور مدائحهم حول صفات تقليدية كالشجاعة والكرم والمروء والوفاء، وحول انتصارات الممدوحين على أعداء الإسلام والمسلمين، فضلاً عن وصف الجيوش والحروب.

ومن المديح الذي يدور حول صفات تقليدية، قصيدة ابن عمار في مدح المعتضد بن عباد والد المعتمد. واستهلها بمقدمة خمرية، ثم انبرى يمدحه، من خلال وصف الطبيعة، مزجها في لوحة فنية جميلة⁽¹⁾:

روضٌ كأنَّ التهرَّ فيه معصمٌ صافٍ أطلَّ عن رداءٍ أخضرَا
وتهزُّه ريحُ الصَّبَا فتخاله سيفَ ابنِ عبادٍ يُبدِّدُ عسكرا
ملكٌ إذا ازدحمَ الملوكُ بموردٍ ونحاه لا يردون حتى يصدُّرا

(1) نفح الطيب، 2/ 177.

أندى على الأكباد من قطر الندى والد في الأكفان من سِنَّة الكرى

وجهلت معنى الجود حتى زرته فقرأتَه في راحتيه مُفسِّراً

هصرت يدي غصن الغنى من كفه وجئت به روض السَّروِ مُنوراً

فلئن وجدت نسيم مدحي عاطراً فلقد وجدت نسيم برك أعطرا

وكان ابن خفاجة يُمهد لدائحه بغزل رقيق، ثم يقف عند مظهر من مظاهر الطبيعة فيصف غمامها أو رياضها إلى أن يصل إلى مدوحه، على نحو ما يلقانا في قصيدته الرائية في مدح أبي الحسن بن الربيع صاحب قرطبة، في مثل قوله:

وغمامة نشرت جناح حمامة والبرق قد نسج الظلام نهارة

متألق صدع الدجى وسقى الثرى فايض ذا نوراً وذا أنوارا

وهذا ابن زيدون يستهل إحدى مدائحه بالغزل بقوله⁽¹⁾:

ما للمدام تُديرها عيناك فيميل في سكر الصبا عطفاك

هلاً مزجت لعاشقك سلافها برود ظلمك أو يعذب لَمَاك⁽²⁾؟

بل ما عليك، وقد محضت لك الهوى في أن أفور بحظوة المسواك⁽³⁾؟

ثم ينتقل إلى مدوحه ابن جهور، ويهتته بولايته الحكم، فيقول:

للجهوري أبي الوليد خلائق كالروض أضحكه الغمام الباكي

ملك يسوس الدهر منه مهذب تدبيره للملك خير مَلاك

جاري أباه بعدما فات المدى فتلاه بين الفوت والإدراك

(1) ديوان ابن زيدون، ص 208.

(2) البرود: العذاب البارد. الظلم: ماء الأسنان أو بريقها. اللَّمى: سُمرة في الشفة.

(3) محضت الهوى: أخلصته.

ويلقانا ابن دراج القسطلبي في قصيدته اللامية التي مدح بها المنصور بن أبي عامر، ووصف الأسطول الذي حمله من الأندلس إلى أفريقيا⁽¹⁾

لك الله بالنصر العزيز كفيل أجدُ مقامَ أم أجدُ رحيلُ
ثم يمضي في وصف أسطوله، فيقول:

تحمّل منه البحرُ بحرًا من القنا يروغُ بها أمواجهُ ويهولُ
بكلّ مغالاةٍ الشّراع كأنها - وقد حملت أسدُ الحقائق - غيلُ
إذا سابقتْ شأو الرياح تحيّلّت خيولاً مدى فرسانهنّ خيولُ
سحائبُ تُزجّيها الرياحُ، فإنّ وقتَ أنافتْ بأجسادِ النعامِ فيولُ

والقصيدة طويلة، مزج فيها الشاعر مديحه بوصف الحب، ونسجها على منوال المتنبي في مديحه لسيف الدولة في لاميته التي مطلعها:

لياليّ بعد الظاعنين شكولُ طوالٌ وليل العاشقين طويل

وقد بيني الشاعر قصيدته على المديح فقط، في مثل قول ابن حمديس في مدح الأمير أبي الحسن علي بن يحيى ومنها:

نفشي يدك سرائر الأغمارِ لقطافِ هام واختلاء هوادي
إلا على غزوٍ يبيد به العدا لله من غزوٍ له وجهادِ
هذا ابن يحيى كله عن رائح من نصر ربك في الحروب وغادِ
ملكٌ مفاخره تعدّ مفاخرًا لمآثر الأبناء والأجدادِ
وطريذه من حيث راح أو اغتدى في قبضةٍ منه بغير طرادِ

وهكذا تعددت طرائق الأندلسيين في بناء قصيدة المديح، فمنهم من بناها على المدح وحده، ومنهم من بناها على موضوعين فيستهلها مثلاً بالغزل أو وصف الطبيعة، أو الشكوى، أو العتاب ثم ينجح إلى المدح، وقد بينها على ثلاثة

(1) ديوان ابن دراج، ص 3-9.

موضوعات كالغزل ووصف الطبيعة والمديح، سالكا بذلك طريقة الأقدمين التي حدّد معالمها ابن قتيبة⁽¹⁾، دون أن يُقيّد نفسه بجذافيرها.

(1) انظر: الشعر والشعراء، 1/ 74-75.

المبحث الثاني

الثناء

الثناء هو بكاء الميت والتفجع عليه والتمجيد لخصاله⁽¹⁾، وقد ملأ الشعراء الأسماع بمراثيهم التي كانوا يُنشِدونها وأكبادهم تحترق، فقد تفجعت الخنساء (-24هـ) على أخيها صخر، وبكى مُتم بن نويرة (-30هـ) أخاه مالكا بكاء مُراً حتى ابيضت عيناه، ورثى جرير (-114هـ) زوجته بقصيدته الجوساء، ورثى ابن الرومي ولده الأوسط وألح على عينيه بالبكاء. وقد صور هؤلاء الشعراء - وغيرهم - حزنهم وترنموا بإيقاع واحد لا يتغير، يقوم على معانٍ مقررّة معروفة⁽²⁾.

وقد اقتفى الأندلسيون طريقة المشاركة في هذا الفن ونسجوا على منوالهم، وإن كان الاقتداء بدرجة أقل لدى الشعراء المحدثين. وهو ما لمح به ابن بسام في معرض تعليقه على قصيدة رثاء لابن عبدون: «واقضى أبو محمد أثر فحول القدماء، من ضربهم الأمثال في التأيين والثناء بالملوك الأعزة، وبالوعول الممتنعة في قُلل الجبال، وبالأسود الخادرة⁽³⁾ في الغياض⁽⁴⁾، وبالنسور والعقيان والحيات في طول الأعمار»⁽⁵⁾ وتتوزع مراثي الأندلسيين على أربع فئات هي: رثاء الأهل والأقارب، ورثاء العلماء والوزراء، ورثاء الملوك والأمراء، ورثاء المدن والإمارات والأندلس.

أولاً: رثاء الأهل والأقارب

رثى الشاعر الأندلسي أهله وأفراد أسرته حين يعصف بهم الموت في فترات متلاحقة. وتتجلى في هذا الرثاء العاطفة الصادقة النابعة من قلوب شاعرة جريحة.

(1) ابن رشيق، العمدة، 2/ 147.

(2) إيليا الحاوي، ابن الرومي، ص 243.

(3) الأسد الخادر: المقيم في عرينه.

(4) الغياض: جمع غيضة وهي الأجمة.

(5) ابن بسام، الذخيرة، 2/ 314.

وبعد ابن حمديس من أبرز شعراء الرثاء في هذا الاتجاه، وله قصائد رثى بها أباه وزوجته وعمته وابن أخته، وهذا فضلاً عن جارية له تُدعى «جوهرة» فمن رثائه لوالده قوله⁽¹⁾:

يَدُ الدَّهْرِ جَارِحَةٌ آسِيَةٌ وَدُنْيَاكَ مَغْنِيَةٌ فَانِيَةٌ
رَأَيْتُ الْحِمَامَ يُيِّدُ الْأَنَامَ وَلَدَغْتُهُ مَا لَهَا رَاقِيَةٌ
وَأَرْوَاحُنَا ثَمَرَاتٌ لَهُ يَدُ إِلَهِهَا يَدٌ جَانِيَةٌ
سَقَى اللَّهُ قَبْرَ أَبِي رَحْمَةً فَسُقْيَاهُ رَائِحَةً غَادِيَةٌ
بَكَيْتُ أَبِي حَقْبَةً وَالْأَسَى عَلَيَّ شَوَاهِدُهُ بَادِيَةٌ
وَمَا خَمَدْتُ لَوْعَةً تَلْتَظِي وَلَا جَمَدْتُ عَبْرَةً جَارِيَةٌ
ورثى زوجته على لسان ولده عمرو، وذلك لتكون أكثر أسى ولوعة على فراقها، ومنها⁽²⁾:

أَيُّ خَطْبٍ عَنْ قَوْسِهِ الْمَوْتُ يَرْمِي وَسَهَامٌ تُصِيبُ مِنْهُ فَتُصِمِي
يُسْرِعُ الْحَيُّ فِي الْحَيَاةِ يُرِئُ ثُمَّ يُفْضِي إِلَى الْمَمَاتِ بِسُقْمٍ
لَوْ بَكَى نَاطِرِي بِصَوْبِ دِمَاءٍ مَا وَفَى فِي الْأَسَى بِحَسْرَةِ أُمِّي
مَنْ تَوَسَّدْتُ فِي حَشَايَا حَشَاهَا وَارْتَدَى اللَّحْمُ فِيهِ وَالْجِلْدُ عَظْمِي
وَضَعْتَنِي كَرِهًا كَمَا حَمَلْتَنِي وَجَرَى ثَدْيُهَا بِشُرْبِي وَطُعْمِي
وَلَوْ أَنِّي كَفَفْتُ دَمْعِي عَلَيْهَا عَقَنِي بِرَّهَا فَأَصْبَحَ خَصْمِي
ورثى المعتمد بن عباد ولدين له قتلا على أيدي رجال يوسف بن تاشفين، وهو سجين في أغمات، رثاهما بقصيدة جزع فيها على فراقهما جزعاً شديداً، فقد قُتلا وهما في مُقْتَبِلِ الْعَمْرِ، ومنها:

يقولون: صبراً! لا سبيلَ إلى الصبرِ سَابِكِي وَأَبِكِي مَا تَطَاوَلُ مِنْ عُمُرِي

(1) ديوان ابن حمديس، ص 522.

(2) م.ن.

هوى الكوكبان: الفتحُ ثم شقيقه يزيدُ، فهل بعد الكواكب من صبرٍ؟
تولّيتما والسنُّ بعدُ صغيرةٌ ولم تلبثِ الأيامُ أن صُغرتْ قدرِي
فلو عُدتما لاخرتما العودُ في الثرى إذا أنتما أبصرتماني في الأسرِ

ثانياً: رثاء الوزراء والعلماء

وللشاعر الأندلسي لون آخر من المراثي، هو رثاء الوزراء والعلماء، ومن ذلك رثاء ابن عبدون للوزير الفقيه أبي مروان بن سراج:

ما منك يا موتُ لا واقٍ ولا فادي الحكمُ حكمك في القاري وفي البادي
يا نائم الفكر في ليل الشباب أفقُ فصُبْحُ شيبك في أفقِ النهى باري
سَلّني عن الدهر تسأل غير إمعةٍ فآلقِ سمعك واستجمع لإيرادي
نعم هو الدهرُ ما أبقتْ غوائله على جديسٍ ولا طَسَمٍ ولا عادٍ

ويلاحظ على هذا الرثاء أنه يفتقر إلى العاطفة، لكونه يركز على الوعظ والإرشاد، وضرب الأمثال بالأمم التي أفناها الدهر، فضلاً عن الحكمة. وقد برع في هذا اللون عبد المجيد بن عبدوس، وأبو العباس التطيلي الإشبيلي الضرير.

ويتجه رثاء العلماء إلى سرد مآثر المرثي وأعماله، ووشيتها ببعض الأساليب البيانية أو البديعية، ومنه مرثية في الفقيه مروان بن سراج، بقوله⁽¹⁾:

أودى سراجُ المجدِ وابن سراجِه فلئسورِ شمس المكرماتِ أفولُ
لو كان علم الدين يبكي ميتاً لبكى الحديثُ عليه والتنزيلُ
كم من حديثٍ للنبي أبانه فبدتْ له غررٌ ثرى وحُجولُ

ثالثاً: رثاء الملوك والأمراء

ومثل هذه المراثي قوية في الصياغة، صادقة في عاطفتها حيناً وضعيفة حيناً آخر. فمن النوع الأول مرثية ابن عبد الصمد للمعتمد بن عباد (-488هـ)، وكان قد زار

(1) الذخيرة، 1/2، ص314.

قبره كما كان قد زاره في قصره «فلما كان يوم العيد وانتشر الناس ضحى... قام على قبره عند انفصالهم عن مُصلاهم واختياهم بزيّنتهم وحُلاهم»⁽¹⁾ وأنشد قصيدته الدالية التي تعد من عيون الشعر استهلّها بقوله:

ملك الملوك أسامعُ فأنادي أم قد عدتكَ عن السماعِ عوادِ
لما خلّت منك القصورُ ولم تكن فيها كما قد كنت في الأعيادِ
أقبلتُ في هذا الثرى لك خاضعاً وتخذتُ قبرك موضعَ الإنشادِ
وهنا خرّ الشاعر على الأرض يبكي ويُعفر وجهه بالتراب، فبكى الناس من حوله حتى جفت مآقيهم وارتفع نشيجهم وعويلهم. ثم أكمل قصيدته بعد أن استعاد أنفاسه، ومنها:

عهدي يملكك وهو طلق ضاحك متهلّل الصفحات للقصادِ
أيام تخفق حولك الرايات فو ق كئائب الرؤساء والأجنادِ
والخيلُ تمرحُ والفوارس تنحني بين الصّورام والقنا الميادِ
وختمها بقوله:

يا أيها القمرُ المنيرُ أهكذا يُمحى ضياءُ النّير الوقادِ
وتجدر الإشارة إلى أن المعتمد بن عبّاد نظم قصيدة يرثي بها نفسه، وقد أوصى بكتابتها على قبره، ومنها⁽²⁾:

قبر الغريب سقاك الرائحُ الغادي حقاً ظفرت بأشلاء ابن عبّادِ
بالحلم بالعلم بالثعْمى إذا اتصلت بالخصب إن أجذبوا بالرّي للصّادي
نعم هو الحق حاباني به قدر من السماء فوافاني لميعادِ
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه أن الجبال تهادى فوق أعوادِ

(1) لسان الدين الخطيب، أعمال الأعلام، ص 165 وما بعدها.

(2) قلائد العقيان، ص 31.

ومن النوع الثاني ما قاله ابن زيدون في رثاء الأمير أبي الحزم بن جهور، ومنها⁽¹⁾:

أبا الحزم قد ذابت عليك من الأسى قلوبٌ مُناها الصبرُ لو ساعدَ الصبرُ
دع الدهر يفجعُ بالدخائر أهله فما لنفسي مذ طواكَ الردى قَدْرُ
فلا تبعدن! إنَّ المنيّةَ غايّةٌ إليها التناهي، طالَ أو قَصُرَ العُمُرُ
فهذا رثاء يفتقر إلى العاطفة الصادقة لكونه يصدر عن شاعر من شعراء البلاط. ويبدو عليه التكلف رغم جودة نسجه.

ولم يكتف الشاعر الأندلسي برثاء الملوك والأمراء، وإنما تفجّع على القصور والديار التي أصابها الخراب، وذهبت بالانتهاب والسلب بعد أن خلت من بُنائها. ولعل رثاء هذه القصور هو المقدمة الأولى لرثاء المدن والممالك.

من ذلك قول الشاعر السُميسر وقد وقف على أطلال زهراء أمير المؤمنين الناصر⁽²⁾:

وقفتُ بالزهراء مُستعبراً معتبراً أنذبُ أشتاتاً
فقلتُ: يا زهراء، ألا فارجعي قالت: وهل يرجعُ مَنْ مات؟
فلم أزل أبكي وأبكي بها هيهات يُغني الدمعُ هيهاتاً!
كأنما آثارُ من قد مضى نوادبُ يندبنَ أمواتاً

وعلى أطلال ديار آل عبّاد يقف الشاعر أبو صخر القرطبي يناجيها ويستأنس بها⁽³⁾:

ديارٌ عليها من بشاشة أهلها بقايا تسرُّ النفسَ أنساً ومنظراً
ربوعٌ كساها المزنُ من خلج الحيا بُروداً، وحلاها من النور جوهرًا
تُسركُ طوراً ثم تُشجيك تارةً فترتاحُ تأثياً وتشجى تذكراً

(1) ديوان ابن زيدون، ص 523.

(2) نفح الطيب، 2/ 68.

(3) م.ن، ص 44.

المبحث الثالث

الغزل

الغزل فن شعري قديم في الأدب، وهو «إلف النساء، والتخلّق بما يوافقهن»⁽¹⁾ أجاده كثير من الشعراء، أحبوا وتغنّوا ثم تركوا لنا فيضاً من غزلهم. ولا غرو في أن يجيده الشاعر الأندلسي، فقد تقلّب في أحضان الطبيعة الأندلسية، وفي حياة حضرية مترفة تغصّ باللهو، تسعفها أسواق النخاسة بالجوارى والغلمان، فتفتّن في وصف محاسن المرأة، وفي تصوير مشاعره تجاهها، من وصل وهجر، وإقبال وإعراض، على نحو ما نجد في شعر ابن زيدون الذي سجّل فيه قصة حبّه لولادة بنت المستكفي التي تناقلتها كتب الأدب.

ويتوزّع الغزل الأندلسي على عدّة أنواع هي: الغزل التقليدي، والغزل الصريح، والغزل العفيف، والغزل بالنصرانيات، والغزل الشاذ.

1. الغزل التقليدي

وهو غزل مقيد بالتقاليد والتكلّف، سار فيه الشعراء على نهج الأقدمين في ذكر البادية والأهوال في سبيل الوصول إلى المحبوبة، فكان مروان الطليق (-396هـ) إذا وقف وحيداً في ديار المحبوبة تمثل أنه يشبه غيلان ذا الرمة وأن ديارها هي ديار مية⁽²⁾:

فبقيتُ في العَرَصات وحدي بعدهم حيرانَ بين معاهدٍ ما تُعهدُ
فكأنهنّ ديارُ ميٍّ إذ خلّتْ وكأنني غيلانُ فيها يُنشدُ

وكان ابن هانئ يستقي كثيراً عناصر تقليدية من الأقدمين وعمر بن أبي ربيعة على الوجه الخصوص، سواء في مغامراته بمناسك الحج، إذ يقول:

ذا موقفُ الصَّبِّ من مرمى الجمار ومن مشاخبِ البدنِ قفراً غير معهودِ
وموقفُ الفتياتِ الناسكاتِ ضحى يعثرن في حَبراتِ الفتيةِ الصيْدِ

(1) ابن رشيق، العمدة، 2/ 117.

(2) انظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص 230 و 231.

أو في مغامراته الليلة التي يظفر فيها بوصال المحبوبة، إذ يقول:
فقد أطرقَ الحيُّ بعد الهجوعِ تصلُّ أسنَّتُهُمُ والطَّبْسى
فألهو على رِقْبَةِ الكاشحين بمفعمةِ السَّوقِ خُرسِ البُرى
ولا يكتفي بالاختفاء عن خُرَّاسِ الحيِّ كما فعل عمر، وإنما يُبارزهم ويصرع
واحدًا منهم⁽¹⁾:

فبادرت سيفي حين بادر سيفه فثار إلى ماضٍ وُثرتُ إلى خَلْمٍ
ونَبِهَ أقصى الحيِّ أني وترئهم وقد علَّ صدرُ السيفِ من ماجدٍ عَمَمٍ
وقد كانت أوصافه تقليدية لا تخرج عن المألوف عند الأقدمين، فالمرأة قضيب
من بان يتثنى فوق كتيب يتهيل:

إذا هَزَّ عَظْفِهَا قَوامُ مُهفَهِفٍ تداعى كَتِيبٌ خلفها فترجرجا
ومن العين الفاترة واللحظ المريض تنطلق نبال قاتلة:

ذوات بُلٍ ضعاف، وهي قاتلة وقد يُصِيبُ كَمِياً سَهْمٌ رَعِيدٍ
ويلقانا ابن زيدون بمقدماته الغزلية التقليدية التي يبدأ بها مدائحه، في مثل
قصيدته التي مدح بها الوزير محمد بن جَهْوَور التي استهلها بمقدمة غزلية طويلة،
ومنها⁽²⁾:

ولم يثننا أَنَّ الرَّبَّابَ عَقِيلَةَ تسائِدُ سَعْدٌ دَوْنُهَا وَرِبَابُ
وَأَنَّ رُكْزَتِ حَوْلِ الخُدُورِ أَسِنَّةُ وَحَفَّتْ بِقُبِّ السَّابِحاتِ قِبَابُ
وليلةً وافتنا تهادى فنمتري أيسمو حَبَابٌ أو يسيبُ حُبَابٌ⁽³⁾؟
يُعَذِّبُهَا عَضُّ السَّوَارِ بِمَعْصَمٍ أَبان لها أَنَّ النعيمَ عَذَابُ

(1) الديوان، ص 708.

(2) ديوان ابن زيدون، ص 113 وما بعدها.

(3) يسمو: يرتفع للنظر من بعيد، الحَبَاب بالفتح: فقاقيع الماء، والحَبَاب بالضم: الحية، يسيب: ينساب.

ولم يلبث الغزل أن انطلق إلى أجواء جديدة تناسب بيئة الأندلس وطبيعتها الجميلة وحياتها الحضرية ومجالس الأندلس والغناء فيها.

2. الغزل الصريح

وهو غزل مكشوف، نراه عند الشعراء الذين اتخذوا الغزل طريقاً إلى اللهو والمتعة، ووصف المرأة وصفاً حسياً يُدغدغ الغرائز، وينال من مناعة الحرائر، في مثل قول علي بن عطية البلنسي بن الزقاق⁽¹⁾:

ومُرْتَجَّةُ الأعطاف أَمَّا قَوَامُهَا فَلَدُنْ، وَأَمَّا رَذْفُهَا فَرَدَاخُ
أَلَمْتُ فَصَارَ اللَّيْلُ مِنْ قِصَرٍ بِهِ يَطِيرُ، وَمَا غَيْرُ السَّرُورِ جَنَاحُ
وَبِتُّ وَقَدْ زَارَتْ بِأَنْعَمَ لَيْلَةٍ يُعَانِقُنِي حَتَّى الصَّبَاحِ صَبَاحُ
عَلَى عَاتِقِي مِنْ سَاعِدَيْهَا حَائِلٌ وَفِي خَصَرِهَا مِنْ سَاعِدَيَّ وَشَاحُ

ومنه كذلك قول الأعمى التُّطِيلِي الإشبيلي:

بِحَيَاةِ عَصِيَانِي عَلَيْكَ عَوَاذِلِي إِنْ كَانَتْ الْقُرْبَاتُ عِنْدَكَ تَنْفَعُ
هَلْ تَذْكُرِينَ لِيَالِيَا بَتْنَا بِهَا لَا أَنْتِ بَاخِلَةٌ وَلَا أَنَا قَانِعُ؟

وهذا غزل صريح فيه دعوة إلى الفجور، يُذكرنا بشعر بشار بن برد في المشرق، الذي ملأه بالفحش والفجور. وقد انسقت بعض الشاعرات الأندلسيات في هذا الاتجاه، في مثل قول أم الكرم بنت المعتصم بن صُمَاذَح⁽²⁾:

أَلَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ سَبِيلٌ لِحُلُوةٍ يُنَزِّهُ عَنْهَا سَمْعُ كُلِّ مُرَاقِبٍ
وَيَا عَجَباً أَشْتَاقُ خُلُوةَ مَنْ غَدَا وَمِثْوَاهُ مَا بَيْنَ الْحِشَا وَالتَّرَائِبِ

فهذا غزل فيه جموح وجُرأة على طبيعة المرأة المحبة. وهذه حفصة بنت الحاج تبدو أكثر جرأة، إذ يستبد بها الشوق إلى صاحبها، فتبعث إليه بأبيات مطلعها⁽³⁾:

(1) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 619/2.

(2) المغرب، 202/2.

(3) م.ن، 166/2.

أزورك أم تزورُ فإن قلبي إلى ما تشتهي أبدا يميل

3. الغزل العفيف

وهو غزل يُعبّر عن لواعج الشوق والحرمان يُسمّى بالحب المعذب، تفتن الشعراء في وصفه فرحين بالتذلل للحبيب والخضوع له، وقلّما حدثنا الشاعر عن أفراح الغرام؛ فهو في ألم دائم⁽¹⁾. ويتّسم هذا الغزل بالعاطفة القوية الصادقة، ومن أكثر شعراء الأندلس الذين ذهبوا في هذا الاتجاه ابن زيدون في قصائده التي تحكي قصة حبه التي جمعتها بولادة بنت المستكفي، بنغمتها الحزينة التي يسفح فيها دموعه على حبه الأفل. وسندخر الحديث عنه في فصل لاحق.

ويمثله أيضاً ابن فرج الجيّاني إذ يقول⁽²⁾:

وطائفة الوصالِ صددتُ عنها	وما الشيطانُ فيها بالمطاع
بَدَتُ في الليل سافرةً فباتتُ	دياجي الليل سافرةً القناع
فملكتُ الهوى جمحاتِ شوقي	لأجري في العفافِ على طباعي
وبتُ بها مبيتِ الطفلِ يظما	فيمنعه الفطام عن الرضاع
كذاك الرّوضُ ما فيه لمثلي	سوى نظيرٍ وشَمٌ من متاع
ولستُ من السوائِمِ مهملاتٍ	فأأخذُ الرياضَ من المراعي

وله من هذا الطراز قصيدة أخرى، منها⁽³⁾:

بأيّهما أنا في الحبِّ بادي	بشكر الطيفِ أم شكر الرّقادِ؟
سرى فازداد بي أملِي ولكنْ	عَفَفْتُ فلم أنلْ منه مُرادِي
وما في النومِ من حرجٍ ولكنْ	جَرَيْتُ من العفافِ على اعتيادي

(1) انظر: جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ص 121.

(2) نفح الطيب، 4/ 185.

(3) م.ن، 4، ص 402.

4. التغزل بالنصرانيات

وهو غزل متأثر بالبيئة الأندلسية، التي كانت تغصّ بالنصرانيات. وتلقانا قصة حب أندلسية بين ابن الحداد، وفتاة نصرانية، كان يُسميها «نويرة» واسمها الحقيقي «جميلة»⁽¹⁾، وتضمّنت أشعاره فيها إشارات إلى أجواء نصرانية، ومن شعره فيها:

وبين المسيحيّات لي سامريّة بعيد على الصّبّ الحنفيّ أن تدنو
مثلثة قد وحّد الله حُسْنَهَا فئسّي في قلبي بها الوجد والحزنُ
وفي معقد الزّنار عقد صبابتي فمن تحته دغصّ ومن فوقه غصنُ
وفي ذلك الوادي رشاً أضلعي له كناس، وقُمريّ فؤادي له وَكَنُ
صنو ذلك قوله⁽²⁾:

عَسَاكَ بِحَقِّ عِيَسَاكَ مُرِيحَةَ قَلْبِي الشَّاكِي
فَإِنَّ الْحُسْنَ قَدْ وَلَا لِكِ إِحْيَائِي وَإِهْلَاكِي
وَأُولَعَنِي بِصُلْبَانِ وَرُهْبَانِ وَنُـسَاكِ
وَلَمْ آتِ الْكُنَاسَ عَنْ هَوَى فَيَهْنَ لَوْلَاكِ
وَهَلْ أَنَا مِنْكَ فِي بِلَوَى وَلَا فَرَجٌ لِبِلْوَاكِ؟
فَكَمْ أَبْكِي عَلَيْكَ دَمًا وَلَا تَرْتِنُ لِلْبَاكِي!

فهذه قصة أشبه بقصة ابن زيدون وصاحبته ولّادة، إلا أنها بين طرفين غير متكافئين، فابن الحداد أحب فتاة نصرانية، لم تكن تشاطره الحب، ومن ثمّ أخفقت العلاقة بينهما، ولم يبقَ للشاعر إلا الحسرة واللوعة. وأكثر فيها من التحدث عن

(1) الذخيرة، 2/1، ص216. والرّشاهو: الرّشأ، أي الظبي، والكناس: منزله، والقمري: نوع من الحمام؛ والوكن: عش الطائر.

(2) م.ن، 2/1، ص215.

المعاني المتصلة بالنصرانية كالتليث والصلبان والرهبان والكنائس، ومن ثم لم تلق قصته رواجاً ولم تُحدث صدى كبيراً في بيئة محافظة⁽¹⁾، كان للفقهاء فيها رقابة شديدة.

5. الغزل الشاذ

كذلك يلقانا في الأندلس لون من الغزل الشاذ هو الغزل بالمذكر، وقد عُرف في البيئة العباسية عند بعض الشعراء من أمثال حماد عجرد، وحسين بن الضحاك، وأبي نواس الذي أولع به.

ومن الذين ذهبوا في هذا الاتجاه ابن سهل الإسرائيلي، فنسمعه يتغزل في فتى يهودي اسمه موسى⁽²⁾:

قل لموسى: زعزعت قلبي الكليم فانقلق	يا جحيماً على القلوب ويا جنة الحديق
ما أرى الخال فوق خديك ليلاً على فلق	إنما كان كوكباً قابل الشمس فاحترق
ومنه كذلك قول شاعر في غلام وسيم ⁽³⁾ :	
مرآك مرآك لا شمس ولا قمر	وورد خديك لا ورد ولا زهر
في ذمة الله قلب أنت ساكنه	إن بنت بان، فلا عين ولا أثر!

(1) انظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص 130.

(2) ديوان ابن سهل، ص 31.

(3) انظر: عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص 174.

المبحث الرابع

الهجاء

المحسر فن الهجاء في الأندلس، ولا سيّما الهجاء السياسي، لانعدام الشعبية وندرة الأحزاب السياسية، فلا نكاد نجد هجاء سياسيا على نحو ما هو معروف عند المشاركة.

وأيا كان الأمر، فإن الهجاء الأندلسي يتوزع على ثلاثة أنواع هي: الهجاء الشخصي، والهجاء الاجتماعي، والهجاء السياسي والمذهبي.

1. الهجاء الشخصي

ويحتل مكاناً بارزاً في الهجاء الأندلسي، وقد تورّطت فيه الشاعرة الأندلسية فبلغت فيه أقصى مراحل الفُحش والإقذاع، على نحو ما نرى في أهاجي ولادة لابن زيدون؛ الشاعر الذي أحبها وكساها بـحُلل الغزل الرائعة، ولا تزيد الواحدة منها على بيتين، إلا أنها مقدّعة ولاسعة إذ وصفته بالمسدّس والديوث إذ تقول⁽¹⁾:

وَلَقَبْتَ الْمُسَدَّسَ وَهُوَ نَعْتُ ثَفَارِقِكَ الْحَيَاةُ وَلَا يُفَارِقُ

فَلْـوْطِيٍّ وَمِـأْفُونٍ وَزَانٍ وَدَيَّوْثٍ وَقِرْنَانٍ وَسَارِقٍ

ولم تسلم ولادة من الهجاء، فقد انقلبت عليها صديقتها مُهجة القرطبية، وهجتها هجاءً ينحو منحى الإفحاش المقذع، فقد كانت سليطة بذئثة اللسان.

وتلقانا نزهون القلاعية، وهي شاعرة هجاءة اصطدمت بشاعر يدعى أبو بكر المخزومي الأعمى وقد وصفه لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة بأنه «كان أعمى شديد القحة والشرّ، معروفاً بالهجاء»⁽²⁾. اصطدمت به في إحدى الندوات الأدبية، وتهجّمت عليه وسخرت به، فنسمعه يهجوها بيتين استوحاهما من شعر ذي الرّمة والمنتبي، وتصرف فيهما، إذ يقول⁽³⁾:

(1) نفع الطيب، 5 / 341

(2) الإحاطة، 432-434.

(3) المغرب، 1 / 223.

على وجه زهونٍ من الحُسنِ مِسْحَةً وتحت الثياب العارُ لو كان باديا
قواصد زهونٍ توارك غيرها ومن قصد البحر استقلَّ السواقيا
وتردّ عليه بهجاء أشد إقذاعاً، فتقول:

قُلْ للوضيع مقالاً يُتلى إلى حين يُحشرُ
من المدور أنشد ستَ والـ... منه أعطرُ
خلقت أعمى ولكن تهيمُ في كُـلّ...
جاوبتُ هجواً بهجو فقلْ لعنتَ مَنْ أشعرُ
إن كنتُ في الخلق أنثى فإنْ شعري مُذكرُ

وفي رواية أنها ردّت على بيتي المخزومي بقولها⁽¹⁾:

إن كان ما قلت حقاً من بعد عهدِ كريم
فصار ذكري ذميماً يُعزى إلى كلِّ لوم
وصرتُ أقبحَ شيءٍ من صورة المخزومي

وهنا يقول المخزومي لتزهون اسمعي، ويصبُّ في أذنيها بيتين من أفحش ما
يمكن لمرأة أن تسمع من حديث فضلاً عن شعر⁽²⁾.

ومما يدخل في الهجاء الشخصي الهجاء بالبخل واللؤم والدناءة فمن شعر البكي
في هجاء المرابطين أهل اللثام⁽³⁾:

إن المُرابطَ باخِلَ بنواله لكنه بعياله يتكرّم!
الوجهُ منه مُخلّقٌ لقبيح ما يأتيه فهو من أجله يتلئمُ

(1) نفع الطيب، 6 / 31.

(2) م.ن.

(3) م.ن، 4 / 193.

ومن هجائه لهم أيضاً⁽¹⁾:

في كلِّ مَنْ رَبَّطَ اللثامَ دناءةً ولو آتاه يعلو على كيوان
لا تطلبنَّ مُرابطاً ذا عفةٍ واطلبنَّ شعاعَ النارِ في العُدران
وقد هجا البكي أهل فاس، فحبس لذلك مدة من الزمن، لكنه تمادى في أهاجيه
البذيئة الفاحشة، حتى قيل فيه: «هو ابن رومي عصرنا وحُطِئَة دهرنا، لا تُجيد قريحته
إلا في الهجاء، ولا تنشط به في غير ذلك من الأنحاء»⁽²⁾.
وكان للتهمين نصيب من الهجاء الساخر، ومنه قول ابن هانئ الأندلسي في
وصف رجل أكل، يسلك فيه سبيل المغالاة⁽³⁾:

يا ليت شعري، إذ أومى إلى فمه أحلقه لهوات أم ميادين؟
كأنها -- وخبيث الزاد يضرّ مها- جهتم قذفت فيها الشياطين
تبارك الله ما أمضى أسنته كأنما كلُّ فكٍّ منه طاحونٌ
كأنما الجمل المشويُّ في يده ذو النون في الماء لما عضه الثون

2. الهجاء الاجتماعي

وهو هجاء أقرب إلى النقد الاجتماعي، برز في عهد المرابطين، وتمثّل في
التنذر بأصحاب اللثام، والفقهاء المرائين، والمتكسبين بالعلم والزهد. ومن برع فيه
ابن خفاجة الأندلسي، وأبو بكر محمد بن أحمد المعروف بالأبيض الإشبيلي، والبكي.
فمن شعر ابن خفاجة في هجاء المتكسبين بالعلم والزهد⁽⁴⁾:

درسوا العلوم ليملكوا بمجداهم فيها صدورَ مراتبٍ ومجالسٍ
وتزهدوا حتى أصابوا فرصةً في أخذ مالٍ مساجدٍ وكنائسٍ

(1) المغرب، 2/ 267.

(2) م. ن، 2/ 266.

(3) ديوان ابن هانئ الأندلسي، ص 785.

(4) نفح الطيب، 4/ 281.

وقال الأبيض في المراثين⁽¹⁾:

أهل الزياء لبستم ناموسكم كالذئب يدلج في الظلام العاتم⁽²⁾
فملكتم الدنيا بمذهب مالك وقسمتم الأموال باسم القاسم
وركبتم شهب البغال بأشهب وبأصبع صُبغت لكم في العالم
وبرع في الهجاء الاجتماعي البكي، ومن مهجويه الزبير أحد أمراء المثلثين
بقرطية بقوله:

عكف الزبير على الضلالة جاهداً ووزيره المشهور كلب النار
ما زال يأخذ سجدة في سجدة بين الكؤوس ونغمة الأوتار
فلإذا اعتراه السهو سبّح خلفه صوت القيان ورنه الأوتار

وكان الأبيض جريئاً قوي النفس، وإذا حضره الزبير وبّخه وقال له: ماذا دعاك إلى
هذا فقال: إنني لم أرَ أحقّ بالهجو منك، ولو علمت ما أنت عليه من المخازي لهجوت
نفسك إنصافاً، ولم تكلها إلى أحد! فلما سمع الزبير ذلك قامت قيامته، وأمر بقتله⁽³⁾.

صنو ذلك ما أورده المقرّي عن هجاء السُميسر للبربر بعامة، والمعتصم بن
صُمّادح بخاصة، فـ «احتال في طلبه حتى حصل في قبضته، ثم قال له: أنشدني ما قلت
فيّ فقال له: وحق من حصّلي في يدك ما قلتُ شراً فيك، وإنما قلت:

رأيت آدم في نومي فقلت له: أبا البرية إنّ الناس قد حكموا
أنّ البرابر نسل منك: قال إذا حواء طالقة إن كان ما زعموا

فأباح ابن تلقين صاحب غرناطة دمي، فخرجتُ إلى بلادك هارباً، فوضع عليّ
من أشاع ما بلغك عني لتقتلني أنت، فيدرك ثأره بك، ويكون الإثم عليك، فقال: وما

(1) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 110.

(2) من معاني الناموس: المكر والخداع، والمقصود هنا وعاء العلم، أي لبستم الزي الخاص بالعلماء.

(3) نفح الطيب، 36/5 و 37.

قُلْتُ فِيهِ خَاصَّةً مَضافاً إلى ما قُلتَ في عامَّةِ قومه؟ فقال لما رأيتَه مشغولاً بتشييد قلعتَه التي يتحصَّن فيها بغرناطة قلت:

يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سَافِهاً كأنَّه دودة الحريــــر
فقال المعتصم: لقد أحسنت في الإسارة إليك، ثم أجاره وأكرمه حتى خُلِعَ عن مُلكه وسلطانِه». (1)

3. الهجاء السياسي

لم ينهض الهجاء السياسي في عهود ملوك الطوائف «عما قد يدل على انسياق الأدب شعره ونثره في ركاب كل واحد من أولئك الأمراء» (2) ولا نعدم وجود ضرب من النقد السياسي لهؤلاء الملوك، تزعمه أبو القاسم خلف بن فرج السَّميسر في مثل قوله: (3)

نادِ الملوك وقلْ لهم ماذا الذي أحدثتم؟
أسلمتمُ الإسْلامَ في أسْر العدا وقعدتمُ!
وجب القيامُ عليكمُ إذ بالنصارى قمتمُ
لا تنكروا شقَّ العصا فعصا النني شققتمُ
حتى إذا انتهت أيامهم شَمِتَ الناسُ بهم وأخذوا يتحدثون عن عيوبهم، في مثل قول أبي الحسن ابن الجدي معرض مديحه ليوسف بن تاشفين: (4)

أرى الملوك أصابتهم بأنْدلسٍ دوائرُ السوء لا تُبقي ولا تُدْرُ
قد كنت أنظرها والشمس طالعةً لو صَحَّ للقوم في أمثالها النظرُ
ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدرُ هوى بأنجمهم خسفاً وما شعروا

(1) نفح الطيب، 380/4.

(2) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص 120.

(3) الذخيرة، 2/1، ص 374.

(4) م. ن.

وكيف يشعر من في كفّه قدحٌ تحذو به مذهلات الناي والوتر
صُمّت مسامعه عن غير نغمته فما تمرُّ به الآيات والسُور
تلقاه كالعجلِ معبوداً بمجلسه له خُوارٌ ولكن حَشْوُهُ خَوْرٌ
وحوله كل مغترٌّ وما علموا أن الذي زخرفتُ دنياهم غَررٌ
ولم يلبث أن أصبح الحكام الجدد، وهم المرابطون، ظلاً ثقيلاً على أهل
الأندلس، فاستيقظت النقمة عليهم، فهذا البكي الذي بلغ النهاية في مدحهم ينقلب
عليهم ويهجوهم، ويرميهم بأقبح الصفات من لؤم وبخل ودناءة، على نحو ما مرّ بنا
آنفاً.

وأما بشأن اليهود الذين عاشوا في ظل التسامح الديني في الأندلس، ونالوا
مكانة في دولة غرناطة، فقد ظهر شيء من الحساسية تجاه قيامهم بتحصيل الضرائب
من المسلمين، فنسمع أبا حفص الزكري يتنذر بهذا الوضع المعكوس:
كنا نطالب لليهود بجزيةٍ وأرى اليهود بجزيةٍ طلبونا
ما إن سمعنا مالكاً أفتى بذا لا لا ولا من بعده سحنونا
ولعل تسلط اليهود في غرناطة أثار أبا إسحاق الألبيري الزاهد الإمام، إثر تولي
الوزارة ابن التُّغريلة، إذ يقول:

فعزَّ اليهودُ به وانتخوا وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مُناهم وجازوا المدى فحان الهلاكُ وما يشعرون
وإنني احتللتُ بغرناطة فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسّموها وأعمالها فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها وهم يُخضعون وهم يقضمون
وكانت ثمرة هذه القصيدة ثورة عارمة في ذلك البلد.⁽¹⁾

(1) ديوان الألبيري، ص 151.

المبحث الخامس

الزهد والتصوف

عرف الشعر الأندلسي الزهد بوصفه ظاهرة نقيضة لتيار اللهو وطلب المتعة والإقبال على الحياة، فقد كانت المدينة الأندلسية كسائر المدينت ذات صنوف وألوان، وإقبال على اللذات وبعد عنها، ودور عبادة وأماكن هو.

وتعددت عوامل ازدهار الزهد في الأندلس، من أبرزها: اضطراب الحياة السياسية وما واكب ذلك من صراعات وفتن، ومنها تباين الأوضاع الاجتماعية وازديادها سوءاً، ومنها أن الزهد كان يصدر لدواع دينية وأخلاقية وردة فعل على انتشار اللهو والمجون، تُعجِّل فيها دواعي الشيخوخة وما تحدّثه من عودة محمودة إلى مكارم الأخلاق، ومن خوف الموت وما بعده.

وقد تناولت قصائد الزهد موضوعات كثيرة منها: الحديث عن الدنيا ونعيمها، والتضرّع إلى الله والتوبة إليه، والموت وتصوير ظلمه القبر، وتصوير فراق الروح للبدن، والحديث عن النار والتخويف منها، والدعوة إلى القناعة والكفاف.

1. الحديث عن الدنيا ونعيمها الزائل: وبيان أننا صائرون فيها إلى زوال، في مثل قول ابن العسال (-487 هـ):⁽¹⁾

انظر الدنيا فإن أبصرتها شيئاً يدوم

فاغْدُ منها في أمانٍ إن يساعدك النعيم

وإذا أبصرتها على كره تهيم

فاسلُ عنها واطرحها وارتحلْ حيث تُقيم

وقول أبي بكر الطرطوشي:⁽²⁾

إن لله عبداً فطناً طلقوا الدنيا وخافوا الفتن

(1) المغرب، 21/2.

(2) نفح الطيب، 4/195.

فَكَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا أَنَهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنًا
جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُفُنًا

ويصور ابن حمديس ديب الموت خير تصوير بقوله: ⁽¹⁾

رُبُّ مَوْتِ السَّكُونِ فِي حَرَكَاتِي وَخَبَا فِي رَمَادِهِ جَمْرُ عَمْرِي
وَأَنَا حَيْثُ سَرْتُ أَكَلْتُ رِزْقِي غَيْرَ أَنَّ الزَّمَانَ يَأْكُلُ عَمْرِي

2. التضرع الى الله خوفاً منه والتوبة إليه: ومن ذلك ما نجده في شعر ابن الفرضي القرطبي، إذ يلجأ إلى الله ويرجو عفوه وغفرانه: فيقول ⁽²⁾

أَسِيرُ الْخَطَايَا عِنْدَ بَابِكَ وَاقِفُ عَلَى وَجَلٍ مِمَّا بِهِ أَنْتَ عَارِفُ
يَخَافُ ذُنُوباً لَمْ يَغِبْ عَنْكَ غَيْبُهَا وَيَرْجُوكَ فِيهَا، فَهُوَ رَاجٍ وَخَائِفُ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْجُو سِوَاكَ وَيَتَّقِي وَمَا لَكَ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ مُخَالَفُ
فِيَا سَيِّدِي لَا تُخْزِنِي فِي صَحِيفَتِي إِذَا نُشِرَتْ يَوْمَ الْحِسَابِ الصَّحَافُ

ويلقانا ابن حمديس بقصيدة تعدّ أحسن ما قيل في التوبة، إذ يبكي ذنوبه، معلناً توبته: ⁽³⁾

يَا ذَنْبِي ثَقُلْتَ وَاللَّهِ ظَهَرِي بَانَ عَذْرِي، فَكَيْفَ يُقْبَلُ عُذْرِي؟
كَلَّمَا بُتُّ سَاعَةً عَدْتُ أُخْرَى لَضُرُوبٍ مِنْ سُوءِ فَعْلِي وَهَجْرِي

3. الموت وتصوير ظلمة القبر: وذلك حين يصدّ عن الميت ذو القربى، وتصبح الأرض مثواه، في مثل قول علي بن إسماعيل الفهري القرشي، وهو أديب من قرطبة مال إلى النسك والتقشف، اتخذ لنفسه رابطة عرفت برابطة الطيطل ولزم العبادة بها إلى أن توفي. ⁽⁴⁾ ومن قصائده الزهدية: ⁽⁵⁾

(1) ديوان ابن حمديس، ص 265.

(2) م. ن، 2/ 329.

(3) م. ن، ص 265.

(4) الذخيرة، 2/ 305.

(5) م. ن، 306.

يا غافلاً شأنه الرقاد
والموت يرعاك كل حين
ما حال سافرٍ بغير زاد
أين فلانٌ وكم فلان!
كأنما غيرك المراد
فكيف لم يحفك المهاد
والأرض قفرٌ ولا مزاد
قد غيَّوا في الثرى فبادوا

ويقول ابن الفرضي في سياق الدعاء: (1)

وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما
لئن ضاق عني عفوك الواسع الذي
ويلقانا يحيى بن حكيم الجياني باتجاهه الزهدي فيذكر الموت، ولا يُفرِّق بين من
يلبس الحرير ومن يلبس الصوف:

إذا أكل الثرى هذا وهذا
ولا يلبث أن يرثي نفسه، فيتحدث عن القبر الذي ينتظره: (2)

انظر إلى إذا أدرجت في كفنٍ
واقعد قليلاً وعاین من يقيم معي
وانظر إليّ إذا أدرجت في اللحد
ممن يُشيعُ نعشي من ذوي وُدِّي
هيهات كلهم في شأنه لعبٌ
يرمي التراب ويحنوه على خدي

4. تصوير فراق الروح للبدن: ويلقانا في هذا الموضوع الفيلسوف الشاعر أبو بكر
محمد بن طفيل، فنسمعه يتحدث عن فراق الروح للبدن:

يا باكيًا فرقة الأحباب عن شحطٍ
نورٌ تردّد في طين إلى أجل
هلا بكيت فراق الروح للبدن؟
فالحاز غلّوا وخلّى الطين للكفن
يا شدّ ما افترقا من بعد ما اعتلّقا
أظنها هُدنةٌ كانت على دخنٍ

(1) نفح الطيب، 2/ 329.

(2) العقد الفريد، 3/ 58 و 190.

- إن لم يكن في رضا الله اجتماعهما فيا لها صفقة تُمت على غبن
وهذا الفراق متصل برؤية إسلامية، فالروح ترجع إلى بارئها راضية مرضية، كما
نلمس تأثره بقصيدة ابن سينا في النفس التي مطلعها:
هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تعزُّزٍ وتمنُّع
5. الحديث عن النار والتخويف منها وفي ذلك يقول الألبيري: ⁽¹⁾
ويل لأهل النار في النار ماذا يُقاسون من النار
تنقذ من غيط فتغلي لهم كمرجل يغلي على النار
فيستغيثون لكي يعتبوا ألا لعاً من عشرة النار
وكلُّهم مُعترفٌ نادمٌ لو تقبل التوبة في النار
وهذه أبيات من قصيدة بناها الشاعر على قافية واحدة هي لفظة «النار».
6. الدعوة إلى القناعة والكفاف: ويلقانا في هذه الدعوة السُّميسر الذي انتحى الزهد
لإحساسه بالغبن في الدنيا، واتخذ وسيلة للثورة على مجتمعه، وهو لم يكن من
الزاهدين، فنسمعه يقول: ⁽²⁾
جُمْلَةُ الدُّنْيَا ذَهَابٌ مثمناً قالوا سَرَابٌ
والذي فيها مَشِيدٌ فخرابٌ ويَبَابٌ
وأرى الدَّهْرَ بِخَبِيلٍ أبداً فيه اضْطرابٌ
سَالِبٌ ما هو مُعْطٍ فالذي يُعْطِي عَذَابٌ
ومن ثم نراه يدعو إلى القناعة والرضا، فيقول: ⁽³⁾
دع عنك جاهاً ومالاً لا عيش إلا الكفافُ

(1) ديوان الألبيري، ص 144.

(2) الذخيرة، 2/1 ص 372.

(3) الذخيرة، 2/1 ص 372.

قوت حلالاً وأمنٌ من الردى وعفافٌ
وكل ما هو فضلٌ فإنسه إسرافٌ

صنو ذلك ما نراه عند ابن الحداد الذي اختص بمدح بني صمادح، فلما انفصل عنهم، زهد في الدنيا، ورضي بالقليل، مستمداً من ثقافته الفلسفية، إذ يقول: ⁽¹⁾

لزممت قناعتي وقعدت عنهم فلست أرى الوزير ولا الأميراً
وكنت سمير أشعاري سفاهاً فعدت لفلسفياتي سميراً
ويقول أبو وهب العباسي القرطبي:

أنا في حالي التي قد تراني إن تأملت أحسن الناس حالاً
منزلي حيث شئت من مستقر الأرض، أسقى من المياه زلالاً
ليس لي كسوة أخاف عليها من مغير، ولن ترى لي مالا
قد تلذذت حقبةً بأمورٍ فتأملتها، فكانت خيالاً

ويتصل بالزهد التصوف، ومن عُرف به في الأندلس محيي الدين بن عربي، فقد ولد بمرسيه سنة 560 هـ، وانتقل إلى إشبيلية، ثم رحل إلى المشرق وطوّف بأنحائه ثم استقرّ في دمشق، إلى أن مات فيها سنة 638، وله قصائد وموشحات صوفية. من ذلك قوله:

حقيقتي همتُ بها، وما رآها بصري ولو رآها لغدا قتيلَ ذاك الحورِ
فعندما أبصرتها، صرتُ بحكم النظر فبتُ مسحوراً بها، أهيمُ حتى السحرِ
يا حذري من حذري لو كان يُغني حذري والله ما هيمني جمالُ ذاك الخفرِ

في حُسْنِهَا مِنْ ظِيَّةٍ تَرعى بِذَاتِ الخَمْرِ⁽¹⁾ إِذَا رنْتَ أَوْ عَطَفْتَ تَسِي عَقُولَ البَشَرِ⁽²⁾
 فهذا شعر لا يُقصد ظاهره، وإنما يقصد باطنه، ذلك أنه اتخذ الرمز أداة للتعبير
 عن مضمونه وحقائقه، قلّ أن يفهمه أحد إلا المختصون بتأويله.
 ومن متصوفة الأندلس الفقيه العارف ابن سبعين الأندلسي، فلنسمعه يخلق
 فوق آفاق الجزيرة: (3)

كَمْ ذَا ثُمُوهُ بالشَّعْبِينَ والعَلَمِ وَالأَمْرُ أَوْضَحُ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمِ
 وَكَمْ تُعْبَرُ عَنْ سَلْعٍ وَكَاطَمَةٍ وَعَنْ زُرُودٍ وَجِرَانٍ بِذِي سَلَمِ
 ظَلَلْتُ تَسْأَلُ عَنْ نَجْدٍ وَأَنْتَ بِهَا وَعَنْ تِهَامَةٍ، هَذَا فَعَلَ مُتَّهَمِ
 فِي الْحَيِّ حَيٌّ سِوَى لَيْلَى فَتَسْأَلُهُ عَنْهَا؟ سَوَالُكَ وَهَمٌّ جَرٌّ لِلْقَدَمِ
 وكذلك نظم متصوفه الأندلس في الموشحات، ونقلوا هذا الفن إلى المشرق
 خلال الرحلات المتبادلة والتنقل بين المغرب والمشرق، وكذلك استقر بعضهم في الشام
 وغيرها من بلدان المشرق.

(1) الخمر: كل ما وارك من شجر ونحوه.

(2) نفح الطيب، 2/ 366.

(3) م.ن، 2/ 402.

شعر الطبيعة

المبحث الأول: العوامل المؤثرة في شعر الطبيعة

المبحث الثاني: موضوعات شعر الطبيعة

المبحث الثالث: الطبيعة في موضوعات الشعر الأخرى

المبحث الرابع: خصائص وسمات شعر الطبيعة في

الأندلس

الفصل الثالث

شعر الطبيعة

المبحث الأول

العوامل المؤثرة في شعر الطبيعة

من الفنون الشعرية التي وُجدت في الأدب الأندلسي، شعر الطبيعة وهو «الشعر الذي يتخذ من عناصر الطبيعة الحية والطبيعة الصامتة مادته وموضوعاته»⁽¹⁾ وقد تأثر إلى حد كبير بشعر الطبيعة في المشرق، إذ اقتفى الشعراء الأندلسيون أثر الشعراء المشاركة، ولم يلبثوا أن تفوقوا عليهم في هذا الفن، وأتوا بالروائع الخالدة، يدفعهم إلى ذلك جملة عوامل، منها: طبيعة الأندلس، وحياة اللهو ومجالس الطرب.

1. طبيعة الأندلس

فقد كانت الأندلس ذات طبيعة خلّابة، بما حباها الله من رياض وأنهار، وجداول وأشجار، وبساتين وحقول، وورود ورياحين، ونسيم عليل، وخصب وغماء، وقد ألهمت شعراء الأندلس، فأقبلوا يسرحون النظر في خمائلها، ويتغنون بمفاتها وطبيعتها الساحرة.

ويصف ابن خفاجة شاعر الطبيعة الأكبر هذه المعالم، بقوله: ⁽²⁾

يا أهلَ أندلسٍ لله دركمُ ماءً وظلٌّ وأشجارٌ وأنهارُ
ما جنةُ الله إلا في ربوعكمُ ولو تحيَّرتُ، هذي كنتُ أختارُ

وقد تغنى الشاعر الأندلسي بجمال الطبيعة الأندلسية، سواء في الأندلس كلها أو في بعض مواطن منها. فمن النوع الأول قول ابن سفر المريني ⁽³⁾:

(1) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص 284.

(2) ديوان ابن خفاجة، ص 72.

(3) نفح الطيب، 19/1.

فِي أَرْضِ أُنْدَلُسٍ ثَلَاثُ نَعْمَاءٍ وَلَا يُفَارِقُ فِيهَا الْقَلْبَ سَرَاءُ⁽¹⁾
 أَنْهَارُهَا فِضَّةٌ، وَالْمِسْكُ تُرْبَتُهَا وَالْخَزْزُ رَوْضَتُهَا، وَالْدُّرُّ حَصْبَاءُ⁽²⁾
 وَلِلْهَوَاءِ بِهَا لُطْفٌ يَرِقُّ بِهِ مَنْ لَا يَرِقُّ، وَبُدُو مِنْهُ أَهْوَاءُ
 لَيْسَ النَّسِيمُ الَّذِي يَهْفُو بِهَا سَحَرًا وَلَا الْتِشَارُ لِأَلْيِ الطَّلِّ أُنْدَاءُ⁽³⁾
 وَإِنَّمَا أَرْجُ النَّدَا اسْتِثَارَ بِهَا فِي مَاءٍ وَرَدٍ فَطَابَتْ مِنْهُ أَرْجَاءُ⁽⁴⁾
 وَأَيْنَ يَبْلُغُ مِنْهَا مَا أَصَفُّهُ؟ وَكَيْفَ يَخْوِي الَّذِي حَازَتْهُ إِحْصَاءُ؟
 قَدْ مِيزَتْ مِنْ جِهَاتِ الْأَرْضِ حِينَ بَدَتْ فَرِيدَةً وَئُسُولَى مِيزَهَا الْمَاءُ
 دَرَتْ عَلَيْهَا نِطَاقًا أَبْحَرُ خَفَقَتْ وَجَدَأَ بِهَا إِذْ بَدَتْ وَهِيَ حَسَنَاءُ
 لِذَاكَ يَنْسُمُ فِيهَا الزَّهْرُ مِنْ طَرَبٍ وَالطَّيْرُ يَشْدُو وَلِلْأَغْصَانِ إِصْغَاءُ
 فِيهَا خَلَعْتُ عِدَارِي مَا بِهَا عَوَضٌ فَهِيَ الرِّيَاضُ، وَكُلُّ الْأَرْضِ صَحْرَاءُ⁽⁵⁾

فقد ألم الشاعر بطبيعة الأندلس، إذ وصفها وشخص مظاهرها، واستنطق
 مختلف مشاهدها، بأرضها الطيبة التي تحلو فيها الحياة، فهي ذات أنهار كالفضة، وتربة
 كالمسك، وروضة كالحرير، وحصى كالدرّ، وهواء عليل يرقّ بفضلها جاني الطبع. وصور
 نسيمها ونداها بالطيب الذي توهجت رائحته واختلطت بعبير ماء الورد فتعطّرت منه
 الأجواء.

والشاعر يكثر من التشبيهات، فقد أتى بأربعة تشبيهات في بيت واحد، هو قوله:
 أَنْهَارٌ فِضَّةٌ، وَالْمِسْكُ تَرِبَتُهَا وَالْخَزْزُ رَوْضَتُهَا، وَالْدُّرُّ حَصْبَاءُ

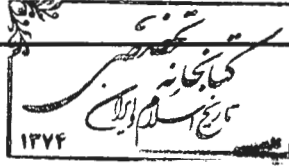
(1) نعماء: نعمة، سرّاء: مسرة.

(2) الخزّ: كساء يشبه الحرير. الحصباء: الحصى.

(3) الطلّ: قطرات الماء التي تظهر على أوراق الأشجار صباحاً، وهي الندى.

(4) الأرج: توهج ريح الطيب والند: نوع من الطيب، وهو العنبر.

(5) خَلَعْتُ عِدَارِي: أي أطلقت نفسي على هواها.



وكلها تشبيهات بليغة.

أما التشخيص المؤثر فنلقاه في البيت الثامن، إذ صورَ البحار بصورة الحبِّ الذي يخفق قلبه بمحبوبته الحسناء وهي هنا الأندلس. وكذلك في قوله:

لذلك ييسمُ فيها الزهرُ من طربِ والطير يشدو وللأغصانِ إصغاءً
وهو تشخيص لطبيعة الأندلس الجميلة، التي تفيض بالبهجة والسرور، فإذا
الزهر يبتسم، والطير يشدو، والأغصان تُصغي. وبذلك جعلنا نخرج بإحساس موحد
هو البهجة والسعادة.

ومن النوع الثاني قول ابن بُرد الأصغر في وصف رصافة قرطبة التي بناها
عبد الرحمن الداخل: ⁽¹⁾

سقى جوفَ الرُصافةِ مُستهلٌّ تؤلّفُ شمله أيدي الرياح
محلٌّ ما مشيتُ إليه إلا مشى في ابتهاجي وانشراحي
كانَ ترثمُ الأطيّارِ فيه أغانٍ فوق أوتارٍ فصاح
كانَ تثني الأشجارِ فيه عذارى قد شربنَ سُلافَ راح
كانَ الجدولُ المنسابُ نصلٌ صقيلُ المتنِ هُزَّ إلى كفاح
كانَ رياضُه أبرادٌ وشي تعطفُ فوق أعطافٍ ملاح

فالشاعر يعمد إلى الرياح التي تؤلف السحاب الممطر، ويضفي عليها بُعداً
إنسانياً بالأيدي التي تجمع الشمل. ونجد روعة التصوير في الأبيات الأربعة الأخيرة، إذ
اشتملت على أربع صور جميلة تفيض بالحياة والبهجة؛ فالأطيّار تغرد والأشجار
تثني كالعذارى، والجدول ينساب كالسيف الصقيل المهزوز، والرياض كالملاح اللاني
اكتسين بالملابس المطرزة. وكل هذه الصور تبعث في النفس المرح والسعادة.

(1) ابن بسام، الذخيرة، 2/1 ص 49.

2. حياة اللهو ومجالس الطرب

وقد اقترنت هذه الحياة بوصف الطبيعة، ومن شعر هذه المجالس قول الشاعر عليّ ابن أحمد⁽¹⁾:

قُم فاسقني والرياضُ لابسةً وشياً من النورِ حاكه القطرُ
في مجلسٍ كالسَّمَاءِ لاح به من وجهٍ من قد هويته بدرُ
والشمسُ قد عُصفت غلائلُها والأرضُ تندى ثيابها الخضرُ
والنهرُ مثلُ المجرِّ حَفَّ به من الندامى كواكبُ زهرُ

فهو يصف مجلساً عُقد في الرياض وعلى مجرى النهر المحفوف بالأزهار، ويشخص الشمس والأرض فيجعل لهما الغلائل والثياب. ويصف أيضاً الساقى والمحبوب في هذه المجالي.

(1) نفح الطيب، 180/2.

المبحث الثاني

موضوعات شعر الطبيعة

أولاً: وصف الرياض

ألم شاعر الطبيعة الأندلسي بوصف الرياض وتائق في تصويرها، ومن ذلك وصف أراكاة في روضة لابن خفاجة الأندلسي⁽¹⁾:

وأراكاة ضربت سماءً فوقنا تندى، وأفلاك السماء تُدار⁽²⁾
 حُقَّت بدوحتها مجرةً جدولٍ نثرت عليه نجومها الأزهار
 وكأنها وكان جدولٌ مائها حسناء شُدَّ بخصرها زُئار
 زفَّ الريحُ بها عروس مُدامةٍ تُجلى ونوارُ العُصونِ نُثار⁽³⁾
 في روضة جَنَحَ الدُّجى ظلاً بها وتَجَسَّمَت نوراً بها الأنوارُ
 غناءً ينشر وشيه البزاز لي فيها، ويفتقُ مسكهُ بها العطار⁽⁴⁾
 قام الغناء وقد نضح الندى وجه الثرى واستيقظ النُّوارُ
 والماء من حَلِي الحياءِ مُقلَّدٌ زَرَّت عليه جيوبها الأزهارُ

فابن خفاجة يصف شجرة أراك ضربت ظلّها فوق هذا الجمع الطروب بجوار جدول نثرت عليه الأزهار ثم يمضي في وصف الجدول الذي يحفُّ بها، مستمداً من تشبيهاته صوراً بديعة، من ذلك تشبيه الجدول والشجرة بزئار مُلتفٍّ بخصر حسناء ثم يخلع على هذه الروضة ألواناً زاهية، وصوراً ناضرة، يجللها المزخرفة الألوان، ورائحتها العبقة وأزاهيرها المتفتحة، وأطيافها التي تشدو. وقد أفاد الشاعر في بيته الأخير من تشبيهات السري الرقاء التي يذكر فيها الجيوب والنقوش والأزرار.

(1) ديوان ابن خفاجة، ص 39.

(2) الأراكاة: شجرة خضراء ناعمة تتخذ منها المساويك.

(3) النثار ما ينثر في العرس على الحاضرين.

(4) البزاز: بائع البزّ، أي الثياب، وشي البزاز: ثيابه المزخرفة الألوان. ويفتق: يشق.

ثانياً: وصف الورود والأزهار

وصف الأندلسيون الورود والأزهار في تضاعيف وصفهم للرياض والبساتين والحدائق، إلا أنهم أكثرها من وصفهم لزهرة بعينها، فخصّوها بوصف مستقل، فوصفوا الورد والرجس والشقائق والنيلوفر والياسمين والقرنفل ونور اللوز وغيرها. وكان للورود أوفى نصيب من أوصافهم، فقد أغرموا بها، ومن طريف ما يروى في ذلك أنّ العالم المحدث أبا القاسم بن ورد قد مرّ ببستان لأحد الأعيان فيه ورد، فوقف بالباب وكتب:

شاعرٌ قد أتاك يبغي أباه عندما اشتاقَ حُسنه وشَذاهُ
وهو بالباب مُصغياً لجوابٍ يرتضيه الندى فماذا تراه
فعندما قرأ صاحب البستان البيتين علم أنه ابن ورد، فبادر إليه وأقسم في النزول عليه ونثر من الورد ما استطاع بين يديه⁽¹⁾.

ومن أجمل ما قيل في الورد أبيات ابن غالب البلنسي:

يا وردةً جادت بها يدُ متحِفٍ فهمى لها دمعي وهاج تأسُفي
حمراءَ عاطرةً النسيم كأنها من خدِ مُقْتَبِلِ الشبيبةِ مُترفٍ
عَرَضَتْ تُذَكِّرني دماً من صاحبٍ شربت به الدنيا سُلَافَةً قرقفٍ
فَنَشِيقُهَا شَغْفاً وقلت لصاحبي: هي ما تمجُّ الأرضُ من دمِ يوسفٍ
واستهوى الورد عبيد الله بن إدريس، فشخصه وجعله يحاكي الحبيب في حمرة خده وطيب رائحته⁽²⁾:

أهدى إليك تحيةً من عنده زمنُ الربيعِ الطلقِ باكراً وردهِ
يحكي الحبيبَ سرى لوعده محبه في طيبِ نفحتهِ وحُمرة خدِّهِ

(1) نفخ الطيب، 4/ 354 و 355.

(2) ابن الكتاني، التشبيهات، ص 51.

أما النرجس فلم يكثروا القول فيه، ومن أجل ما قيل فيه قول أبي محمد عبد الحق ابن عطية:

نرجسٌ باكرتُ منه روضةً لدَّ قطع الدهرِ فيها وعَذبُ
فغدا يُسفرُ عن وجنته نوزة الغضُّ ويَهْتزُّ طَرْبُ
خَلتُ لمع البرقِ في مشرقه هباً يحملُهُ منه لَهَبُ
وبياضَ الطلِّ في صُفرته تُقَطُّ الفضةُ في خطِ ذهب

ولزهر الشقيق نصيب من أوصافهم فقد احتفل الأندلسيون بها، وتعد أبيات ابن الزقاق في زهر الشقيق الأحمر من أرق ما قيل في هذه الزهرة⁽¹⁾:

ورياضٍ من الشقائقِ أضحى يتهادى بها النسيمُ الرِّياح
زُرْتها والغمام يجلدُ منها زَهراتِ تروقُ لونَ الراح
قلت: ما ذنبها؟ فقال مجيباً: سرقتُ حُمرةَ الخدودِ الملاح

ومن الطريف أن يقيم عليها «حد السرقة» حسب التعبير الفقهي حين جعلها مذنباً في نظر الغمام سارقة حُمرة الخدود⁽²⁾.

والنيلوفر من الأزهار التي افتتن بها الأندلسيون فهذا ابن حمديس يصفه في حذق وبراعة⁽³⁾:

كأنما النيلوفر المجتبى وقد بدا للعين فوق البنان
مداهنُ الياقوتِ حمرةً وقد ضُمُنتُ شعراً من الزعفران
وقال في وصفه أيضاً⁽⁴⁾:

ونيلوفر أوراقه مستديرةً تفتَحُ فيما بينهنَّ له زَهْرُ

(1) ديوان ابن الزقاق، ص 125.

(2) انظر: عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص 303.

(3) ديوان ابن حمديس، ص 490.

(4) م.ن، ص 151.

كما اعترضت خضر التراس وبينها عوامل أرماح أسننها حمر
هو ابن بلادي كاغترابي اغترابه كلانا عن الأوطان أزعجه الدهر
وأكثروا القول في الياسمين، إذ افتتن بزهرته الخلفاء والأمراء، فهذا المعتضد بن
عباد يصفه بقوله⁽¹⁾:

كأنما ياسميننا الغض كواكب في السماء تبيض
والطرق الحمر في جوانبه كخد حسناء مسه العض
فقد شبه بياضه بكواكب السماء، وشبه شعيراته الحمراء بخد الحسناء الذي بدت
فيه آثار العض، وفي ذلك لون من السادية.

ثالثاً: الفواكه والثمار

لم يكن شعراء الأندلس بأقل احتفاء بالفواكه والثمار، فقد تفننوا في وصفها
فلتوقف عند ابن صارة الشنتريني وهو يصف النارج، في لوحة بديعة يفيض منها
إحساس بجمال الطبيعة⁽²⁾:

كرات عقيق في غصون زبرجد بكف نسيم الريح منها صوالج
تقبلها طوراً وطوراً نشمها فهن خدود بيننا ونوافج
ويصف ابن خفاجة التين، ويلفته منه شيطان: جناؤه ولونه، فيقول:

أما واهتصار غصون البلس وقد قلص الصبح ذيل العلس
ومال يسيل جنى شهده كما سال ريق حبيب نفس
لقد ساق من رائق المجتلى شهى الجنى مستطاب النفس
فهمت له بياض الثغور وأحييت فيه سواد اللعس⁽³⁾

(1) انظر: عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص 303.

(2) قلاند العقيان، ص 67.

(3) اللعس: سواد مستحسن في باطن الشفة.

وَيُعَلِّقُ مصطفى الشكعة على النص بقوله: «وليس من شك في أن التوفيق قد صاحب الشاعر لولا تشبيه شهد التين بريق الحبيب النعسان وقد سال من فمه لأنه تشبيه لا يستريح إليه الذوق السليم ولو شَبَّهه بريق الحبيب لكفى»⁽¹⁾ وهذا تشبيه حسي يقوم على حاسة الذوق، إذ جمع بين حلاوة التين وريق الحبيب لكنه أفسده حين جعل الحبيب نعسان.

وكان للسفرجل - من بين الفواكه - صورة شعرية جميلة، فقد تأمل أبو عثمان المصحفي ثمرة السفرجل، وأشد ما يلفتها منها لونها ورائحتها، فيقطفها ويجعلها ريحانة في مجلسه⁽²⁾:

وَمُصَفِّرَةٌ تَحْتَالُ فِي ثُوبِ نَرْجِسٍ	وَتَعَبَّقُ عَنْ مَسكِ زَكِيِّ التَّنْفَسِ
لَهَا رِيحٌ مَحْبُوبٌ وَقِسْوَةٌ قَلْبِهِ	وَلَوْنٌ مَحَبٌّ حُلَّةَ السَّقْمِ مُكْتَسِي
فَصَفَّرَتْهَا مِنْ صُفْرَتِي مُسْتَعَارَةً	وَأَنْفَاسُهَا فِي الطَّيْبِ أَنْفَاسُ مُؤْنَسِي
فَلَمَّا اسْتَمْتَمَتْ فِي الْقَضِيبِ شَبَابَهَا	وَحَاكَتْ لَهَا الْأَنْوَاءُ أَبْرَادَ سُندُسِ
مَدَدْتُ يَدِي بِاللُّطْفِ أَبْغِي اقْتِطَافَهَا	لَأَجْعَلَهَا رِيحَانِي وَسَطَ مَجْلِسِي

ونوه أحمد بن محمد بن فرج بضره من الرمان يدعى الرمان السفري، فيقدم ثماره في صور طريفة فهي تارة حُوقٌ ملىء بالجوهر، وتارة أخرى ملىء بالمرجان الأحمر، ويشبه حبَّاتها بلثة الحبيب، فيكتب إلى من أهداه له⁽³⁾:

وَلَا بَسَّةٌ صَدَفًا أَحْمَرًا	أَتَتْكَ وَقَدْ مُلِئَتْ جَوْهَرًا
كَأَنَّكَ فَاتِحُ حُوقٍ لَطِيفٍ	تَضُمِّنُ مُرْجَانَهُ الْأَحْمَرَا
حُبُوبًا كَمَثَلِ لُثَاتِ الْحَبِيبِ	رُضَابًا إِذَا شَتَّتْ أَوْ مَنْظَرَا

(1) الأدب الأندلسي، ص 299.

(2) ابن الأبار، الحلة السراء، ص 144

(3) نفع الطيب، 2/ 15.

ولم يُكثر الأندلسيون من وصف العنب بوصفه عناقيد وثمار وإنما أكثروا من وصفه معصوراً. وينوّه أحمد بن الشقاق بعنب أسود وهو مغطى بورق أخضر، فيقول:

عنبٌ تطلّع من حشى ورقٍ لنا صُبغت غلائلُ جلده بالإثم
فكأته من بينهنّ كواكبٌ كُسفت في سماءٍ زبرجد

وهذا وصف خارجي ينقل صورة العنب نسخاً وتقريراً، لا يبلغ وصف ابن الرومي للعنب في أرجوزته التي نوّه فيها بضرب منه يدعى العنب الرازقي إذ وصفه وصفاً دقيقاً وخلع عليه مشاعره.

رابعاً: وصف الأنهار

من مجالي الطبيعة التي غني بها الشعراء الأندلسيون وصف الأنهر، إذ أكثروا من القول فيها، فقد رسم ابن خفاجة صورة أنيقة للنهر، في مقطوعة مطلعها⁽¹⁾:

لله نهرٌ سألَ في بطحاءٍ أشهى وروداً من لمى الحسناء
وسندّخر الحديث عنها في سياق ترجمة الشاعر.
ويصف ابن حمديس النهر وصفاً جميلاً، فيقول:

ومطرّد الأمواج يصفّلُ متّنه صباً أعلنت للعين ما في ضميره
جريح بأطرافِ الحصى كلما جرى عليها شكا أوجاعه بخريره
كانَ حُباباً ريع تحت حبابه فأقبلَ يلقي نفسه في غديره

ومن يقرأ هذه المقطوعة يعجب بتصويره الطريف، فقد صوّر النهر بالجريح، لكثرة سيره على الحصى، وصوّر خريره بمن يثن ويتوجّع.

خامساً: وصف القصور

تغنى الشعراء بوصف الطبيعة الصناعية، ومنها القصور التي انتشرت في الأندلس، إذ أسرف الأمراء والخلفاء والملوك في بنائها، وكانت مواطن للاستجمام

(1) انظر: الفصل السادس، المبحث الثاني.

والراحة حيناً، ومجالس للهو والترف والنعيم حيناً آخر. «وقد كانت حياة هذه القصور موقوتة بحياة بُناها، تبقى ما بقوا، وتذهب بالانتهاج والسلب بذهابهم»⁽¹⁾.

وقد تفنن الشعراء في وصف هذه القصور، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، ومن ذلك وصف قصر الدَّمَشَقَ بقرطبة لأبي بكر بن عَمَّار⁽²⁾:

كلُّ قصرٍ بعد الدَّمَشَقِ يُذمُّ فيه طابَ الجنى وفاح المِشمُ
منظرٌ رائقٌ، وماءٌ نَميرٌ وثرىَ عاطرٌ، وقصرٌ أَشَمُّ
بتُّ فيه والليلُ والفجرُ عندي غيرُ أَشهبَ ومسكٌ أَحَمُّ⁽³⁾

فهو يصف قصراً بناه بنو أمية في الأندلس، واتخذوه ميداناً مراحهم، وحكوا به قصورهم بالشرق، ويقترن هذا الوصف بوصف الطبيعة بمائها العذب وثرائها المعطر والفجر الذي اختلط فيه البياض والسواد.

سادساً: وصف البرك

افتن الأندلسيون بوصف مظاهر الحضارة الأندلسية كالقصور والبرك. وهذا ابن حمديس يصف بركة في قصر ابتناه المنصور أمير بجاية⁽⁴⁾، وعلى هذه البركة أشجار من الذهب والفضة وأسود من المرمر يخرج من أفواهها الماء كما يخرج من أطراف تلك الأشجار فيُسمع لها خرير وصفير، إذ يقول:

وضراغم سكنت عرينَ رياسةٍ تركت خرير الماء فيه زئيراً⁽⁵⁾
فكأنما غشى النضار جُسومها وأذاب في أفواهها البلُورا⁽⁶⁾
أسدٌ كأنَّ سكونها متحرُّكٌ في النفس لو وجدتُ هناك مُثيراً

(1) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص 313.

(2) نفح الطيب، 2/ 190.

(3) أحَمّ: الأسود من كل شيء.

(4) إحدى المدن الجزائرية الآن.

(5) ضراغم: جمع ضرغام وهو الأسد. والعرين: بيته والمقصود قصر المنصور.

(6) غشى: غطى. النضار: الذهب.

وتذكرت فتكاتها فكأنما
وتخالها والشمس تجلو لونها
فكأنما سلت سيوف جداول
وكأنما نسج النسيم لمائه
وبديعة الثمرات تعبر نحوها
شجرية ذهبية نزعت إلى
قد سرحت أغصانها فكأنما
وكأنما يأتي لوقع طيرها
من كل واقعة ترى منقارها
خرس تعدد من الفصاح فإن شدت
أقعت على أدبارها لتثورا
ناراً وألسنها اللواحس نورا
ذابت يلا نار فعدن غديرا
درعاً فقدّر سردها تقديرا
عيناى بحر عجائب مسجورا
سحر يؤثر في النهى تأثيرا
قبضت بهن من الفضاء طيوراً
أن تستقل بنهضها وتطيرا
ماء كسلسال اللجين نميرا
جعلت تغرد بالماء صفيرا

أهم ما يلفتنا في هذه القصيدة أن الشاعر يصف مظهراً من مظاهر الحضارة ومنظراً من روائع العمران وقد جاء وصفه حسياً دقيق التفاصيل أنيق العبارة، وهو كغيره من الوصافين الذين يعتمدون على الصورة البصرية، يكتفي بالمظهر الخارجي للأشياء، ونقله بحدته بدلا من أن ينقله من وحي قلبه وإشعاع نفسه؛ ومن هنا بدا وصفه جامدا ضعيف الإيجاء.

وقد عمد الشاعر إلى الخيال في وصف تلك البركة ، فقد تخيل التماثيل أسوداً تتحفّر للانقضاض على فرائسها، وطيوراً تغرد وتصدر أعذب الألحان.

وينظر الخيال الى الأسود الذهبية الملمعة وقد بدت كنار متوهجة إثر انعكاس الشمس عليها، وقد خرجت ألسنتها مشعة من تلك النار. أما الماء المتدفق من أفواهها على هيئة النور فقد تخيله سيوفاً لامعة ذابت بلا حرارة، وأصبحت مياهاً تجري في الجداول وتتجمع في الغدير .

وتخيل الغدير والنسيم يهب عليه محدثاً انكسارات على سطحه بأنه درع محكمة الصنع والنسج.

ويعضي في تصوير البركة فيقول: إن حولها أشجاراً بديعة الثمرات، ذهبية اللون، استقرت فوق أغصانها طيور، تمنعها الأغصان من التحليق في الفضاء، وتخيل المياه التي تسيل من مناقيرها فضةً سائلة، ومع أن هذه الطيور خرساء لا تغرد إلا أن تلك المياه المتدفقة تحدث صغيراً كأنه غناء وتطريب.

وأيا كان الأمر، قد ظل الشاعر طوال قصيدته أسير الصورة البصرية التي ينسخها نسخاً.

المبحث الثالث

الطبيعة في موضوعات الشعر الأخرى

من الخصائص التي يتسم بها شعر الطبيعة في الأندلس أنه يأتي في أغلبه ممتزجاً بأغراض أخرى، وكان الغزل أكثر هذه الأغراض امتزاجاً بالطبيعة، إلا أن هذا الامتزاج نراه أيضاً في المدح، والشكوى والتحسر، والرثاء، والعتاب، والفخر.

فمن مشاهد الطبيعة في مقام الغزل تلقانا قصيدة ابن زيدون العاطفية التي أرسلها إلى ولادة من مخبئه في ضاحية الزهراء، إذ يقول:

إنني ذكرتكَ بالزهراء مشتاقاً والأفق طلقٌ ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ في أصائله كأنه رقّ لي فاعتلّ إشفاقا
والروضُ عن مائه الفضي مُبتسمٌ كما شققتَ عن اللَّبَّات أطواقا
نلهو بما يستميل العين من زَهَرٍ جال الندى فيه حتى مال أعناقاً
كأنّ أعينه إذ عاينت أرقى بكت لما بي فجال الدمع رقراقا

فهو يصف مغاني الزهراء الفيحاء، بنسيمها العليل، وروضها الفتان، ويربط ذلك بأيامه المنصرمة مع ولادة، وقد كانا يعيشان في هناء وصفاء، ويستمتعان بالزهر الذي يترقرق فيه الندى وقد مالت أعناقهم، ويشخصه ويجعل الدموع تتحدر بين أوراقه، لما حل به وبذلك استطاع أن يجسم أشجانه في الطبيعة الحية.

وقد يكون الفرد ممدوحاً، فيتخذ الشاعر الطبيعة متكأً لمديحه في مثل قول ابن خفاجة⁽¹⁾:

لذكركَ ما عبَّ الخليج يصفق وباسمك ما غنى الحمام المطوق
ومن أجلك اهتز القضيبُ على النقا وأشرق نُورُ الربى يتفتّق

إن مزج الطبيعة بشعر المديح ليس جديداً في الشعر الأندلسي، فقد عرفه العباسيون، إلا أن الجديد عند الشاعر الأندلسي هو إمعانه في تصوير الطبيعة وصبغها

(1) ديوان ابن خفاجة، ص 184.

بمختلف الأصباغ، فنراه يسرف في استعمال التشبيهات والاستعارات دون النفاذ إلى أعماقها، على نحو ما نجده في قصيدة أبي بكر بن عمار في مدح المعتضد إذ يقول⁽¹⁾:

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استردّ الليل منّا العنبرا
روضٌ كأنّ النهر فيه معصمٌ صافٍ أطلّ على رداء أخضرا
وتهزّه ريح الصبّا فتخاله سيف ابن عبادٍ يُدّد عسكرا
عبادٌ المخضرّ نائل كفّه والجو قد لبس الرداء الأخضر
أندى على الأكباد من قطر الندى وألث في الأجفان من سِنَّة الكرى

وقد يمزج الشاعر الأندلسي الطبيعة بالحزن والبكاء في شعر الرثاء في مثل قول ابن خفاجة في رثاء الوزير أبي محمد عبد الله بن ربيعة⁽²⁾:

في كل نادٍ منك روضٌ ثناء وبكل خدّ فيك جدولٌ ماءٍ
ولكل شخصٍ هِزّة الغُصن الندي غِيبَ البكاء ورِئّة المكاءِ
يا مطلع الأنوار إنّ بمقلتي أسفاً عليك لمطلع الأنواءِ

ويرى الدكتور مصطفى الشكعة أن هذا الخلط بين الطبيعة والرثاء هو جمع بين نقيضين غير مأمون العاقبة، ومن ثم جاءت محاولته محفوفة بالمكاره، فاليبتان الأول والثاني لا علاقة لهما بالرثاء، ولانكاد نحسّ بأن القصيدة قصيدة رثاء إلا في قوله:

لا هزّني أملٌ وقد حل الردى بأبي محمدٍ المحلّ النسائي
إلا أنه رثاء فاتر تورّط فيه الشاعر⁽³⁾:

ولا يلبث أن يكتب لصديقه ابن حمديس:
غريبٌ بأرض المغربين أسيرٌ سيكي عليه منبرٌ وسريرٌ

(1) المغرب، 1/ 391.

(2) ديوان ابن خفاجة، ص 178.

(3) انظر: مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، ص 355.

وتندبه البيض الصوارم والقنا وينهل دمع بينهن غزير
ومن ثم يلوذ بالطبيعة لعله يخفف من آلامه وأحزانه، جامعاً بذلك بين وصف
الطبيعة والشكوى والتحسر، فنسمعه يقول:

فيا ليت شعري هل أبين ليلةً أمامي وخلفي روضة وغدير
بمنبئة الزيتون موروثه العلا تُغني قياناً أو ترن طيور
بزاهرها السامي الذي جاده الحيا تشير الثريا نحونا ونشير

المبحث الرابع

خصائص وسمات شعر الطبيعة في الأندلس

1. الإسراف في التشبيهات والاستعارات، والعناية بتشخيص الطبيعة، وذلك بإبرازها في صورة شخوص وكائنات حيّة، مما يكسبها حركة ونشاطاً، على نحو ما نجده في شعر ابن خفاجة وابن زيدون وغيرهما.
2. الاستعانة بألوان البديع المعنوي واللفظي، من طباق، ومقابلة، وجناس وغيرها، على نحو متفاوت، إذ تقلّ في صور متقدمي شعراء الأندلس وتكثر في صور متأخريهم.
3. امتزاج شعر الطبيعة بغيره من الأغراض، وقلما يأتي عندهم غرضاً مستقلاً قائماً بذاته إلا نادراً في بعض المقطوعات والقصائد. وعلى هذا فأكثره يأتي ممتزجاً بأغراض أخرى كالغزل والمدح والرثاء وغيرها. وقد انزلق بعض الشعراء «حين جمع ما يقبح الجمع بينها من موضوعات كالجمع بين الغزل والنسيب والطبيعة والخمر والرثاء في قصيدة واحدة⁽¹⁾».
4. تصوير الطبيعة الأندلسية الحيّة والصامته، والطبيعة الصناعية التي تدور حول مظاهر الحضارة والعمران من مساجد وقصور وبرك، وقد باعدت هذه الحضارة بين الشاعر والبيئة البدوية.
5. وصف البيئة الأندلسية، من متنزهات ومجالس هو وطرب، من خلال غزلهم الذي يقوم على جانبين: وصف المحبوب والمكان الذي يضم هذا المحبوب وهو الطبيعة. وقد انصرف الشعراء إلى تصوير الجانب اللاهي من الطبيعة.
6. الامتزاج بين المرأة والطبيعة، فلا تُذكر المرأة إلا وتُذكر معها الطبيعة، كما أن الطبيعة وجدت في المرأة ظلها وجمالها، فكانت الحبيبة جنة وروضاً وشمساً، ومما قاله المقرئ في هذا الصدد: «إنهم إذا تغزلوا صاغوا من الورد خدوداً، ومن

(1) انظر: مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، ص 365.

الترجس عيوناً، ومن الآس أصباغاً، ومن السفرجل نهوداً، ومن قصب السكر قدوداً ومن قلوب اللوز وسُرر التفاح مباسم ومن ابنة العنب رُضاباً⁽¹⁾.

لقد عاش الأندلسيون مع الطبيعة وأحيوها في شعرهم، وغزلهم على وجه الخصوص، ومن ثم أصبح وصف الطبيعة حركة أدبية شاملة لا غرضاً مستقلاً وحسب.

7. وقفوا من الطبيعة موقف المصور الذي يصور ظواهر الطبيعة دون النفاذ إلى باطنها، إلا أنّ بعض الشعراء «خطروا بفلذات وجدانية تُعبّر عن قليل أو كثير من الوجد⁽²⁾»، كوصف ابن خفاجة للجبل، أو كوصف ابن زهر لشيخوخته حين غلب غلب عليه الشيب. ومن ثم لم يغوصوا على الفكرة إلا قليلاً، وظلوا حريصين على صورههم وألوانهم.

وأيّا كان الأمر، فقد استمدّ الأندلسيون من المشاركة في هذا الفن وغيره من فنون الشعر، ثم توسعوا في موضوعاته وأجادوا في أوصافهم وتفننوا في أساليب تعبيرهم.

(1) نفح الطيب، 1/ 323.

(2) إيليا الحاوي، فن الوصف، 243.

الفنون الشعرية المستحدثة

المبحث الأول: الموشحات

المبحث الثاني: الرّجل

الفصل الرابع الفنون الشعرية المستحدثة

المبحث الأول

الموشحات

تعدّ الموشحات فناً شعرياً أنيقاً اتخذ أشكالاً بعينها في نطاق التجديد في الأوزان والقوافي، إذ خرج عن بنية القصيدة التقليدية. وكان ظهوره في الأندلس، فقد استحدثه الأندلسيون ثم انتقل إلى المشرق العربي والمغرب على السواء. واتسع هذا الفن، وتعدّدت أغراضه، وجعله الأقدمون واحداً من فنون الشعر التي حصرها الأبيهي في الشعر القريض، والموشح، والدوبيت⁽¹⁾ والزجل⁽²⁾، والمواليا،⁽³⁾ والكان كان،⁽⁴⁾ والقوما⁽⁵⁾.

ويتفق الأقدمون على أن الموشح فن أندلسي خالص، ويؤكد ابن خلدون ذلك بقوله: «وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قطرهم، وتهذبت مناحيه وفنونه، وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فناً منه سموه بالموشح»⁽⁶⁾

(1) نظم يأتي بيتين بيتين، ويسمى المزدوج، وأصله فارسي. (المعجم الأدبي، 2/ 112).

(2) شعر منظوم بالعاميات العربية، على أوزان الخليل. (م.ن، 136).

(3) نظم غنائي أنشده جماعة من المواليا في العصر العباسي، وكانوا يقولون في آخر كل دور منه: يا مواليا! إشارة إلى سادتهم من البرامكة. (م.ن، ص 270).

(4) نوع من الشعر متأثر بالعامية، تسقط فيه القافية، وتكثر فيه عبارة: كان وكان (م.ن، ص 219).

(5) نوع من الشعر المتأثر بالعامية، شاع في بغداد خلال القرن الثاني عشر، ثم انتشر في غيرها من البلدان. وقد نظم أصلاً لايقاظ الصائمين في السحور خلال شهر رمضان. (م.ن، 216).

(6) مقدمة ابن خلدون، ص 1137.

وهناك دراسات تُبين العلاقة بين الشعر الفرنسي - الإسباني القديم الذي كان ينشده شعراء التروبادور TROBADOURS وبين فن الموشحات. فهما يتشابهان في الأغراض الشعرية، وفي طليعتها الغزل ووصف الطبيعة والمديح والحماسة، وفي البناء الفني، فضلاً عن الاعتماد على الموسيقى والغناء. ويرى الدكتور جودت الركابي أن الربط بين الموشحات والشعر الأجنبي مسألة تحتاج إلى مناقشة ولا يمكننا النظر إليها كحقيقة لا يعتورها الشك.

ولكن الذي لا شك فيه هو أن الغناء العربي قد طبع الغناء الأندلسي بطابعه، ولا نزال نلمس آثار هذا الطابع في الأغاني الإسبانية حتى الآن.⁽¹⁾

تعريف الموشحات

الموشحات: جمع موشح، وقد عرّفه ابن سناء الملك بقوله: «الموشح كلام منظوم، على وزن مخصوص، بقوافٍ مختلفة، وهو يتألف في الأكثر من ستة أفعال وخمسة أبيات ويقال له: التام، وفي الأقل من خمسة أفعال وخمسة أبيات، ويقال له: الأقرع؛ فالتام ما ابتدء فيه بالأفعال، والأقرع ما ابتدء فيه بالأبيات»⁽²⁾

والموشح لغة مأخوذ من الوشاح، وهو من حلّي النساء، ولعلّهم شبّهوه بوشاح المرأة، الذي يتّسم بالتنميق والتجميل، وهو «عقد من لؤلؤ وجوهر منظومين مخالّف بينهما معطوف أحدهما على الآخر، تتوشّح المرأة به والوشاح - كما يقول الجوهري في الصّحاح - شيء يُنسج من أديم عريضاً ويرصّع بالجواهر، وتشدّه المرأة بين عاتقيها وكشّحها»⁽³⁾.

والجامع بينهما هو التشابه في التجميل؛ فالوشاح يُجمّل بما يرصّع عليه من الجواهر، والموشح يُجمّل بالتنويع بين أفعاله وأدواره في الوزن والقافية. ويرى الرافعي أن أصل هذه اللفظة - الموشح - «وأنها منقولة عن قولهم: ثوب موشح؛ وذلك لوشي

(1) جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ص 286.

(2) دار الطراز، ص 42.

(3) أحمد ضيف، بلاغة العرب في الأندلس، ص 224 و 225.

يكون فيه، فكأن هذه الأسماط والأغصان التي يُزَيّنون بها، هي من الكلام في سبيل الوشي من الثوب، ثم صارت اللفظة بعد ذلك علماً⁽¹⁾

وأيّاً كان الأمر، فإنّ مؤرخي الأدب علّلوا هذه التسمية بما تتجمل به المرأة من وشاح أو ثوب مزين بالجواهر والآلئ، واتفقوا على أن هذا الفن هو فن أندلسي خالص.

نشأة الموشحات

نشأت الموشحات في الأندلس، مع أواخر القرن الثالث الهجري، بإجماع الأقدمين ابتداءً بابن بسام (542هـ) في الذخيرة، إذ عدّ أهل الأندلس هم الذين وضعوا حقيقةً صنعة التوشيح ونهجوا طريقته⁽²⁾، وانتهاءً بالمقرئ في نفح الطيب مروراً بعبد الرحمن بن خلدون في مقدمته إذ قرّر أنهم كانوا ينظمونها أسماطاً وأغصاناً أغصاناً ثم استظرفها الناس.⁽³⁾

وأول من ابتكر هذا الفن فيما يذكر ابن بسام في كتابه الذخيرة هو محمد بن محمود القبري⁽⁴⁾ في حين يذكره ابن خلدون باسم آخر هو مقدّم بن معافى القبري.⁽⁵⁾ ويذهب عبد العزيز الأهواني إلى أنّ الاسمين ليسا لشاعر بعينه، وإنما هما لشاعرين إسبانيين نشأ في بلدة واحدة هي «قبرة»، وأن محمد بن محمود القبري كان ضريراً. وأما مقدّم بن معافى فلم يكن كذلك وكان الشاعران متعاصرين.⁽⁶⁾

وعلى أية حال، فقد ارتبطت نشأتها بالغناء والأغاني الشعبية التي لم تكن عربية فحسب، وإنما استمدّت من الأشعار الإسبانية العامية وأخذت كثيراً من الخرجات

(1) تاريخ آداب العرب، 3 / 160.

(2) انظر: الذخيرة، 2 / 1 ص 1.

(3) انظر: مقدمة ابن خلدون، ص 1137.

(4) انظر: الذخيرة، 2 / 1 ص 1.

(5) انظر: مقدمة ابن خلدون، ص 1138.

(6) الذخيرة، 2 / 1 ص 1.

والتعابير⁽¹⁾. ثم اكتملت على يد عبادة بن ماء السماء (-419 هـ) فكان «شيخ الصناعة وإمام الجماعة، سلك الشعر مسلماً سهلاً، فقالت له غرائبه: مرحباً وأهلاً»⁽²⁾.

أما أبرز شعراء الموشحات خلال العهود التالية فهم: الأعمى التطيلي، ثم يحيى ابن بقي (-540 هـ) إبان عهد المرابطين، وأبو بكر بن زهر (-595 هـ) الذي اشتهر في عهد الموحدين، وفيه يقول عبد الواحد المراكشي: «هو الإمام المقدم في الموشحات خاصة، وطريقته هي الغاية القصوى التي يجري كل من بعده إليها، وهو آخر المجيدين في صناعتها»⁽³⁾.

واشتهر بعده إبراهيم بن سهل الإسرائيلي (-649 هـ) في إشبيلية، ولسان الدين بن الخطيب الذي سار على خطاه حتى تفرّد بهذا الفن في الأندلس والمغرب، وتلمذ على يديه ابن زمرق، ثم ظهر في القرن التاسع أبو يحيى بن عاصم الذي عدّه الأندلسيون ابن الخطيب الثاني.

تجدر الإشارة إلى أن الموشحات انتقلت من الأندلس إلى بلاد الشام، إذ نزها محي الدين بن عربي في أواخر حياته، وحمل معه هذا الفن ونشره بين الناس. وقد حوى ديوانه الأكبر ست عشرة موشحة، وزجلاً واحداً، توغل بعضها في المعاني الصوفية⁽⁴⁾، ومن ثم انتشرت الموشحات وذاعت على أفواه فقراء المتصوفة، ممن عرفوا بالدرأويش.

بناء الموشح

يتألف الموشح من حيث بناؤه الفني من أجزاء معينة اصطلاح عليها الوشاحون والتزموا بها في صنع موشحاتهم وهي: المطلع (المذهب)، والقفل، والخرجة، والغصن، والدور، والسّمط، والبيت.

(1) انظر: عبد العزيز الأهواني، الزجل في الأندلس، ص 5.

(2) الذخيرة، 2/1 ص 1.

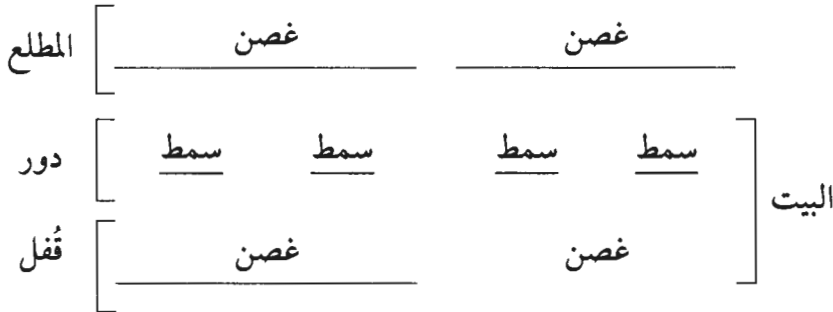
(3) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 63.

(4) عبد العزيز الأهواني، ابن سناء الملك، ص 197.

ونتناول هذه الأجزاء في نطاق الترتيب السابق مع التمثيل بأجزاء من موشحة لأبي بكر بن عيسى الداني أحد شعراء بني عبّاد في القرن الخامس، يمزج فيها المدح بالغزل.

1. المطلع: وهو ما يُفتتح به الموشح، ويتألف من شطرين (غصنين) أو أربعة أشطر (أغصان) ويُسمى الموشح «تاماً» إذا بدأ بالمطلع أو القفل الأول، فإذا خلا منهما سُمي «الموشح الأقرع».
2. الدور: وهو الجزء الذي يأتي بعد المطلع وقبل القفل، ويتألف من ثلاثة أقسام فأكثر بشرط أن تتكرر بالعدد نفسه في بقية الموشح وأن تكون من وزن المطلع ولكن بقافية مختلفة عن قافيته وتلتزم في أشطر الدور الواحد.
3. القفل: هو ما يلي الدور مباشرة، ويلزم أن يتفق كل قفل مع المطلع، ومع بقية الأقفال، ومع الخرجة في الوزن والقافية وعدد الأقسام. ويتألف من جزئين فأكثر إلى ثمانية أو عشرة، وقد أوصله ابن سناء الملك إلى أحد عشر.
4. الخرجة: هي آخر قفل في الموشح، وتشكل مع ما يسبقها من أقفال أجزاء أساسية في بناء الموشحة. والخرجة نوعان: معربة أي فصيحة اللفظ. وزجلية أي عامية أو أعجمية الألفاظ وهي المفضلة المستحسنة.
5. البيت: ويتألف من جزأين هما: الدور والقفل الذي يليه، خلافاً لما هو عليه في القصيدة التقليدية التي فيها البيت من شطرين (صدر وعجز).
6. الغصن: وهو اسم اصطلاحي لكل شطر من أشطر المطلع أو الأقفال أو الخرجة. وتتساوى هذه الأجزاء في عدد الأغصان، وأقل عدد لكل جزء منها اثنان، قد يكونان من قافية واحدة أو من قافيتين مختلفتين أو من ثلاث قوافٍ متماثلة أو مختلفة. وأكثر الموشحات تتألف من أربعة أغصان على أي ترتيب يراه الشاعر.
7. السُمط: وهو اسم اصطلاحي لكل قسم من أقسام الدور، ويجب أن تتساوى جميع الأدوار في عدد الأسماط ولا يقل عدد الأسماط في الدور الواحد من الموشح عن ثلاثة. يكون السُمط مفرداً (فقرة واحدة)، وربما يتألف من فقرتين.

ونمثل هذه الأجزاء في المخطط التالي:



الغصن: شطر من المطلع أو القفل أو الخرجة.

المطلع: يتألف من غصنين أو أربعة أغصان.

السمط: قسم من أقسام الدور.

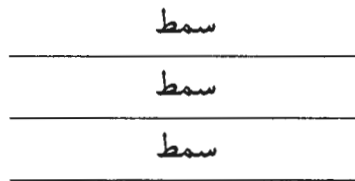
الدور: يتألف من ثلاثة أسماط أو أكثر.

البيت: الدور+القفل الذي يليه.

القفل: يلي الدور.

الخرجة: آخر قفل بالموشح.

ملحوظة: قد تُرتَّب الأسماط بشكل عامودي، على النحو التالي:



وفي ما يلي مقطع من موشحة الوزير أبي بكر بن عيسى الدّاني، من شعراء بني عبّاد في القرن الخامس الهجري، نُوضّح بها مدلولات هذه المصطلحات التي أطلقها الوشاحون على الأجزاء التي يتألف منها الموشح عادة.

غصن	غصن	
وسوسن الأجياد ⁽¹⁾	في نرجس الأحداق	المطلع
بين القنا المياد	نبت الهوى مغروس	

سمط	سمط	سمط	سمط
والهودج المزور/ بالوشى والعصب ⁽²⁾	وفي نقا الكافور/ والمندل الرطب		

		الدور	البيت
غصن	غصن	قُضِب من البلُور/ حُمِين بالقُضيب	
القفل	أذابت الأشواق	روحى على الأجساد	
أعارها الطاووس	من ريشها أبراد ⁽⁴⁾		

- (1) النرجس والسوسن: نوعان من الزهور. الأحداق: سواد العين.
- (2) الكافور: نبت طيب الرائحة: المندل: عود الطيب. الهودج: مركب للنساء. المزور: المزين. الوشى: نقش الثوب. العصب: ثياب مخططة.
- (3) قُضِب الأولى: جمع قضيب، وهو الغصن. والثانية: جمع قضيب: وهو السيف الدقيق. البلور: نوع من الجواهر يتكون من زجاج شفاف (الكريستال).
- (4) أبراد: جمع برد، وهو الثوب المخطط.

وقد مزج بعض الوشاحين بين الغزل ووصف الشراب. في مقدمتهم أبو بكر محمد بن زهر (-595 هـ) صاحب الموشحة المشهورة «أيها الساقى إليك المشتكى».

أوزان الموشحات

تعد الموشحات من حيث إيقاعاتها وأوزانها لوناً من التجديد الذي طرأ على أوزان الشعر العربي التي اكتشفها الخليل بن أحمد وجعل منها علماً يكاد يكون متكاملًا، ذلك أن من أتى بعده لم يضيفوا إلى العروض شيئاً يذكر، سوى زيادة بحر المتدارك الذي استحدثه الأخفش، وكان الخليل قد حصر هذه الأوزان في خمسة عشر بحراً تاماً مع بعض مجزوءاتها، ومن ثم اكتملت البحور فغدت ستة عشر بحراً.

وقد لاحظ ابن سناء الملك في كتابه «دار الطراز» أن الموشحات من حيث أوزانها تنقسم إلى قسمين:

1. ما جاء منها على أوزان الشعر المعروفة وهي نوعان:

- أحدهما ما لا يتخلل أقفاله وأبياته كلمة تخرج بالفقرة التي جاءت فيها عن الوزن الشعري، وهو مرذول لا يفعله إلا الضعفاء من الشعراء، لأنها أشبه بالمخمسات منها بالموشحات، كقول ابن زهر الحفيد في موشحته التي وردت على بحر الرمل:

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

- والثاني هو ما تخللت أقفاله وأبياته كلمة أو حركة ملتزمة - كسرة كانت أو ضمة أو فتحة - تُخرجه عن أن يكون شعراً صريفاً. فمثال الكلمة قول ابن بقي:

صبرت والصبر شيمة العاني ولم أقل للمطيل هجراني معذبني كفاني

فالبيت من بحر المنسرح، وقد أخرج منه قوله: «معذبني كفاني».

ومثال الحركة قول ابن بقي أيضاً:

يا ويح صب إلى البرق له نظر وفي البكاء على الورق له وطر

فالبيت على وزن البسيط، والتزام إعادة القافية في وسط الوزن على الخفض في «البرق» و«الورق» أخرجته عن وزنه.

2. ما جاء على غير الأوزان المألوفة عند العرب

وهو كثير لا يمكن حصره، وهو ما يعنيه ابن سناء الملك بقوله: «وكنّت أردت أن أقيم لها- لموشحات هذا النوع- عروضاً يكون دفترها لحسابها، وميزاناً لأوتادها وأسبابها، فعزّ ذلك وأعوز؛ لخروجها عن الحصر...»⁽¹⁾

وہكذا ظلت تستعمل دون أسماء. وہی نوعان:

أولها ما لا وزن له إلا التلحين، وهو أكثر الموشحات. والثاني ما كان بحاجة إلى لفظة لا معنى لها، تكون دعامةً للتلحين، وعُكَّازاً للمعنى، كقول ابن بقي:

مَنْ طَالِبٌ ثَارٍ قَتَلِي / ظِيَّاتُ الْحُدُوجِ فَنَانَاتُ الْحُجَبِ

فإنّ التلحين لا يستقيم إلا بأن يقول: «لالا» بين الجزئين الجيمين من هذا الوزن⁽²⁾.

فنون الموشحات

ارتبطت الموشحات في أول نشأتها بالغناء، إذ أفاد كلاهما من الآخر. وكانت الفنون التي تناسبها هي الغزل الذي اتجهت إليه أولاً، فوصف مجالس اللهو والشراب ومظاهر الطبيعة. ولم تلبث الموشحات أن تعددت فنونها، فقد نظم الوشاحون في مختلف فنون الشعر، من مدح، وثناء، وهجاء، وتصوف وزهد أو غيرها. وهو ما أشار إليه ابن سناء الملك بقوله: «والموشحات يعمل فيها ما يُعمل في أنواع الشعر من الغزل والمدح والثناء والهجو والمجون والزهد...»⁽³⁾. وبذلك احتلت الموشحة مكانة رفيعة في الشعر العربي، إذ تغنى الوشاحون بجمال الطبيعة أمثال بن زمرك وابن عتبة وأبي جعفر بن سعيد.

وسنعرض نماذج من هذه الموشحات تبعاً لأسبقية الفن الذي أنشئت فيه، فنبدأ بالغزل، فوصف الطبيعة، فالمديح.

(1) دار الطراز، ص 23-38.

(2) م. ن .

(3) م.ن.

الغزل

يُعدّ الغزل أول فن شعري نظم فيه الوشاحون، فقد نهض لهذا الفن عبادة بن ماء السماء (-422هـ) وأبو العباس أحمد بن عبد الله، المعروف بالتطيلي الضرير (-525هـ)، وأبو بكر يحيى بن يقي (-540هـ).

وتعدّ موشحة التطيلي من أبرز الموشحات في زمنه، فقد ذكر أنّ جماعة من الوشاحين اجتمعوا في أحد المجالس في إشبيلية وقد استحضر كل واحد منهم موشحة ألفها وتأتق فيها، فتقدّم الأعمى التطيلي لإنشاد موشحته، وما كاد ينتهي منها حتى قام كل وشاح بتمزيق موشحته إجلالاً للتطيلي وإعجاباً بموشحته⁽¹⁾ وفي موشحته يقول التطيلي:

ضاحكٌ عن جُمانٍ سافرٌ عن بَـذِرِ
ضاقَ عنه الزمانُ وخاواه صـدري

آه ممّا أجـذ شفني ما أجـذ
قامَ بي وقَعـذ بـساطش مُتـد
كلّمّا قُلـتُ: قـذ قال لي: أين قـذ؟

وانثنى خُـوطَ بان ذا مهـزُ نُـضـر⁽²⁾
عابثـه يـدـان للـصـبـا والقـطـر

ليس لي منك بُـد خُذ فؤادي عن يـد
لم تُدغ لي جـلـذ غيرَ أنّي أجهـذ

(1) مقدمة ابن خلدون، ص 340؛ ونفح الطيب، 4 / 373؛ المغرب، 2 / 153 و 454.

(2) الخوط: الغصن الناعم.

مُكْرَعٌ مِّنْ شُهُدٍ وَأَشْشِيتَا قِيَّيْ شَهْدِ

مَا لَيْبَتِ الدَّنَانِ وَلِذَاكَ التَّغَرُّ؟
أَيِّنْ مَحْيَا الزَّمَانِ مِّنْ حُمَيَّا الْخَمَرِ؟

بِئْسَ هَوًى مُّضْمَرٌ لَّيْتَ جُهِدِي وَفَقُّهُ
كَلِمَا يَظْهَرُ فَقَوَادِي أَفَقُّهُ
ذَلِكَ الْمَنْظَرُ لَا يُبْدَاوِي عِشْقَهُ

بِأَبِي كَيْفَ كَانَ فَلَكَ يَّ دُرِّي
رَاقَ حَتَّى اسْتَبَانَ عُنْدَهُ وَعُنْدِي

هَلْ إِلَيْكَ سَبِيلٌ أَوْ إِلَى أَيَّاسٍ؟
دُبُّوتٌ إِلَّا قَلِيلٌ عَابِرَةٌ أَوْ نَفْسًا
مَا عَسَى أَنْ أَقُولَ؟ سَاءَ ظَنِّي بِعَسَى!

وَانْقَضَى كُلُّ شَانٍ وَأَنَا أَسْتَشْرِي
خَالِعاً مِّنْ عِنَانٍ جَزَعِي أَوْ صَبْرِي

مَا عَلَى مَنْ يَلُومُ لَوْ تَنَاهَى عَنِّي؟
هَلْ سِوَى حَبِّ رَيْمٍ دَيْنُهُ السَّجَنِي
أَنَا فِيهِ أَهْمِيمٌ وَهُوَ بِي يُغْنِي

قَدْ رَأَيْتُكَ عِيَانًا أَشُّ عَلَيْكَ؟ سَا تَدْرِي
سَا يَطُولُ الزَّمَانُ وَتَجْرُبُ غَيْرِي⁽¹⁾

فهذه موشحة نُظمت للغناء، وآية ذلك ما في بعض أشطرها من خلل في الوزن، فضلاً عن أن الخرجة فيها جاءت ملحونة عامية⁽²⁾

ويلقانا إبراهيم بن سهل الإسرائيلي (-649 هـ) الذي ارتقى بموشحاته الغزلية شكلاً ومضموناً، وإذا مات غرقاً، فقد قال الناس عنه: لقد عاد الدَّرَّ إلى أصله. وآية ذلك أن موشحاته أصبحت نماذج فنية ينسج على منوالها كبار الشعراء، ولسان الدين الخطيب على وجه الخصوص، فقد أنشأ موشحته المشهورة «جارك الغيث...» على نسق موشحة ابن سهل «هل درى ظي الحمى».

وفي ما يلي موشحة ابن سهل الإسرائيلي هذه، وهي من الموشحات الشعرية التي التزمت وزناً واحداً هو الرَّمْلُ:

هَلْ دَرَى ظِيَّ الْحِمَى أَنْ قَدْ حَمَى قَلْبَ صَبٍّ حَلَّهْ عَنْ مَكْنَسٍ⁽³⁾
فَهَوَ فِي حَرٍّ وَخَفَقَ مِثْلَمَا لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ

يَا بُدُورًا أَطْلَعْتَ يَوْمَ النُّوَى غُرُورًا تُسَلِّكُ فِي نُهْجِ الْغُرْرِ⁽⁴⁾
مَا لِقَلْبِي بِأَلْهَوَى ذَنْبٌ سِوَى مِنْكُمْ الْحَسَنُ وَمَنْ عَيْنِي النَّظَرُ
أَجْتَنِي اللَّذَاتِ مَكْلُومَ الْجَوَى وَالتَّذَاذِي مِنْ حَبِيبي بِالفِكْرِ
كَلَّمَا أَشْكُوهُ وَجَدِي بِسَمَاءَ كَالرُّبَا بِالْعَارِضِ الْمُنْبَجِسِ

(1) جيش التوشيح: ص 16، وأش: بمعنى أي شيء

(2) انظر: عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص 368.

(3) الحمى بكسر الحاء: المكان المنيع، وحى الحمى: منعه ودفع عنه، والمكنس: مأوى الظبي. وقوله عن مكنس، أي بدلاً من مكنس، فمن هنا للبدل والمعنى أنه اتخذ من قلبه مأوى وسكناً له وحده.

(4) الغرر بضم الغين: جمع غرة وهي بياض الوجه، والغرر بفتح الغين: الخطر والتعرض للهلكة.

إذ يُقِيمُ القَطْرُ فِيهَا مَائِماً وَهِيَ مِنْ بَهْجَتِهَا فِي عُرْسٍ

غَالِبٌ لِي غَالِبٌ بِالتَّؤَدَةِ بِأَبِي أَفْدِيهِ مِنْ جَافِرٍ رَقِيقُ
مَا رَأَيْنَا مِثْلَ نَغْرِ نَضْدِهِ أَقْحَوَاناً عَصْرَتْ مِنْهُ رَحِيقُ
أَخَذَتْ عَيْنَاهُ مِنْهُ الْعَرَبِدَهُ وَفَوَادِي سُكْرُهُ مَا إِنْ يُفِيقُ
فَاحِمُ الْجُمَةِ مَعْسُولُ اللَّمَى أَكْحَلُ اللَّحْظِ شَهْيُ اللَّعْسِ⁽¹⁾
وَجْهَهُ يَتْلُو الضُّحَى مُبْتَسِماً وَهُوَ مِنْ إِعْرَاضِهِ فِي عَبَسِ⁽²⁾

إِيَّهَا السَّائِلُ عَنْ ذُلِّي لَدَيْهِ لِي جِزَاءُ الذَّنْبِ وَهُوَ الْمَذْنُبُ
أَخَذَتْ شَمْسُ الضُّحَى مِنْ وَجْنَتِيهِ مَشْرِقاً لِلصَّبِّ فِيهِ مَغْرِبُ⁽³⁾
ذَهَبَتْ أَدْمُعُ أَجْفَانِي عَلَيْهِ وَلَهُ خَدُّ بِلَحْظِي مُذْهَبُ⁽⁴⁾
يَنْبْتُ الْوَرْدِ بَغْرَسِي كُلَّمَا لَأَحْظَتُهُ مَقْلَتِي فِي الْخُلْسِ⁽⁵⁾
لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ شَيْءٍ حَرَمَا ذَلِكَ الْوَرْدَ عَلَى الْمُغْتَرَسِ؟

كَلَّمَا أَشْكُو إِلَيْهِ حُرْقِي غَادِرْتَنِي مُقْلَتَاهُ دَنْفَا⁽⁶⁾
تَرَكْتُ الْحَاطِظَ مِنْ رَمَقِي أَثَرَ النَّمْلِ عَلَى صُمِّ الصَّفَا⁽⁷⁾

(1) الجمعة: مجتمع شعر الرأس، واللّمس: سواد ضارب الى الحمرة في الشفة.

(2) الضحى وعبس: من سور القرآن الكريم، وفيهما توريثان بديعتان.

(3) الصب: العاشق المشتاق.

(4) خد مذهب: أي مورد كالذهب لونا.

(5) الخلس: جمع خلسة بضم الخاء: من اختلس فلان الشيء، اذا أخذه في نهزة ومخالة.

(6) الدنف بفتح وكسر: المريض.

(7) الصفا: جمع صفاة، وهي الصخرة الملساء.

وَأَنَا أَشْكُرُهُ فِيمَا بَقِيَ لَسْتُ الْحَاهُ عَلَى مَا أَتْلِفَا
فَهُوَ عِنْدِي عَادِلٌ إِنْ ظَلَمَا وَعَذُولِي نُطْقُهُ كَالْخَرَسِ
لَيْسَ لِي فِي الْحُبِّ حُكْمٌ بَعْدَمَا حَلَّ مِنْ نَفْسِي مَحَلُّ النَّفْسِ

مِنْهُ لِلنَّارِ بِأَحْشَائِي اضْطِرَامٌ يَلْتَظِي فِي كُلِّ حِينٍ مَا يَشَاءُ
وَهِيَ فِي خَدَّيْهِ بَرْدٌ وَسَلَامٌ وَهِيَ ضُرٌّ وَحَرِيقٌ فِي الْحِشَاءِ
أَتَّقِي مِنْهُ عَلَى حُكْمِ الْعَرَامِ أَسَدُ الْغَابِ وَأَهْوَاهُ رَشَا
قُلْتُ لَمَّا أَنْ تَبَدَّى مُعَلَّمَا وَهُوَ مِنَ الْحَازِلَةِ فِي حَرَسِ:
أَيُّهَا الْآخِذُ قَلْبِي مَغْنَمَا اجْعَلِ الْوَصْلَ مَكَانَ الْخُمْسِ⁽¹⁾

وما من شك في أن موشحة ابن سهل هذه ترجع موشحات الغزل السابقة من ناحية تجربتها العاطفية وصياغتها الفنية، واستطاع بذلك أن يشدَّ انتباه النقاد إلى فنة، بما صاغ في موشحته من ألفاظ عذبة ومعانٍ جميلة، وخيال خصب، وإيقاع موسيقي مُطرب، تسعفه فيها أساليب بيانية وبديعية من تشبيه، واستعارة، وجناس، وطباق، وتورية، وقد نجح ابن سهل في تصوير معاناته، وتجربته، وهي تجربة قلب أحب، وأحسُّ بلذعة الألم والحرمان، في صدق، فانسابت إلى نفوسنا متدفقة حية.

ونُحَسِّنُ أن لغة الموشح قد عبرت عن تجربته العاطفية، في مثل قوله: قلب صَبَّ - في حرٍّ وخفق - مكلوم الجوى - ذُلِّي لديه - أدمع أجفاني - حُرْقِي - بأحشائي اضطرام - الآخذ قلبي.

إلا أن هذه التجربة لم تخلُ من افتتان بتصوير الجمال تصويراً حسياً في مثل قوله: ثغر نضّده أقحواناً - فاحم الجُمة - معسول اللمي أكحل اللحظ - شهّي اللعس إلخ.

(1) نفح الطيب: ج 9 ص 271، والخمس: نصيب القائد من الغنيمة.

الطبيعة

لم يستطع الوشاحون اللحاق بشعراء القصيدة التقليدية في وصف الطبيعة؛ ذلك أنّ كبار الشعراء من أمثال ابن خفاجة وابن زيدون والمعتمد بن عباد ومن إليهم عزفوا عن طرق باب الموشحات ترفعاً وكبرياء⁽¹⁾ وكذلك امتزجت في الموشحات عدّة موضوعات، استدعتها البيئة الأندلسية، فوصف الطبيعة ومجالس الشراب والغزل، موضوعات امتزج بعضها ببعض ووجدت طريقها إلى الموشح.

ومن هنا ندرت الموشحات التي تدور حول وصف الطبيعة فقط، ومنها موشح لأبي الحسن علي بن مُهَلِّه الجلياني:

النهر سَلَ حَسَامَا عَلَى قَدُودِ الْغُصُونِ

وَلِلنَّاسِ مَجْمَالُ

وَالرُّوضِ فِيهِ اخْتِيَالُ

مُذَّتْ عَلَيْهِ ظِلَالُ

وَالزَّهْرُ شَقَّ كِمَامَا وَجَدَاً بَتْلَكَ اللَّحُونِ⁽²⁾

أَمَّا تَرَى الطَّيْرَ صَاحَا

وَالصَّبْحَ فِي الْأَفْقِ لَاحَا

وَالزَّهْرَ فِي الرُّوضِ فَاحَا

وَالْبَرْقَ سَاقَ الْغَمَامَا تَبْكِي بِدَمْعِ هَثُونِ⁽³⁾

ولعل هذا القول مجتزأ من موشح.

ومن الموشحات التي يمتزج فيها وصف الطبيعة (الرياض والنهر) بالغزل ووصف الشراب والساقى موشحة الوزير الأديب الشاعر أبي جعفر أحمد بن سعيد.

(1) انظر: مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، ص 421.

(2) الكمام والأكمام: أغلفة براعم الزهر. وجداً: شوقاً

(3) الغمام: السحاب. هتون: هتن المطر: نزل بغزارة.

وهي من النوع التام لافتتاحها بالمطلع (المذهب) إلا أن خرجتها جاءت عامية، فنسمعه ينشد⁽¹⁾.

ذَهَبَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ فَضَّةُ النَّهْرِ

أَيُّ نَهْرٍ كَالْمَدَامِ

صَوِيرَ الظِّلِّ فِدَامِ

نَسَجَتْ السَّرِيحُ لَامِ

وَتَنَّتْ لِلْفَصْنِ لَامِ

فَهُوَ كَالْعَضْبِ الصَّقِيلِ خُفٌّ بِالْشَّفْرِ

مُضْحَكَا ثَغْرِ الْكِمَامِ

مُبْكِيَا جَفْنِ الْعُمَامِ

مُنْطَقَا وَرُقِ الْحَمَامِ

دَاعِيَا إِلَى الْمَدَامِ

فَلَهَا بِذَا بِالقَبُولِ خُطٌّ كَالسَّطْرِ

حَبَا بِالحُورِ مَعْنَى

هِيَ لِفِظٍّ وَهِيَ مَعْنَى

مُذْهَبُ الْأَشْجَانِ عُنَا

كَمْ دَرَيْنَا كَيْفَ سَرْنَا

ثُمَّ فِي وَقْتِ الْأَصِيلِ لَمْ نَكُنْ نَدْرِي

قُلْتُ وَالْمَزْجُ اسْتَدَارَا
بِذَرَى الْكَأْسِ سِوَارَا
سَالِبًا مَنَا الْوَقَارَا
دَائِرًا مَن حَيْثُ دَارَا
صَادَ أَطْيَارَ الْعُقُولِ شَبَّكَ الْخُمُرَ

وَعَدَ الْحَبُّ فَأَخْلَفَ
وَأَشْتَهَى الْمَطْلُ فَسُوفَ
وَرَسُولِي قَدْ تَعَرَّفَ
مِنْهُ بِمَا أُدْرِي فَحَرَّفَ

بِاللَّهِ قُلْ يَا رَسُولِي لِشَنْ يَغِيبُ بَدْرِي
وَلَأَبِي الْحُسَيْنِ بْنِ مُسْلِمَةَ الْقُرْطُبِيِّ (-585هـ) موشحة يصف فيها زهرة الآس،
إذ يقول:

سَلُوا وَرَقَ الْأَسِّ لِمَ حَدَّدَتْ وَقَدْ وَضَحَ الصُّبْحُ آذَانَهَا؟
وَلِمَ ذَا أُقِيمَتْ عَلَى سَاقِهَا وَبَلَّتْ مِنْ الطَّلِّ أَجْفَانَهَا؟
أَطْرَبَهَا هَاتِفٌ قَدْ غَدَا يَهْزُ مِنْ الطَّيِّبِ أَغْصَانَهَا؟

وأما موشحته في الطبيعة فقد قالها في وصف وادٍ جميل اسمه وادي رية ولعله هو نفسه وادي مالقة، وهو وادٍ غني بالتين والكروم والرياح والمياه، والموشحة على رقة ألفاظها وبراعة صوغها تجري في ركاب موشحة ابن سعيد، وإن كان نصيب الخمر والغزل هنا أوفر حصّة وأوسع تناولا. وأما بالنسبة لخرجة الموشحة فهي أعجمية لاستعمال لفظة من اللغة الرومانسية هي «سيه».

المديح

وتعد موشحة لسان الدين الخطيب (-776هـ) التي مدح بها الأمير الغني بالله صاحب غرناطة، من أشهر موشحات المديح، وقد مزجها بوصف الطبيعة، وحشدَ فيها ألوانا من الصور البديعة والتوريات اللطيفة، سالكا فيها نهج ابن سهل في موشحته المعروفة «هل درى ظبي الحمى».

جَادَكَ الْغَيْثُ إِذَا الْغَيْثُ هَمَى
يَا زَمَانَ الْوَصْلِ بِالْأَنْدَلُسِ
لَمْ يَكُنْ وَصْلُكَ إِلَّا حُلُمًا
فِي الْكَرَى أَوْ خُلْسَةِ الْمُخْتَلِسِ

(1) المغرب 1 / 424، 425.

إذ يقودُ الدهرُ أشتاتَ المنى نقلُ الخطو على ما ترسمُ
زُمرّاً بين فرادى وثنا مثلما يدعو الحجيجَ الموسمُ
والحيا قد جَلَلِ الروضَ سنا فتغورُ الزَّهرُ فيه تبسمُ

وروى النعمانُ عن ماءِ السَّما كيف يروي مالكُ عن أنسٍ
فكساهُ الحسنُ ثوباً معلماً يزدهي منه بأبهى ملبسٍ⁽¹⁾

في ليالٍ كتمت سرَّ الهوى بالدُّجى لولا شمسُ الغررِ
مالَ نجمُ الكأسِ فيها وهوى مستقيمُ السَّيرِ سعدَ الأثرِ
وطرَّ ما فيه من عيبٍ سوى أنه مرَّ كلمحِ البصرِ

حين لَدَّ النومِ شيئاً أو كما هجم الصبحُ هجومَ الحرسِ
غارتِ الشَّهبُ بنا أو ربَّما أثرتِ فينا عيونُ النُّرجسِ

أيُّ شيءٍ لا مريءٍ قد خلصاً فيكونُ الروضُ قد مكنَ فيه
تنهبُ الأزهارُ فيه القرصاً أمِنتُ من مكره ما تُثقيه
فلذا الماءُ تناجى والحَصاً وخلا كلُّ خليلٍ بأخيه

(1) النعمان هو النعمان بن المنذر ملك الحيرة والمراد هنا شقائق النعمان. ماء السماء أم المنذر وجدة النعمان، والمراد هنا المطر. مالك هو مالك بن أنس، والمراد أن رواية مالك عن أبيه أنس رواية صادقة تماماً مثل رواية زهر الشقيق عن أبيه وهو المطر الذي جعله نامياً نضراً حسن المنظر.

ثُبِرَ الْوَرْدُ غِيوراً بِرِما يَكْتَسِي مِنْ غَيْظِهِ ما يَكْتَسِي
وَيَرى الْأَسَ لَبِيّاً فَهَما يَسْرِقُ السَّمْعَ بِأُذُنِي فَرَسِ

يا أَهْيَلِ الْحَيِّ مِنْ وادي الْعُضا وبِقَلْبِي مَسْكُنُ أَنْتُمْ بِهِ
ضاقَ عَنْ وَجْدِي بِكُمْ رَحْبُ الْفُضا لا أَبالي شَرْقَهُ مِنْ غَرْبِهِ
فَاعِيدُوا عَهْدَ أَنْسٍ قَدْ مَضَى ثَعْتُقُوا عَبدَكُمْ مِنْ كَرْبِهِ

وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَحْيُوا مُغْرَما يَتَلاشَى نَفْساً فِي نَفْسِ
حَبَسَ الْقَلْبَ عَلَيْكُمْ كَرَما أَفْتَرَضُونَ عَفْاءَ الْحُبْسِ⁽¹⁾

وبِقَلْبِي مِنْكُمْ مُقْتَرِبُ بِأَحاديثِ الْمُنَى وَهُوَ بَعِيدُ
قَمَرٌ أَطْلَعَ مِنْهُ الْمَغْرِبُ شِقْوَةُ الْمَضْنَى بِهِ وَهُوَ سَعِيدُ
قَدْ تَساوى مُحَسَّنٌ أَوْ مُذْنِبُ فِي هِوَاهُ بَيْنَ وَعْدٍ وَوَعِيدِ

أَحْوَراً الْمُقْلَةَ مَعْسُولَ اللَّمى جالَ فِي النَّفْسِ مَجالِ النَّفْسِ
سَدَّدَ السَّهْمَ فَأَصَمى إِذْ رَمى بِفِؤادِي نَيْلَةَ الْمُفْتَرَسِ

إِنْ يَكُنْ جاراَ وَخابَ الْأَمْلُ ففِؤادُ الصَّبِّ بِالشُّوقِ يَذُوبُ
فَهُوَ لِلنَّفْسِ حَيْبٌ أَوَّلُ لَيْسَ فِي الْحَبِّ لِلْجُوبِ ذُنُوبُ
أَمَرَهُ مُعْتَمِلٌ مِمْتَثِلُ فِي ضُلُوعٍ قَدْ بَراها وَقُلُوبُ

(1) عفاء الحبس المقصود به قتل المحب وهلاكه.

حَكَمَ اللَّحْظَ بِهِ فَاحْتَكَمَا لَمْ يُرَاقِبْ فِي ضِعَافِ الْأَنْفُسِ⁽¹⁾
يُنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِمَّنْ ظَلَمَا وَيُجَازِي الْبِرَّ مِنْهَا وَالْمَسِي

مَا لِقَلْبِي كُلَّمَا هَبَّتْ صَبَا عَادَهُ عَيْدٌ مِنَ الشُّوقِ جَدِيدِ
جَلَبَ الْهَمُّ لَهُ وَالْوَصَا فَهُوَ لِلْأَشْجَانِ فِي جَهْدٍ جَهِيدِ
كَانَ فِي اللَّوْحِ لَهُ مَكْتَبَا قَوْلُهُ: إِنْ عَذَابِي لَشَدِيدِ

لَاعَجَ فِي أَضْلَعِي قَدْ أَضْرَمَا فَهِيَ نَارٌ فِي هَشِيمِ الْيَبَسِ
لَمْ يَدْعُ فِي مُهْجَتِي إِلَّا ذِمَا كِبَاءِ الصَّبْحِ بَعْدَ الْغَلَسِ⁽²⁾

سَلَّمِي يَا نَفْسُ فِي حَكَمِ الْقَضَا وَاعْمُرِي الْوَقْتَ بِرُجْعَى وَمَتَابِ
وَدْعِي ذَكَرَ زَمَانٍ قَدْ مَضَى بَيْنَ عُتْبَى قَدْ تَقَضَّتْ وَعَتَابِ⁽³⁾
وَاصِرٍ فِي الْقَوْلِ إِلَى الْمَوْلَى الرُّضَى مُلْهِمِ التَّوْفِيقِ فِي أُمِّ الْكِتَابِ

الْكَرِيمِ الْمُتْنَهَى وَالْمُنْتَمَى أَسَدِ السَّرْجِ وَبَدْرِ الْمَجْلِسِ
يَنْزِلُ الثُّضْرُ عَلَيْهِ مِثْلَمَا يُنْزَلُ الْوَحْيُ بِرُوحِ الْقُدُسِ

مُصْطَفَى اللَّهِ سَمِيَّ الْمُصْطَفَى الْغَنِيِّ بِاللَّهِ عَنْ كُلِّ أَحَدِ
مَنْ إِذَا مَا عَقَدَ الْعَهْدَ وَفَى وَإِذَا مَا فَتَحَ الْخُطْبَ عَقْدَ

(1) لم يراقب في ضعاف الأنفس أي لم يراقب الله يعني لم يتق الله وهو يقسو على المحبين.

(2) الذماء بقية الروح والغلس والظلام.

(3) العتبي الرضى.

مِنْ بَنِي قَيْسِ بْنِ سَعْدٍ وَكَفَى حَيْثُ بَيْتُ النَّصْرِ مَرْفُوعُ الْعَمَدِ
حَيْثُ بَيْتُ النَّصْرِ مَحْمِيٌّ الْحَمَى وَجَنَى الْفَضْلِ زَكِيُّ الْمَغْرَسِ
وَالْهَوَى ظِلُّ ظَلِيلٍ خَيْمًا وَالنَّدَى هَبَّ إِلَى الْمَغْتَرَسِ

هَآكِهَآ يَا سِبْطُ أَنْصَارِ الْعُلَى وَالَّذِي إِنْ عَثَرَ الدَّهْرُ أَقَالَ
غَادَةً أَلْبَسَهَا الْحَسَنُ مُلَا تَبْهَرُ الْعَيْنُ جَلَاءً وَصِقَالَ
عَارِضَتْ لَفْظًا وَمَعْنَى وَخَلَى قَوْلَ مَنْ أَنْطَقَهُ الْحُبُّ فَقَالَ:

«هَلْ دَرَى ظِيُّ الْحِمَى أَنْ قَدْ حَمَى قَلْبَ صَبٍّ حَلَّهْ عَنْ مَكْنَسِ
فَهَوٍ فِي حَرٍّ وَخَفَقٍ مِثْلَمَا لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبَا بِالْقَبَسِ»
وَمِنْ بَرَعٍ فِي هَذَا الْفَنِّ ابْنُ زَمْرَكٍ، فَضْلًا عَنْ مَوْشِحَاتٍ فِي أَغْرَاضٍ أُخْرَى
كَالْتَهْنِئَةِ وَالْحَنِينِ إِلَى الْمَدَنِ وَالْغَزْلِ وَالشَّرَابِ، وَقَدْ مَزَجَهَا بِالْمَدِيحِ.

الرثاء

وَمِنْ نَظْمُوا فِي الرِّثَاءِ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ حَزْمُونَ الَّذِي عَاشَ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ
السَّادِسِ وَأَوَائِلِ الْقَرْنِ السَّابِعِ. وَذَلِكَ فِي رِثَاءِ أَبِي الْحَمَلَاتِ قَائِدِ الْأَعْنَةِ بِيْلَنْسِيَّةٍ وَقَدْ
قَتَلَهُ نَصَارَى إِسْبَانِيَا⁽¹⁾.

يَا عَيْنُ بَكِّي السَّرَاجَ الْأَزْهَرَا النَّيِّرَا اللَّامِعَ
وَكُنْ نَعَمَ الرِّتَاجَ فَكْسَرَا كِي تَنْشُرَا مَدَامِعَ

مَنْ آلَ سَعْدٍ أَغْرَ مِثْلُ الشَّهَابِ الْمُتَّقِدِ
بَكَّى جَمِيعُ الْبَشَرِ عَلَيْهِ لَمَّا أَنْ فَقِدَ

(1) المغرب، ص 217 و213.

والمشرفي الذِّكْرُ	والسمهري المطرِدُ
شقَّ الصَّفوفَ وكَرَّ	على العدوِّ مُتَّسِدُ
لو أنه مُنْعَاجٌ على الوري	من الثَّرى أو راجِعُ
عادت لنا الأفراج بلا افترا	ولا امـتـرا تُضـاجع

نضاً لباسَ الزُّرْدِ	وخاضَ موجَ الفيلقِ
ولم يرْغُهُ عَدْدُ	ذاكَ الخُمَيسُ الأزرقِ
والخورُ تلثمَ خَدَّ	أديمه الممـزقِ
وكان ذاك الأسـدُ	في كلِّ خيلٍ يلتقي
إذا رأى الأعـلاجَ وكبُر	ثم انـبرى يُماصع
رأيـتهم كالـدجاجِ مُنْفَرَا	وسط العـرا الواسع

جالتْ بتلك الفُجوج	تحت العَجَاجِ الأكدرِ
خيـولهم في بُـروج	من الحديدِ الأخضرِ
يا قُفْلَ تلك الفُروج	وليتـه لم يـكـسرِ
جعلتْ أرض العلـوج	مجرى الجيادِ الضمـرِ
سلكتْ منها فجاجَ فلا ترى	إلا القـرى بلا قـمع
والخيلُ تحت العجاج لها انبرا	وللبـرى قـعـاقع

عهدي بتلك الجهات	أبى الهوى أن أحصيه
يا حاديَ الركبِ هات	حدّثْ لنا بمرسـيه
أودى أبو الحـمـلات	يا ويـهـها بـلـنـسيه

في طاعة الله مات حاشا له أن يعصية
 مضى بنفسه ثجاج مُصبرا مُصطبرا وطائع
 وباعها في الهياج لقد درى درى ماذا اشترى البائع
 ماء المدامع صاب عليك أولى أن يجود
 سقى البرية صاب رزء أحلك اللحود
 فكل خلق أصاب إلا النصارى واليهود
 ناديت فلما مُصاب يُجري على الميت العهد
 يا قلبي المهتاج ئصبرا زان الثرى مُدافع
 ابن أبي الحجاج فهل ترى لما جرى مُدافع
 وهي مرثية تفتقر إلى العاطفة الصادقة، إذ صاغها في قوالب أنشئت أصلاً
 للبهجة والفرح والغناء والقصف والشراب⁽¹⁾

التصوف

ومن الموضوعات التي طوعها الوشاحون التصوف، وموشحات التصوف تُبنى
 على موضوع واحد، وهذا أمر طبيعي، إذ لا يمكن أن تتضمن هذه الموشحة غير
 موضوعها، الذي يركز على الرمز. ومن برع فيها محيي الدين بن عربي (-638هـ)،
 وأبو الحسن علي بن عبد الله الششتري الذي عاش في القرن السابع الهجري وفي ما
 يلي جزء من موشحة الششتري، وهي من الأقرب لخلوها من المطلع (المذهب) وتحمل
 في ثناياها بعض مصطلحات الصوفية، وتعبيراتهم:

الحمد لله على ما دنا
 من السرور والهنا والمنى
 فقل لـواش وشى بيننا

(1) ديوان الششتري، ص 252-254.

قد ذهب البؤسُ وزال العَناءُ وواصلَ الخِلُّ ونلنا المنى

وزار من كنتُ له شائفا
وأصبح السَّمْلُ به مُوقفا
وروض أنسى مُنعماً مُورقاً
وطابتِ الخلوةُ عند اللِّقا ودار كأسُ الوصل ما بيننا

في حضرة القُدسِ لدى موثلي
وسَيدي مُنادمي مُواصلي
يمزجُ لي من خمرةِ الأول
حتى إذا أسكرني قال لي: اشربْ شرابَ الأُنس من قُربنا

قلت له: مولاي مَنْ يغتدِ
بهذه الحمرة لم يهتدِ
فقال لي: لا والهوى، فابتدِ
قلت: من الساقى؟ فقال: الذي قال لموسى على الطور: أنا

أما اهتديت بالسُّنا اللائح
والنار للمَقْتَبس اللامح
حتى نظرتَ نظرةَ الكاشح؟
يا مُدَّعي الحب... أما تستحي تنظر بالعين إلى غيرنا؟

يا فانياً... لو كنت لي عاشقاً
لم تُبصر إلا الواحد الخالق
فاسمع كلاماً مُبغى فائقاً

المبحث الثاني

الزجل

وهو من فنون الشعر المستحدثة في الأندلس، التي ظهرت بعد الموشحات في وقت متأخر ويرجع ابن خلدون ذلك بقوله: «ولما شاع فنّ التوشيح في اهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وتصريح أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيه إعراباً واستحدثوا فناً سموه الزَّجَل⁽¹⁾».

والزجل شعر منظوم بالعامية يتلاءم مع رغبات العامة ومن لا يجيدون العربية من أبناء البلاد وملوك البربر. وآية ذلك أنّ المعتمد بن عباد «كان قد شجّع بعض الشعراء لكي يمدحوا يوسف بن تاشفين فلما انتهوا من الإنشاد قال المعتمد لابن تاشفين: أيعلم أمير المسلمين ما قالوه؟ قال: لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز، ولما انصرف ابن تاشفين إلى حاضرة ملّكه بشمال أفريقية، كتب له المعتمد رسالة تضمّنت بيتين من نونية ابن زيدون هما:

بنتم وبنا فما ابتلت جواغحنا شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا
حالت لفقدكم أيامنا فعُدت سُوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا

فلما قرئ البيتان على ابن تاشفين قال للقارئ: يطلب مني جوارى سوداً وبيضاً، فأجابه القارئ لا يا مولانا، ما أراد إلا أنّ ليله كان بقرب أمير المسلمين نهراً لأن ليالي السرور بيض، فعاد نهاره ببعده ليلاً لأن ليالي الحزن ليال سود، فقال: والله جيد، اكتب له في جوابه: إنّ دموعنا تجري عليه، ورؤوسنا توجعنا من بعده⁽²⁾».

ويدل هذا الكلام الطريف على انقسام اللغة العربية بين لغة خاصة وهي لغة النخبة من المثقفين ولهجة دارجة سادت على ألسنة العامة- في الحواضر أولاً ثم انتقلت إلى البادية في عهد متأخر- ويرى إحسان عباس أن تكون الحاجة الشعبية إلى الغناء،

(1) مقدمة ابن خلدون، 3/ 404.

(2) فضائل الأندلس وأهلها، ص 33 (رسالة الشقندي).

هي السبب المباشر في نشأة الموشحات فضلاً عن التأثير بالأغنيات الشعبية الأعجمية الشائعة يومئذٍ في الأندلس⁽¹⁾.

وقد تطور الزجل الأندلسي ومرّ بخمسة أدوار: ففي الدور الأول ارنبطت نشأة الزجل بالأغاني الشعبية العامية التي لا تنسب إلى مؤلف بعينه، وإنما شاعت على ألسنة الناس منذ أواخر القرن الثالث. كانوا يتغنّون بها فرادى وجماعات. وفي الدور الثاني ظهرت في القرن الخامس جماعه من الشعراء اصطنعت الزجل، سمّاهم ابن قزمان في مقدمة ديوانه «المتقدّمين» واتهمهم بالتقصير في زجلهم إذ يقول: «وهم لا يعرفون الطريق، ويدرون القبله ويمشون في التغريب والتشريق، يأتون بمعانٍ باردة وأغراض شاردة، وألفاظ شياطينها غير ماردة، وبالإعراب وهو أقبح ما يكون في الزجل..»⁽²⁾، ولكنه يستثني واحداً من هؤلاء الزجالين هو الشيخ أخطل بن نمارة، وذلك لسلاسة طبعه، وإشراق معانيه، وتصرفه بأقسام الزجل وقوافيه. وفي الدور الثالث يلقانا عدد من زجالي القرن السادس الهجري ذكرهم ابن خلدون في مقدمته: على رأسهم ابن قزمان الذي يُعدّ إمام الزجالين على الإطلاق الذي شهد عصر دولة المرابطين، وقد أعطى الزجل شكله النهائي⁽³⁾.

وفي الدور الرابع يطلُّ علينا أحمد بن الحاج المعروف بإسم مدغليس، فنراه يجمع في أزجاله بين القصائد الزجلية والأزجال الحرة المطلقة من إسار الشكل التقليدي، وقد ذكره المقرّي في كتابه نفح الطيب بقوله: «كان مدغليس هذا مشهوراً بالانطباع والصنعة في الأزجال، خليفة ابن قزمان في زمانه، وفيه يقول أهل الأندلس: ابن قزمان في الزجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء، ومدغليس بمزلة أبي تمام، بالنظر إلى الانطباع والصناعة، فابن قزمان مُلتفت إلى المعنى، ومدغليس مُلتفت إلى اللفظ، وكان أديباً معرباً لكلامه مثل ابن قزمان، ولكنه لما رأى نفسه في الزجل اقتصر عليه»⁽⁴⁾.

(1) انظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص 205.

(2) الزجل الأندلسي، ص 52.

(3) هو أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الله بن قزمان، ولد حوالي سنة 480هـ، وتوفي سنة 554هـ. كان مقبلاً على اللذات. كان في أول نشأته مشغلاً بالنظم المعرب، ولم يلبث أن عمد إلى الزجل.

(4) نفح الطيب، 4/ 356.

ويلقانا في هذا الدور أيضا زجالون آخرون، منهم: ابن الزيات، وابن جُحدر الإشبيلي (638هـ)، وأبو علي الحسن بن أبي نصر الدباغ وغيرهم، ولكنهم من كثرتهم لم يُرَزقوا موهبة فنية كابن قزمان أو مدغليس، ولعل ذلك يرجع إلى «أن بواذر مأساة الأندلس الكبرى كانت قد بدأت تلوح بالأفق، بتساقط المدن الأندلسية في أيدي الإسبان، فشغل الناس أكثر بهذا الخطر الداهم عن كل شيء آخر⁽¹⁾».

ومع نهاية هذا الدور في القرن السابع الهجري الذي اشتدت فيه مأساة الأندلس تزدهر الموشحة الصوفية على أيدي ابن عربي (-638هـ) الذي حمله معه إلى المشرق العربي، وابن سبعين وتلميذه أبي الحسن الششتري (688هـ). ولا شك في أن التصوف يولد في رحم المآسي والنكبات التي تصيب الأمة، فقد أخذت جماعات الصوفية تمشي في الأسواق وتتغنى بأزجال الششتري وغيره من شعراء الصوفية.

أما الدور الخامس والأخير في تطور الزجل الأندلسي فكان في المائة الثامنة، ومن أبرز الزجالين الذين ذكرهم ابن خلدون في مقدمته: الوزير لسان الدين بن الخطيب، وشهد له بأنه إمام النظم والنثر، وأورد من محاسن أزجاله ثلاث مقطوعات قصيرة. ثم يذكر معاصره محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آش، وكان إماماً في هذه الطريقة الزجلية لهذا العهد، ويذكر أيضاً أبا عبد الله اللوشي ويورد له قصيدة زجلية طويلة⁽²⁾.

وختلاصة القول، فقد تطور الزجل في الأندلس ومرّ في خمسة أدوار متميزة هي : دور الأغنية الشعبية، فدور الزجالين قبل ابن قزمان، فدور زجالي القرن السادس وفي مقدمتهم ابن قزمان، فدور زجالي القرن السابع وفي مقدمتهم مدغليس، فدور زجالي القرن الثامن وفي مقدمتهم لسان الدين بن الخطيب، ولا شك في أن الزجل وُلد في أحضان الأغنية الشعبية وأن الصلة بينهما ظلت تتراوح بين مدّ وجزر.

(1) عبد العزيز عتيق، الادب العربي في الأندلس، ص 400.

(2) انظر: مقدمة ابن خلدون، ص 1156-1160.

البناء الفني للزجل

تعد قصيدة الزجل الصورة الأولى لهذا الفن، وهي تتفق في بنائها الفني مع القصيدة التقليدية سواء في الوزن أو القافية أو التصريع، ولا تختلف عنها في شيء غير اللحن والإعراب واللغة. وتحدث صفى الدين الحلبي عن ذلك بقوله: «وأول ما نظموا الأزجال جعلوها قصائد مُقَصَّدة، وأبياتاً مجردة في أبحر العرب، بقافية واحدة كالعريض، لا تُغايِره بغير اللفظ، وسمّوها القصائد الزجلية⁽¹⁾» - وذهب ابن خلدون إلى أن الزجّالين نظموا بلغتهم العامية في سائر البحور وسمّوه الشعر الزجلي، وتدور الأزجال حول الموضوعات المعروفة في الشعر التقليدي من مديح وغزل ورثاء وهجاء، ولا تخلو من الأساليب البيانية كالتشبيه والمجاز.

وكذلك تتفق الأزجال مع الموشحات في الأجزاء الرئيسة التي تبنى عليها من مطلع وأغصان وأسماط وأقفال وأدوار وخرجة، وإذا كانت الخرجة في الموشح عامية أو أعجمية وتشير إلى ختام الموشح فإنّ الزجل عامي كله وقد تخالطه ألفاظ أعجمية، وتأتي حركة الختام بحكمة يستمدّها الزجال من الكلام الفصيح مثل:

لا نـسـيت إذا زارنـسـي حـبـي
وانجلـسـى همـسـي وزال كـربـي
قـلـت لـه وقـتـا أخـذ قـلـي
قل متى تجين: قال غداً «وغداً للناظرين قريب»

وإذا كان الزجل في المديح أو الغزل ظهرت خاتمته بأن يعلن الزجال أن زجله قد انتهى وجاء مليحاً. وتعرف الخاتمة في الرثاء من طبيعة الدعاء الختامي.

فنون الزجل

تعددت فنون الزجل الأندلسي، مثله مثل القصيدة العربية، فبدأت ذي بدء اقتصر على الغزل واللهو والمجون، ثم أخذ يتناول فنون الشعر الأخرى من مديح وهجاء ورثاء وفخر وزهد ووصف. ولم يلبث أن راجت سوقه إبان حكم المرابطين

(1) كتاب العاقل الحالي، ص 17 و 18.

الذين لم يفهموا العربية الفصيحة، بل اقتصر فهمهم على الأزجال لسهولة وإغراقها في العامة.

ونورد في ما يلي نماذج على مختلف هذه الفنون.

1. الغزل

ومن الأزجال الغزلية، زجل لابن قُزمان يقول فيه⁽¹⁾:

هَجَرْنَ حَبِيبِي هَجْرُ وَأَنَا لَسْتُ⁽²⁾ لِي بَعْدَ صَبْرُ

لَسْتُ حَبِيبِي إِلَّا وَدُود قَطَعُ لِي قَمِيصَ مَنْ صُدُود
وَحَاطَ بِنَقْضِ الْعَهْدِ وَحَبَّبَ إِلَيَّ السَّهْرُ

كَانَ الْكُسْتَبَانُ مِنْ شَجُون وَالْإِبْرُ مِنْ سِهَامِ الْجَفُونُ
وَكَانَ الْمَقْصُ الْمُنُونُ وَالْخَيْطُ الْقَضَا وَالْقُدْرُ

رَأَى قَلْبِي هَذَا الْحَال مَضَى لِحَبِيبِي وَقَالَ:
عَسَى ثُمَّ طَوَيْشِرُ وَصَال وَإِنْ كَانَ لِحَدِّ الدَّوَرِ

تَكُونُ الطَّرُورُ مِنْ وِدَاد وَاللُّوزَا مِنْ الْإِعْتِقَادِ
وَالْكَابَّةُ لَذِيذِ الرِّقَادِ فَلَمْ نَرْقُدِ الْيَوْمَ شَهْرَ

وقد يمتزج الغزل في بعض الأزجال بوصف الخمر والتعلق بها، ومنه زجل لأبي بكر الحصاد يقول فيه⁽³⁾.

الَّذِي يَعِشُّ مَلِيحُ وَالَّذِي يَشْرَبُ عَتِيقُ

(1) لش: بمعنى لماذا؟

(2) لس: ليس.

(3) المغرب، ج 1 ص 279، وكلمة مجل أو بحال: بمعنى مثل أو شبيه.

الملّيح أبيضُ سمينُ والشراب أصفر رقيقُ
لا شراب إلا قديم لا مליح إلا وصول
إذ تقول روحك يزيد لئن تخالف ما تقول؟
والدنان كل يوم لا ملول ولا بجيل
من زيارة بعد قد رجوع بجل صديق

2. وصف الطبيعة

شارك الزجالون في وصف الطبيعة الأندلسية، واقتفوا أثر الشعراء والوشاحين في هذا الفن. ومن أرقّ أزجالهم التي دارت حول وصف الطبيعة الأندلسية الجميلة زجل رقيق لمدغليس بما فيه من تصوير لمحاسن الطبيعة ومفاتها، ومنه قوله⁽¹⁾:

ثلاث اشيا فالبساتين لئن تجذ في كل موضع
النسيم والخضر والطير شيم واتنزه واسمع
قم ترى النسيم يولول والطيور عليه تغرّد
والثمار تنثر جواهر في بساط من الزمرد
شبهت بالسيف لما شفت الغدير مدرع
وراذاً دق ينزل وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر والغصون ثرقص وتطرب
وتريد تحيي إلينا ثم تستحي وترجع
وجوار يحل حور العين في رياض تشبه لجنا
وعشية قصيرا تنظر الخلع تجنا
لئن تريد نفارقوها وهي تحمل طاقا عنا

(1) المغرب، 2/ 220 و221.

وكانَ الشَّمسَ فيها وجِهَ عاشقٍ إذ يودّع
إستمع أمرَ الحُسْنِ كِفَ تلهمك إلى الخلاءِ
بنغم تَرْدُ الأشياخ للمجـون وللرقاعِ
غرَّدت من غدوٍ لَّيْل وما كرَّرت صِناعا
يسمع الخليع غناها ويُحسِّنُ قلب يخلع

ومن المؤلف أن يمتزج شعر الطبيعة بوصف مجالس اللهو والشراب والعشق.
وقد أكثر ابن قزمان من القول في الطبيعة والخمر، في مثل قوله (1):

والثمار تنثر حليَّه بثيابٍ بحلّ زبرجد
والرياض تلبس غلالا من نبات فحلّ زمرد
والبهار مع البنفسج يا جمال أبيض في أزرق
والندى والخير والآس والراح والظلّ والماء
والمليح خلطى مهاوذ والرقيب أصمّ أعمى
وزمير من فم ساحر وغنا من كف سلمى
والزجاج مِلح مُجَزَّع والشراب أصفر مروّق
يا شراباً مُرّ ما احلاك علقم اتّ ممزوج بسكر
بالذي رَزَقْنِ حَبَّكَ من تُكْرُ عليك جوهر
وترى لشّ تشتكي ضُرّ لشّ نراك رقيق أصفر
ما اظن إلا ألم بيك أو مليخ لاشك تعشق
ذا الطريق تعجبين يا قوم ما أملح وما أجَلّ
أي نبل أقل لـ خليه وسمع مما أقل

يا صديقي لَسْنُ نَرَاعَ يا صديقي لَسْنُ نَمِلْ
 قل لي كَيْفَ نَتْرَكَ ذَا الْأَشْيَا قِصَّةً حَقِيقَةً بِالْحَقِّ

3. المديح

ويمتزج غالبا بموضوع آخر، كالغزل ووصف الطبيعة والشراب. وقد عُرف مدغليس بهذا الفن. وقد بينى الزجل على المدح وحده، على نحو ما يلقانا ابن قزمان في زجل يمدح فيه القاضي ابن الحاج، إذ يقول:

وصل المظلومَ لَحَقُّ وانتصف غني ومسكين
 يحضر الإنكار والإقرار ويقع الفصل فالحين
 اجتمع فيه الثلاثة: الورع والعلم والدين
 فيزول الحقّ إذا زال ويدوم الحق إذا دام

وترى طالبٌ ومطلوب لَسْنُ ترى زُوازَ وجُلّاسَ
 إلّا إن كانت ضرورة كلمة كلمتين فلا باسَ
 مُرأت يا قاضي الجماعة جزاك الله خيرَ عن النَّاسِ
 إن مُذْ كنت أت حاكم عرفت شروط الأحكام

أيّ نهارَ نراك في دارك وأت قد جلست للناسِ
 والخصام يعطي ويمنع والزحام وحرّ الأنفاسِ

4. الهجاء

وقد أسرف الزجالون في أهاجيهم، وحشدوا فيها الألفاظ العامية المتبدلة، وكذلك مال بعضهم إلى الهجاء الفكاهي الساخر، في مثل زجل أبي علي الدباغ في هجاء طبيب.

إن ريت من عدّاك يشتكي من تلطيخ
 وتريد أن يقبر أحمل للمريخ
 قد حلف ملك الموت بجمع إيمان
 ألا يبرح ساعة من جوار دكان
 ويريح روح ويعظّم شأن
 وفساد النّيا تحت ذاك التّوبيخ
 بقياس الفاسد وبدين الحمروج
 يخذ الصفراوي ويردّ مفلوج
 ويحيل الحموم على أكل البطيخ
 وغني إن طب فيرد يسعى
 والمنى يطلق في مروج ثرعى
 يسقي ما يسقيه يحتبس في الأمعا
 احتباس أيدي العار بجبال التّوبيخ
 قوة تنفّس من عطاء تنقيّا
 ويرى أكباده في الطّيسين مرميا
 تنبري أنباط وتقع ملوينا
 مثل شعر العانّا إن خلّق بالزنيخ
 وشراب المدوح مثل سكر ذبّاح
 فالزجاج يتقلّط لخروج الأرواح

5. الطرف والملح

وللطرف والملح نصيب في الزجل الأندلسي، ذلك أنها تروى بالعامية القريبة إلى نفوس عامة الناس، وقد أكثر الزجالون منها. ولابن قزمان زجل طريف في كبش العيد، وفيه يقول:

حببي كبش العيد أنا حريفك⁽¹⁾
 لَسْ تَصْطَحِي تَنْفَرُ؟ ارحم ضعيفك
 إش حال جبينك إش حال صديفك
 اش حال شوايانك اش حال قديدك

من يراني ثالث العيد وأنا نقطع ونشوي
 وترى كبش معلق والقطيطس تحت يعوي
 وأنا عريان في السروال أو في منديل خبز ملوي
 وأنا نصنهل ان عرس ماعي أو عقيقه

6. التصوف

وقد ظهرت نزعة التصوف في الأندلس في القرن السابع الهجري، إذ أخذت الإمارات العربية تنهأ وتساقت في أيدي الإسبان، وبرع في الأزجال الصوفية ابن عربي، وابن سبعين، وتلميذه الششتري. ومن أزجاله في التصوف قوله:

لله هـاموا الرجال في حُبِّ الحبيب
 الله الله معي حاضر في قلبي قريب
 إذ لى يا قلبي وافرَحَ حبيبك حَضَرَ

(1) حريفك أي معاملك، تصطحي تستحي، صديفك أي سديفك يعني اللحم. منديل الخبز ملاءة يغطي بها العجيين في ذهابه إلى الأفران، القطيطس القط.

واتنعمُ بذكر مولاك وقص الأثر
واتهنئ وعش مدلل بين البشر
دعوني دعوني نذكر حبيبي بذكر ونظيبي
الله الله معي حاضر في قلبي قريبي

أش نعمل في ذي القضا وأنا عبدكم
تراني نخلع عذاري على حبيكم
وروحى وأش ما بقي لي نهبة لكم
إسمعوا إسمعوا يا أهل الحجة حبيب مجيب
الله الله معي حاضر في قلبي قريبي

من وهب روحه لمولاه ربّح وانتفع
ومنه للسُّلم العالي طلّع وارتفع
وخلاصة القول، فقد كان الزجل فنا أندلسيا، وقد ذاع في أنحاء الأندلس، عبّر
به الزجالون عن واقع الشعب، أفراحه وأحزانه، وعمد إليه المغنون، وبشوا فيه
إيقاعاتهم الموسيقية. مما أكسبه صفة الشعبية.
ولا شك في أن الزجل انتقل من الأندلس إلى المشرق العربي، وظهر في كثير من
البلدان العربية ومصر والشام على وجه الخصوص، إذ أقبل عليه الملحنون والمغنون،
وفضّله كثير منهم على الشعر الفصيح.

الأغراض الشعرية الموسعة

المبحث الأول: رثاء المدن والإمارات والأندلس

المبحث الثاني: شعر الحنين

المبحث الثالث: الشعر التعليمي

المبحث الرابع: شعر الاستغاثة

الفصل الخامس الأغراض الشعرية الموسعة

المبحث الأول

رثاء المدن والإمارات والأندلس

عاش العرب في الأندلس ثمانية قرون، تمتد من فتحها على أيدي المسلمين بقيادة طارق بن زياد سنة 92هـ / 711م، حتى رحيل آخر ملك مسلم عن قصر الحمراء سنة 897هـ / 1492م. فكانت قصة رثاء الأندلس ومدنها وإماراتها مسيرة شعرية حزينة تدمي القلوب.

وقد قال شعراء المشرق في رثاء المدن، إذ رثى الحُريري (-240هـ) بغداد حين نُكبت أيام الفتنة بين الأمين والمأمون، بمطوِّلة مطلعها:

قالوا ولم يلعب الزمان بيبغ — دداد وتعثربها عواثرها

وكذلك رثى ابن الرومي مدينة البصرة عندما أغار عليها الزنج سنة (255هـ)، فاستباحوا الأموال والحُرُمات، ومطلعها: ⁽¹⁾

ذادَ عن مقلتي لذية المنام شُغلها عنه بالدموع السجّام

ولكن المشاركة لم يتوسَّعوا في هذا الفن، على نحو ما نجده عند الأندلسيين، ومما جعله فنا قائما بذاته في الشعر الأندلسي، أنهم رأوا مدنها وممالكهم تسقط واحدة تلو الأخرى في أيدي الإسبان وغير الإسبان ممن قدموا من شمالي إفريقية كالمرابطين والموحدين.

فأشجّاهم ذلك وبكوها بكاءً يمزق نياط القلوب، ويتوزع شعر المأساة الأندلسي على ثلاثة اتجاهات هي: رثاء المدن، فرثاء الإمارات، فرثاء الأندلس كلها.

(1) ديوان ابن الرومي، 6 / 2377.

1. رثاء المدن الذّاهية

ذكر صاحب «نفع الطيب» أن أولى المدن الإسلامية التي وقعت في أيدي الإفرنج هي طليطلة، فقد تم الاستيلاء عليها في منتصف محرم سنة (478هـ). ومن المخجل أن تسقط هذه المدينة وحاكمها القادر بالله ابن يحيى ذي النون وبيده اضطراب ينظر فيه ليحدّد الوقت الذي يرحل فيه⁽¹⁾.

وكان سقوطها في أيدي الإفرنج صدمة كبرى هزت نفوس الأندلسيين هزاً عنيفاً. وقد رثاها بعض شعرائهم بقصيدة طويلة مطلعها⁽²⁾:

لثكلك كيف تبتسمُ الثغورُ سروراً بعدما يئستُ ثغور

ومنها:

طُليطلةُ أباحَ الكفرُ منها	جماها إن ذا نبأ كبيرُ
فليس مثالها إيوانُ كسرى	ولا منها الخورنقُ والسديرُ
ألم تكُ معقلاً للدين صعباً	فذلك كما شاء القديرُ
وكانت دار إيمانٍ وعلمٍ	معالمها التي طُمستُ تنيرُ
فعادتُ دار كُفرٍ مُصطفاةٍ	قد اضطربتُ بأهلها الأمورُ

ويعضي فيعلل أسباب سقوطها، ومنها فساد الحكم، وانتشار الظلم والجور والمصادرات، واقتراف المعاصي والتقصير في مواجهة العدو، فيقول:

أنامل أن يحلّ بنا انتقامُ	وفينا الفسقُ أجمعُ والفجورُ؟
وأكلٌ للحرام ولا اضطرارُ	إليه؟ فيسهلُ الأمر العسيرُ
نخورُ إذا ذهينا بالرزايا	وليس بمعجبٍ بقرٍ يخورُ

ولم يبق أمامه سوى الدعاء، فيقول:

ونرجو أن يُتيح الله نصراً	عليهم، إنه نعم النصيرُ
---------------------------	------------------------

(1) انظر: نفع الطيب، 6 / 189.

(2) م. ن، 6 / 228-232.

ومن مرثي المدن أيضاً ما قاله الشعراء في رثاء مدينة بلنسية التي سقطت في أيدي الأعداء سنة (488هـ)، بعد حصار دام عشرين شهراً، وظلت محتلة حتى استعادها يوسف بن تاشفين سنة (495هـ). ثم سقطت ثانية في حدود سنة (636هـ) بعد حصار طويل.

وقد رثاها شاعرها وابنها ابن خفاجة حين سقطت أول مرة، بقوله⁽¹⁾:

عائتُ بساحتك العدا يا دارُ ومحا محاسنك البلى والنارُ
فلإذا تردّد في جنابك ناظرٌ طالَ اعتبارُ فيك واستعبارُ
أرضٌ تقاذفتِ الخطوبُ بأهلها وتمخّضتِ بخرابها الأقدارُ
كُتبتْ يدُ الحداثِ في عرصاتِها لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ

2. رثاء الإمارات

رثى الشاعر الأندلسي الإمارات والممالك، التي سقطت على أيدي المرابطين، ومن ذلك دالية ابن اللبانة التي رثى بها بني عباد ومملكتهم التي قامت في إشبيلية سنة (426هـ)، وامتد سلطانها في عهد عباد بن محمد المعروف بالمعتضد، وخلفه ابنه المعتمد بن عباد بطل معركة الزلاقة، واجتمع في بلاطه نوابغ الشعر الأندلسي.

ولم تلبث أن سقطت دولتهم على يد ابن تاشفين وحُمل المعتمد إلى أغمات في المغرب سنة (484هـ)، ثم مات في سجنه سنة (488هـ).

وللوزير ابن اللبانة قصيدة طويلة في رثاء بني عباد ومملكتهم، ومنها قوله⁽²⁾:

تبكي السماءُ بدمعٍ رائحٍ غادي على البهاليلِ من أبناءِ عبادِ
على الجبال التي هُدّت قواعِدها وكانت الأرضُ منهم ذات أوتادِ
يا ضيفُ أقرَ بيتُ المكرّاتِ فخذُ في ضمِّ رحلكَ واجمعِ فضلةَ الزادِ
ويا مؤمِّلَ واديهُم ليسكنهُ خفَّ القطينُ وجفَّ الزرعُ بالوادي

(1) نفح الطيب، 6/ 199.

(2) المراكشي، المعجب، ص 148 و 149.

ومن تلك الممالك التي سقطت على أيدي المرابطين دولة بني المظفر التي أنشأها محمد بن المتصور بن الأفطس في بطليوس وماردة وشنترين وإشبونة وتعرف اليوم بالبرتغال.

ولابن عبدون قصيدة رائية رثى بها المتوكل بن الأفطس وولديه الفضل والعباس الذين قتلوا على أيدي المرابطين سنة (489هـ). ومنها قوله⁽¹⁾:

الدهرُ يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصُّورِ؟!
أنهاكَ أنهاكَ لا آلوكَ موعظةً عن نومةٍ بين ناب الليثِ والظُّفَرِ
فلا تغرَّكَ من دنياكَ نومُها فما صناعةٌ عينيها سوى السَّهرِ
تُسِرُّ بالشَّيءِ كي تُغرِّبَهُ كالأيِّمِ ثارٍ إلى الجاني من الزُّهرِ⁽²⁾

والقصيدة طويلة، تحوي بعض الأحداث التاريخية القديمة، وما مرّ بالدول والملوك من تقلبات الزمن، وعدّد فيها مناقب بني الأفطس، من ذلك قوله:

بني المظفر والأيام ما برحت مرحلاً والورى منها على سَفَرِ
مَن للأسرةِ أو مَن للأعنةِ أو مَن للأسنةِ يهديها إلى الثُّغرِ
مَن للبراعةِ أو مَن للبراعةِ أو مَن للسماحةِ أو للنَّفْعِ والضَّرَرِ
ويحَ السِّماحِ ويحَ البأسِ لو سلما وحسرةُ الدين والدنيا على عَمَرِ
سقتُ ثرى الفضل والعباسِ هاميةً تُعزى إليهم سماحاً لا إلى المطرِ

ومن أشاد بهذه المروية عبد الواحد المراكشي، بقوله: «فجلّت عن أن تُسامى، وأنفت من أن تُضاهى، فقلّلها النظير، وكثر إليها المشير⁽³⁾».

(1) فوات الوفيات، 2/ 19.

(2) الأيِّم: الحية الذكر.

(3) انظر: المعجب، ص 150.

ولعلّ هذا الإعجاب ينبع من حزن الأندلسيين بعامة والشعراء بخاصة على أفول هاتين الإمارتين، إمارة بني عباد وإمارة بني المظفر.

ثم كانت الهجمة الثانية على بلنسية، فاستصرخ أميرها ابن مردنيش بأبي زكريا عبد الواحد بن حفص صاحب إفريقية، وأرسل إليه ابن الأبار البلنسي الذي أنشد بين يديه قصيدته السينية المشهورة:

أدركُ بخيلِكَ خيلَ الله أندلساً إن السبيلَ إلى منجاتها درساً
ويثير حمية الملك وعاطفته الدينية، إذ يقول:

يا للمساجدِ عادتُ للعدا يبعاً وللنداء غدا أثناءها جرّساً
لَهْفِي عليها إلى استرجاعِ فاتتها مدارساً للمثاني أصبحت دُرّاً

ومن الحزن أن تسقط بلنسية بأيدي الأعداء قبل أن يدركها أي من جيوش المسلمين، إذ استولوا عليها سنة (636هـ) في زمن الموحّدين.

3. رثاء الأندلس

رثى الشعراء الأندلس بعد أن سقطت وخرج المسلمون منها، أو إبان محنة سقوط المدن والثغور، ولعل أشهر قصيدة في رثاء الأندلس هي نونية أبي البقاء الرُّندي (-684هـ)، وإن لم تكن أفضل ما قيل، من مثل سينية ابن الأبار أو رائية ابن عبدون.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه القصيدة قيلت قبل سقوط الأندلس بما يقرب من قرنين من الزمان. ولأهميتها سندّخر الحديث عنها في الفصل الثامن.

وتلقانا قصيدة رائية مجهولة النسب، نُظمت في شعبان سنة (897هـ)، وهي قصيدة طويلة. تزيد على مائة بيت. ⁽¹⁾ إذ تبدأ بالبكاء والتحسر على الأندلس وما حلّ بها من رماد، بعد أن خلت منازلها وقصورها من قاطنيها، فنسمعه يقول:

أحقا خبا من جوّ رُندة نورها وقد كُسفت بعد الشمس يدورها

(1) انظر: مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، ص 554 وما بعدها.

وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت منازلها ذات العلا وقصورها
 فيا ساكني تلك الديارِ كريمةً سقى عهدكم مُزَنٌ يصبوب غميرها
 أحقا أخلائي القضاء أبادكم؟ ودارت عليكم بالصُرُوف دهورها
 ونراه يستعرض حال المساجد والمآذن والمحراب ويستنطق المحراب والآيات
 الكريمة، ويتحسّر قائلا:

فواحسرتا كم من مساجدٍ حُوِّلَتْ وكانت إلى البيت الحرام شطورها!
 فمحراؤها يشكو لمنبرها الجوى وآياتها تشكو الفراق وسورها
 ويتناول جانباً مؤلماً هو ما لحق بالفتيات اللاتي أخذن سبايا، وما أصاب
 الأطفال من قتل أو تنصير، ويصف الأم وطفلها يذوي بين يديها، وغير ذلك من
 مشاهد مأساوية، إذ يقول:

وكم طفلةٍ حسناء فيها مصونةٌ إذا أسفرت، يسي العقولَ سفورها!
 فأضحت بأيدي الكافرين رهسبنةً وقد هُتكت بالرغم منها ستورها
 وكم من صغيرٍ مات في حجر أمه! فأكبأها حراءُ لَفَحَ هجيرها
 وكم من صغيرٍ بدّل الدهرُ دينه! وهل يتبع الشيطانُ إلا صغيرها
 وتنتهي بحثّ المسلمين على الجهاد ونصرة أهل الأندلس، وقد سيطر عليه جو
 إسلامي في اللفظ والصورة، ومن ذلك:

ألا واستعدّوا للجهاد عزائماً يلوح على ليل الوغى مُستنيرها
 بأنفسٍ صدقٍ موقناتٍ بأنها إلى الله من تحت السيوف مصيرها
 تروم إلى دار السلام عرائساً على الله في ذاك النعيم مُهورها
 والخلاصة أن الشاعر ألم بفن رثاء الدول، وترثم فيه بإيقاعات حزينة، لا تكاد
 تخرج عن نهج ابن الرومي في رثاء البصرة، سواء في استعراض المآسي أو في استنهاض
 هم المسلمين.

المبحث الثاني

شعر الحنين

فطرت النفوس على الحنين إلى الأوطان والأهل والأحباب، والدليل على ذلك قول الله تعالى: «ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم».

والحنين إلى الوطن نزعة متأصلة في النفوس، وفي أدبنا إشارات ماثورة، في مثل قول امرئ القيس:

وقد طوّفتُ في الآفاق حتى رَضِيتُ من السلامة بالإياب
وقول ابن الرومي الذي ذكر فيه العلة التي يُحِبُّ الوطنُ لأجلها:

ولي وطنٌ آليتُ ألا أبيعَه ألا أرى غيري له الدهرَ مالكا
فقد ألفتَه النفسُ حتى كأنه لها جَسَدٌ، لولاه غودرتُ هالكا⁽¹⁾

وللعرب أشعارٌ في الحنين إلى الأهل والأوطان، نكتفي منها هنا بقول الصَّمّة القشيري في الحنين إلى صاحبتِه «ريّا» وموطنه في نجد⁽²⁾:

حننتَ إلى «ريّا» ونفْسك باعدتْ مزارك من «ريّا» وشعباكُما معا
فما حُسْنُ أن تأتي الأمر طائعا وتجزع إن داعي الصَّبابةِ أسمعَا
قفا ودّعا لنجداً ومن حلّ بالحمى وقلّ لنجدٍ عندنا أن يُودّعا
بنفسي تلك الأرضُ ما أطيب الرُّبّا! وما أحسنَ المصطافَ والمتربّعا!
والأمثلة في ذلك كثيرة.

فإذا انتقانا إلى الأندلس وجدنا الشعراء يُلَمِّونَ بشعر الحنين ويتوسّعون في هذا الفن، ومرجع ذلك إلى أمرين: أولهما التقليد الذي جرى عليه الأندلسيون من الرحلة

(1) ديوان ابن الرومي، 1826/5.

(2) دلائل الإعجاز، ص33.

المطرده إلى المشرق لطلب العلم، وثانيهما: أن معظم من رحلوا من الأندلس - وما أكثرهم! - كانوا من ذوي القلوب والأقلام الشاعرة⁽¹⁾.

ويدور شعر الحنين عندهم على موضوعات متعددة، منها: الشوق إلى الأوطان، والشكوى من الغربة، والتشوق إلى الأهل، وتصوير الديار والأيام الخوالي، وإيثار الوطن على الاغتراب.

1. الشوق إلى الأوطان

فقد نزح ابن حمديس عن صقلية إلى إفريقيا سنة 471هـ وهو في سن الحداثة وصحب العرب فيها، فقال هذه الأبيات التي تصوّر شوقه وحنينه إليها، من خلال المزج بين الحنين والطبيعة:

إنني لأبسطُ للقبولِ إذا سَرَتِ خَدَيَّ وألقاها بتقبيلِ اليَدِ
وأضُمُّ أجنايَ على أنفاسِها كما تُبرِّدُ حرَّ قلبِ مُكَمَدِ
مَسَحَتْ كراقيةً عليَّ بكفِّها ونقاؤها يدُ من الزهر النَّدي
وعرفتُ في الأرواحِ مسراها كما عرفَ المريضُ طبيبه في العودِ
مالي أطيلُ إلى الديارِ تغرياً أفتتغربُ كان طالع مولدي

2. الشكوى من الغربة

عبر الشاعر الأندلسي عن آلام الغربة، فهذا أبو الحسن علي بن سعيد العنسي يرحل إلى مصر فتدركه وحشة الغربة، وتثير فيه الحنين إلى الأندلس، فنسمعه يقول⁽²⁾:

أصبحتُ أعترضُ الوجوهَ ولا أرى ما بينها وجهاً لمن أدريه
عوَدي على بَدَنِي ضلالاً بينهم حتى كَأَنِّي من بقايا النَّيِّه
ويحَ الغريبِ توخَّشتُ الحاظه في عالمِ ليسوا له بشبيه
إن عادَ لي وطني اعترفتُ بحقه إنَّ التَّغَرَّبَ ضاعَ عمري فيه

(1) انظر: عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص 273.

(2) نفح الطيب، 3/ 29.

ومن هذا المنطلق عزم على العودة إلى وطنه⁽¹⁾:

سوف أثنى راجعاً لا غرتني بعدما جربت برق خلب

ومن هذا الطراز قول أبي بكر محمد بن القاسم الحجاري، وكان قد ارتحل إلى المشرق، وأقام بجلب، وإذ أحسّ بالغربة وألم الفراق، نسمعه يقول⁽²⁾:

أين أقصى الغرب من أرض حلب أمل في الغرب موصول التعب

حن من شوق إلى أوطانه من جفاه صبره لما اغترب

يا أحبائي اسمعوا بعض الذي يتلقاه الطريد المغترب

3. التشوق إلى الأهل

ومن ذلك قول أبي بكر محمد بن زهير يتشوق ولدأ له صغيراً في إشبيلية، وهو بمراكش⁽³⁾:

ولي واحد مثل فرخ القطاة صغير تخلفت قلبي لديه

وأفردت عنه فيا وحشتي لذاك الشخيص وذاك الوجية

تشوقي وتشوقته فيكي علي وأبكي عليه

وقد تعب الشوق ما بيننا فمنه إلي ومني إليه

ويُروى انه لما قال هذه الأبيات وسمعها أمير المؤمنين يعقوب المنصور سلطان المغرب والأندلس أواخر المائة السادسة، أرسل المهندسين إلى إشبيلية، وأمرهم أن يحتاطوا علماً ببيوت ابن زهر وحارته، ثم بينوا مثلها بحضرة مراكش، ففعلوا ما أمرهم به في أقرب مدة، وفرشها بمثل فرشه، وجعل فيها مثل آلاته، ثم أمر بنقل عيال ابن زهر وأولاده وحشمه وأسبابه إلى تلك الدار، ثم احتال عليه حتى جاء إلى ذلك الموضع، فرآه أشبه شيء ببيته وحارته، فاحتار لذلك وظن أنه نائم، وأن ذلك أحلام،

(1) نفح الطيب، ص 48.

(2) م.ن، 2/ 298.

(3) م.ن، ص 17 و 18.

فقليل له: ادخل البيت الذي يشبه بيتك، فدخله، فإذا ولده الذي يتشوق إليه يلعب في البيت، فجعل له من السرور ما لا مزيد عليه، ولا يعبر عنه⁽¹⁾.

4. تصوير الديار والأيام الخوالي

فهذا المعتمد بن عباد تطوف به الذكريات على قصوره بالأندلس مثل قصر «المبارك» وقصر «الزاهي» و«الثريا» و«الوحيد»، وينشد وهو في منفاه بأغمات⁽²⁾:

بكى المبارك في إثر ابن عباد بكى على إثر غزلان وآساد
بكت ثرياه لا غمت كواكبها بمثل نوء الثريا الرائع الغادي
بكى الوحيد، بكى الزاهي وقبته والنهر والتاج كل ذلك بادي

ويلقانا الوزير أبو بكر محمد بن عمار وهو يصف وطنه مدينة شلب ويذكر بها عهد الصبا، فنسمعه يقول⁽³⁾:

كساها الحيا بُرد الشباب فإنها بلاد بها حل الشباب تمائي
ذكرت بها عهد الصبا فكأنما قد خت بنار الشوق بين الحيازم⁽⁴⁾
ليالي لا ألوي على رشد لائم عناني، ولا أثنيه عن غي هائم
أنال سُهادي من عيون نواعس واجني عذابي من غصون نواعم

5. إيثار الوطن على الاغتراب

فقد أثر بعض الشعراء البقاء في الوطن مع الفقر وشظف العيش على الاغتراب مع الغنى والسعة، على نحو ما نرى في قصيدة أبي القاسم عامر بن هاشم القرطبي الموسومة بـ «كنز الأدب»، وفيها وصف لمتنزهات قرطبة ورد على من حثوه على الاغتراب من رفاقه، وهي طويلة، ومنها⁽⁵⁾:

(1) نفح الطيب، 2 / 17 و 18.

(2) ديوان المعتمد بن عباد، ص 193-194.

(3) انظر: وفيات الأعيان، 2 / ص 7 و 8.

(4) الحيازم: جمع حيزوم، وهو الصدر.

(5) نفح الطيب، 2 / 80.

يا مَنْ يُزَيِّنْ لي التَّرحالَ عن بلدي كم ذا تُحاولُ نسلًا عند عَيْنينِ!
وأين يَعدُلُ عن أرجاءِ قرطبةٍ من شاء يظفرُ بالدنيا وبالدين؟
قُطِرَ فسيحٌ ونهرٌ ما به كَدْرٌ حَفَّتْ بِشَطْطِهِ ألفا ألفُ البساتينِ
يا ليتَ لي عُمرَ نوحٍ في إقامتها وأنَّ ماليَ فيها كنزُ قارونِ
وهكذا، فقد انحبس الحنين إلى الوطن عند الشاعر الأندلسي من خلال إحساسه
بالاغتراب سواء أكان ذلك في بلدان المشرق العربي أم في الانتقال من بلدة إلى أخرى
بالأندلس. فليس كالشعر وسيلة لبث المشاعر والأحاسيس نحو الأوطان والأهل
والأحبة.

المبحث الثالث

الشعر التعليمي

ظهرت بدايات الشعر التعليمي في العصر العباسي، وهو قصائد وأراجيز ينظم فيها الشاعر علماً من العلوم ليسهل حفظه وتذكره، كألفية الإمام محمد بن مالك في النحو، أو سيرة خليفة كأرجوزة ابن المعتز في سيرة الخليفة المعتضد.

ومن أقدم ما وصل إلينا منه، تلك الأراجيز التي نظمها أبان بن عبد الحميد، في باب الفرائض، شرح فيها أحكام الصوم والصلاة، افتتحها بقوله:

قصيدة الصيام والزكاة نقل أبان من فم الرواة

جاء فيها:

هذا كتاب الصوم وهو جامع لكل ما قامت به الشرائع

من ذلك المنزل في القرآن فضلاً على من كان ذا بيان

ومنه ما جاء على النبي من عهده المتبّع المرضي

ونظم فيه أيضاً كليلة ودمنة في نحو أربعة عشر ألف بيت.

وظل هذا الفن قائماً بعد أبان، في الشعر العربي، عند ابن المعتز في أرجوزته التاريخية التي جعلها في أربعمائة وأربعة عشر بيتاً، وقد نظمها على الرجز المزدوج، ونظر إليها بوصفها كتاباً مستقلاً في «سير الأمام أبي العباس» وإلى ذلك يشير قوله:

هذا كتاب سير الإمام مهذباً من جوهر الكلام

أعني أبا العباس خير الخلق للملك، قول عالم بالحق

قام بأمر الملك لما ضاعا وكان نهياً في الوري مشاعا

وابن دريد في مقصورته التي جعلها في مائتين وخمسين بيتاً، والتي ضمّنها ثلث المقصور في اللغة، وقد استهلّها بالنسيب مفتتحاً لها بقوله:

يا ظبية أشبه شيء بالمها ترعى الخزامى بين أشجار النقا

وانتقل الشعر التعليمي إلى الأندلس، فتفتن فيه الشعراء، ونظموا في كل علم وفن أرجوزة أو قصيدة تجمع مسائله. ومن أمثلة ذلك «ألفية ابن معطي» يحيى بن معطي الزواوي (-628هـ)، و«ألفية ابن مالك»، الإمام محمد بن عبد الله بن مالك الجباني (-672هـ)، ومنها ألفية لسان الدين بن الخطيب في الفقه، وأرجوزته المسماة «المعلومة» في الطب، وغيرها.

وسنقف عند قصائدهم وأراجيزهم التاريخية، فقد التفت إليها يحيى بن حكم الغزال (-250هـ) شاعر عبد الرحمن الأوسط بن الحكم، وله أرجوزة تاريخية نظمها في فتح الأندلس.

وظل هذا الفن ينمو عند بعض الشعراء في مقدمتهم ابن عبد ربه (-327هـ) وأبو طالب عبد الجبار، ولسان الدين الخطيب.

أما ابن عبد ربه فله أرجوزة طويلة مزدوجة تبلغ 443 بيتاً، في مغازي عبد الرحمن الناصر من سنة 301 إلى سنة 322 هجرية، ومن هذه الأرجوزة قوله في مطلعها⁽¹⁾:

أقول في أيام خير الناس ومن تحلى بالندى والباس
ومن أباد الكفر والنفاقا وشرّد الفتنة والشقاقا

ونحن في حنادس كالليل وفتنة مثل غشاء السيل
حتى تولى عابد الرحمن ذاك الأغر من بني مروان

خليفة الله الذي اصطفاه على جميع الخلق واجتباه
من معدن الوحي وبيت الحكمة وخير منسوب إلى الأئمة
ومنها قوله في أول غزاة غزاها الناصر:

ثم انتحى جيان في غزاته بعسكر يسعر من حماته

(1) العقد الفريد، 4/500.

فاستنزَلَ الوَحْشَ مِنَ الهَضَابِ كَأَنَّمَا حُطَّتْ مِنَ السَّحَابِ
فَأَذَعَنْتْ مُرَاقَهَا سِرَاعَا وَأَقْبَلَتْ حَصَوْنَهَا تُدَاعِي
لَوْلَا إِلَٰهٌ زَلَزِلَتْ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتْ مِنَ رَهْبَةٍ أَثْقَالَهَا
وافتتح الحصون حصناً حصناً وأوسع الناس جميعاً أمناً
ولم يزل حتى انتحى جياناً فلم يدغ بأرضها شيطاناً⁽¹⁾

وأما أبو طالب عبد الجبار، وهو من أهل جزيرة سُقْر، فله أرجوزة مزدوجة تاريخية، تبلغ 455 بيتاً، تحدث فيها عن خلفاء صدر الإسلام والدولة الأموية، والدولة العباسية حتى خلافة المسترشد بالله (512-529هـ).

فمن الأحداث التي أرّخها نهاية عصر الطوائف وقيام دولة المرابطين بالأندلس، إذ يقول:

ثُمَّ تَمَادَتْ هَذِهِ الطَّوَائِفُ تَخْلُفُهُمْ مِنْ آلِهِمْ خَوَالِفُ
دَائَتْ بِدَيْنِ الْجَوْرِ وَالْعُدُولِ إِذْ سُلِبَتْ عَقَائِلُ الْعُقُولِ⁽²⁾
فَأَهْمَلُوا الْبِلَادَ وَالْعِبَادَا وَعَظَّلُوا الثَّغُورَ وَالْجِهَادَا
وَاشْتَغَلَتْ أَذْهَانُهُمْ بِالْخَمْرِ وَبِالْأَغْنَانِي وَسَمَاعِ الزَّمْرِ
وَزَادَهُمْ فِي الْجَهْلِ وَالْخِذْلَانِ أَنْ ظَاهَرُوا عَصَابَةَ الصُّلْبَانِ
لِمَا طَوَتْ صُدُورُهُمْ مِنْ غَلٍّ وَلَاخْتِبَارِ الْبَعْضِ حَالَ الْكُلِّ
فَاسْتَوَلَتْ الرُّومُ عَلَى الْبِلَادِ وَاسْتَعْبَدُوا حَرَائِرَ الْعِبَادِ
وَقَتَلُوا الرِّجَالَ كَيْفَ شَاءُوا وَضَاعَ دَلْوُ الدِّينِ وَالرِّشَاءِ
وَإِذَا طَالَ الْقَوْمُ، أُسْرِى الْقَدَرُ نَحْوَهُمْ خَسَفًا وَمَا إِنَّ شَعْرُوا

(1) العقد الفريد: ج: 4 ص 500.

(2) العقائل: جمع عقيلة، وعقيلة كل شيء: أكرمه.

فلإذ أراد الله نُصر الدِّين استصرخ الناسُ ابن تاشفين
فجاءهم كالصبح في إثر الغسق مُستدرِكاً لما تبقى من رَمَق
وافى أبو يعقوبَ كالعقابِ فجرَد السيفَ عن القِرابِ
ووصل السيرَ إلى الزَّلَاقَةِ وساقه ليومها ما ساقه
لله دَرٌ مثلها من وَقَعَةٍ قامت بنصر الدِّين يوم الجمعة
وئلاً للشرك هناك عرشُهُ لم يغنِ عنه يومه أذُنُ شُهُ
فوجب الخلعُ لذي الخلاعة وصرّحوا ليوسف بالطاعة
وأتصل الأمر على نظام وامتد ظلّ الله للإسلام
وأما لسان الدين بن الخطيب فله أرجوزة تاريخية في تاريخ دول الإسلام،
أوردها في كتابه «رقم الحُلل في نظم الدول» وقد ابتدأه بقوله:
الحمد لله الذي لا يُنكرُهُ مَن سرّحت بالكائنات فِكرُهُ
ومنه قوله في الوليد بن يزيد:
ثم الوليدُ بنُ يزيدَ العائثُ قد ثَقِلْتُ من فِعله خبائث
وفي آخر دولة بني أمية قوله:
وصار قصر المُلِك من أُميَّة أقفر ربعاً من ديار مَيَّة
وفي محمد الأمين بن الرشيد:
باعَ العُلا بشادنٍ وكاسٍ وصُحبةَ الشيخ أبي نُواسٍ
وفي المعتصم بن الرشيد:
وهو الذي تَألَّف الأتراكا فنصبوا لقومه الأشرَكا
وفي الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل:
حتى إذا الدهر عليه احتكما قام بها ابنه المسمَى حَكَمَا
واستشعر الثورةَ فيها وانقبضُ مُستوحشاً كالليث أفعى وربَّضُ

وكان جباراً بعيدَ الهمة لم يَزْعَ من آلِ بها أو ذمّة
وفي أسباب فساد الحكم والسلطان:
ويفسدُ الملك بالاحتجاب كذاك بالزهو والإعجاب⁽¹⁾

(1) نفح الطيب: ج 9 ص 307، انظر كذلك الإحاطة في أخبار غرناطة: ص 490.

المبحث الرابع

شعر الاستغاثة

من الموضوعات التي توسع فيها شعراء الأندلس شعر الاستغاثة، وهو موضوع استحدثه ابن الرومي من واقع المأساة التي حلت بالبصرة سنة 258هـ / 72م على أيدي الزنج، الذين قاد ثورتهم علي بن محمد الورزني في عهد الخليفة المعتمد، فقد صوّر اجتياح المدينة، ثم تحدّث عن معالم النكبة التي حلّت بها، واختتمها باستنهاض عزائم المسلمين، وحثهم على الجهاد والوقوف إلى جانب المدينة المنكوبة، فيقول⁽¹⁾:

انفروا أيها الكرامُ خفافاً وثقالاً إلى العبيد الطغام
ويدعوهم إلى طلب الجنة، وشراء الباقيات الصالحات بعرض الدنيا الزائل، فيقول:
لا تطيلوا المقام عن جنة الخلد — د في غير دار مقام
فاشتروا الباقيات بالعرض الأد — نى ويبيعوا انقطاعه بالدوام

وإذ استولى الفرنجة على القدس في الثالث والعشرين من شعبان سنة 492هـ، ارتبكوا مذبحه فظيعة، ولما وصلت أخبارها إلى دمشق، توجه وفد منها بصحبة قاضيها زين الدين أبي أسعد الهروي (-519هـ) إلى بغداد، لطلب النصرة، وأنشدت قصيدة تنسب إلى أبي المظفر الأبيوردي ومنها قوله:

دعوناكم والحربُ ترنو ملحةً إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقبُ فينا غارةً عربيةً تُطيل عليها الرومُ عضّ الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه رُمينا إلى أعدائنا بالجرائم

ومن الأسف أن هذه الاستغاثة لم تلامس نخوة المعتمد، فقد قال التاريخ: ولكن القاضي ورفقته عادوا من بغداد إلى الشام بغير نجدة، ولا قوة إلا بالله⁽²⁾:

(1) ديوان ابن الرومي، 6/ 2382.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 5/ 152.

وقال شهاب الدين يعقوب بن المجاور في وقوع بين المقدس مرة أخرى بأيدي الفرنجة سنة 626هـ⁽¹⁾:

لتبك على القدس البلاد بأسرها وتعلن بالأحزان والتّرحات
لتبك عليها مكّة فهّي اختها وتشكو الذي لاقت إلى عرفات
لتبك على ما حلّ بالقدس طيبةً وتشرحه في أكرم الحُجُران

فالشاعر يستغيث بمكة والمدينة ويدعوهما إلى أن تشاركاه البكاء. ويطلب مكة بأن توصل البكاء إلى عرفات، ويدعو المدينة لشرح موضوع القدس في الروضة الشريفة بالمسجد النبوي. فما دعاه إلى هذه الاستغاثة أمر مؤلم، وينتقل بها إلى الديار المقدسة في الحجاز، ليوحى للمسلمين أنه يطلب النجدة منهم ويدعوهم إلى استرداد القدس، وما النصر إلا من الله.

ولكن المشاركة لم يتوسعوا في «شعر الاستغاثة» توسع الأندلسيين، ولذلك لم يظهر هذا اللون من الشعر في أدبهم، كما ظهر في الأدب الأندلسي فنا قائما بذاته، فمنذ القرن السادس الهجري أخذت قواعد المسلمين ومدنهم تسقط تباعاً في أيدي الإسبان.

ولم يقف الشعراء مكتوفي الأيدي، بل أخذوا يجارون بشعر الاستغاثة، يخاطبون به ملوك المسلمين على وجه العموم، وملوك المغرب على وجه الخصوص من مرابطين وموحدين ومرينيين، يستنهضون عزائمهم كي يهّبوا لنجدة أهل الأندلس، فيستجاب لهم حيناً وتذهب استغاثاتهم أدراج الرياح أحياناً، إما لانشغالهم بأحوال بلادهم وإما لانقسام أهل الأندلس وتآمر بعضهم مع الإسبان.

ومن ثمّ كثر شعر الاستغاثة في الأدب الأندلسي، وبلغ اليأس مداه عند بعض الشعراء، فاستشعر بالمأساة الكبرى قبل وقوعها، على نحو ما نجد في قصيدة رثاء الأندلس لأبي البقاء الرندي، إذ استنصر بأهل العُدوة من مرين وغيرهم بهذه القصيدة التي أفردنا لها دراسة مستقلة.

(1) انظر: الروضتين، 2/ 205.

ووجدت في جيب الشاعر أبي عبد الله محمد بن الفازازي يوم وفاته جاء فيها:

الرومُ تضربُ في البلادِ وتغنمُ والجورُ يأخذُ ما بقي والمغرمُ
والمالُ يوردُ كله قشتالةً والجنْدُ تسقطُ والرَّعيَّةُ تُسَلِّمُ
وذوو التَّعينِ ليسَ فيهمُ مسلّمٌ إلا معيْنٌ في الفسادِ مُسَلِّمُ
أسفي على تلك البلادِ وأهلها اللهُ يَلطِفُ بالجميعِ ويَرْحَمُ!

ولما رفعت إلى السلطان واطَّلَعَ عليها قال بعد ما بكى: صدق رحمه الله، ولو كان حيًّا ضربتُ عنقه⁽¹⁾.

ولما اشتد الحصار على بلنسية استغاث الأمير زيان بن أبي الحجاج ملك شرق الأندلس بسلطان تونس أبي زكريا ابن أبي حفص ليعينه على ملك برشلونة، وأوفد عليه كاتبه ابن الأَبَّار القضاعي، فأنشد بين يديه قصيدته السينية الطويلة، ومنها⁽²⁾:

أدركُ بخيلِكَ خيلَ اللهِ أندلساً إنَّ السبيلَ إلى منجاتها درسا
وهبْ لها من عزيزِ النَّصرِ ما التمسْتُ فلم يزلْ منك عزُّ النَّصرِ مُلتمسا
وحاشَ مما تُعانيه حشاشَتها فطالما ذاقَتِ البلوى صباحَ مسا

وتأثر السلطان بهذه القصيدة، وأعان أهل بلنسية بأساطيله التي لم تكد تصل للنجدة حتى استولى ملك برشلونة على بلنسية صلحاً سنة 637هـ.

وفي سنة 674هـ أغار الإسبان بقيادة الأذفنش صاحب قشتالة على مملكة غرناطة، وانتزعوا كثيراً من المدن والحصون من أيدي المسلمين استغاث الفقيه محمد الثاني ابن الأحمر ملك غرناطة المغرب يعقوب بن عبد الحق المريني، فأمدّه بجيش كبير بقيادة ابنه، تلاه خروجه هو من المغرب إلى الأندلس بجيش أكبر، وكان النصر للمسلمين.

(1) نفع الطيب، 6/ 211.

(2) م. ن.

ولما اعتزم السلطان يعقوب أن يعود إلى المغرب خاطبه ابن الأحمر بقصيدة استغاثة من نظم كاتبه أبي عمر بن المرابط، ومنها قوله:

هل من مُعين في الهوى أو مُنجِدٍ من مُتهمٍ في الأرضِ أو من مُنجدٍ؟
هذي سبيل الرشَدِ قد وضحتُ فهل بالعدوتين من امرئ مُسترشد؟⁽¹⁾
هذا الجهاد رئيس أعمال الثقي خذ منه زادك لارتحالك تُسعدِ
هذا الرباط بأرضِ أندلسٍ فرحٌ منه لما يُرضي إلهك واغتدِ
من ذا يُطهرُ نفسه بعزيمةٍ مشحوزةٍ في نصر دين محمد؟

وقد أجابه السلطان يعقوب المريني بقصيدة من نظم شاعره عبد العزيز «ليبك لا تخش اعتداء المعتدي»، وأجاب عنها أيضاً ملك بن المرحّل بقوله: «شد الإله وأنت يا أرضُ اشهدي»، فأجابهما أبو عمر بن المرابط بقوله: «قل للبقاة وللعداة الحُسُد»⁽²⁾.

وأيّاً كان الأمر، فقد أثار الشاعر الأندلسي حزن المسلمين على ما أصاب الأندلس وأهلها من قتل وأسرٍ وسيّ وضياع أوطان. وقد لبّى المسلمون النداء غير مرة، إلا أن انقسام الأندلس على أنفسهم، وميلهم إلى اللهو بمختلف صنوفه، قد أضاع الأندلس، وأدى إلى سقوطها الأبدي، وما زلنا نتجرّع مرارة هذا السقوط وأساه حتى هذه الأيام.

(1) المراد بالعدوتين الأندلس والمغرب.

(2) نفح الطيب، 6/ 200 وما بعدها.

أعلام الشعر الأندلسي

المبحث الأول: ابن عبد ربه

المبحث الثاني: ابن هانئ الأندلسي

المبحث الثالث: ابن درّاج القسطلي

المبحث الرابع: ابن شهيد

المبحث الخامس: ابن زيدون وولادة بنت المستكفي

المبحث السادس: ابن حمديس الصقلي

المبحث السابع: ابن خفاجة

المبحث الثامن: المعتمد بن عباد

الفصل السادس

أعلام الشعر الأندلسي

المبحث الأول

ابن عبد ربّه (-328هـ/940 م)

هو أحمد بن محمد بن عبد ربّه، كان سالم -أحد أجداده- مولى من موالي الأمويين، وقد ولد هذا الأديب الشاعر في قرطبة سنة (246 هـ)، ونشأ فيها ميّالاً إلى العلم والأدب، ولم يمنعه فقره من طلب العلم على شيوخ عصره، فأخذ عنهم الفقه والحديث وعلوم العربية والتاريخ. ثم أتقن الشعر والكتابة. وقد تجلّت ثقافته في كتابه «العقد الفريد». نال مكانة كبيرة بين علماء الأندلس وأدبائها، وقدّره أمراء بني أمية وبذلوا له أعطياتهم، فاغتنى بعد فقر وساد بعد خمول حين اتفقت له أيام كان للعلم فيها نفاق⁽¹⁾.

ويُروى أنه كان في صباه لاهياً مولعاً بالغناء، ونظم في ذلك القصائد والمقطوعات الشعرية التي تنمّ عن إقباله على اللذات، دون إغراق فيها، فكان يستمع إلى القيان وينظر إلى الجوّاري الحسان ويتغزل بهن، ويكثر من ذكر الخمر في شعره دون أن يتورط في شربها. فيصفها في مثل قوله:

راح إذا اقترنت عليك كؤوسها خلّت النجوم تقارنت بنجوم
تجري بأكناف الرياض وما لها فلّك سوى كفي وكف نديمي
حتى تحال الشمس يكسف نورها والأرض تُرعد رعدة المحموم

(1) الحميدي، جذوة المقتبس، ص 94.

ثم أقلع عن صبوته وتخلّى عن ذنوبه التي اقترفها، وأخلص لله في توبة هي أقرب إلى توبة الفقيه المتحرّج لا توبة اللاهي العابث⁽¹⁾، التي عُرف بها أبو نواس، وأخذ ينظم قصائده الزهدية التي عُرفت بـ «الممخّصات» ليمخّص الله عنه ذنوبه، وطريقته تقوم على معارضة معاني الشعراء، فيعكسها أو يزيد فيها، من ذلك قوله⁽²⁾:

وأحببتُ فيها العذلَ حبّاً لذكرها فلا شيء أشهى في فؤادي من العذل
كتمت الهوى جهدي فجرّده الأسى بماء البكا، هذا يخطُّ وذا يُملّي

فقد عكس به المعنى الذي تحدّث عنه مسلم، وهو أنه كتم الحب عن عاذله فاستراح من العذل، فقال إنه يحب العذل لكي يذكر اسمها ولا شيء أحب إليه من العذل، وإنه حقاً كتم الحب كما كتمه مسلم ولكن الأسى هو الذي أخذ يُعلّنه بماء البكاء⁽³⁾.

وهو يفخر بذلك قائلاً: «فمن نظر إلى سهولة هذا الشعر مع بديع معناه ورقة طبعه لم يفضلّه شعر صريع الغواني عنده إلا بفضل التقدم⁽⁴⁾.

وفاته

أصيب ابن عبد ربه في أواخر عمره بالفالج ومات بقرطبة سنة (328هـ)، «وقد شيع جنازته جمع عظيم وتكاثر الناس تكاثراً راع يحيى بن هذيل، وكان يومئذ صغير السن، فسأل: لمن هذه الجنازة؟ فقيل له: لشاعر البلد»⁽⁵⁾. مما يدل على المنزلة الرفيعة التي احتلها صاحب العقد في قرطبة، فقد كان محط إعجاب الناس بعقده الفريد وشعره الأنيق.

(1) انظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، (عصر سيادة قرطبة)، ص 184.

(2) العقد الفريد، 4/ 398.

(3) انظر: إحسان عباس، م.س، 4/ 398.

(4) العقد الفريد، 4/ 358.

(5) جذوة المقتبس، ص 358.

شعره

يتوزع شعره بين مرحلتين، هما: مرحلة الشباب ومرحلة الشيخوخة، كان في الأولى ينظم قصائده ومقطوعاته الرقيقة الجميلة، ثم أقلع عن ذلك فأخذ يقول في الزهد السليبي، يتذكر الموت ويذم الحياة الدنيا، دون أن تكون له فلسفة خاصة سوى النظرة السوداوية للحياة، بلا عمق أو نفاذ في الحياة على نحو ما نجده عند المتنبي أو المعري. ومن ثم كانت أغراضه تقليدية، يغلب عليها المديح.

المديح

فقد اتصل بعدد من أمراء قرطبة، هم: محمد بن عبد الرحمن بن الحكم وولده المنذر وعبد الله، إلا أن صلته بمحمد لم تكن وثيقة، في حين توطدت علاقته بالمنذر، وله فيه قصيدة طويلة بقي منها بيتان (1):

بِالْمَنْذَرِ بَنَ مُحَمَّدٍ شَرَفْتُ بِلَادُ الْأَنْدَلُسِ
فَالطَّيْرُ فِيهَا سَكَنَ وَالْوَحْشُ فِيهَا قَدِ انْسَ

وأتصل بأخيه عبد الله، فمدحه وسجل انتصاراته على خصومه وبخاصة ابن حفصون، ومدح بعض رجالاته، من أمثال العباس أحمد بن محمد بن أبي عبدة، ومن مدائحه فيه (2).

اللَّهُ جَرَدٌ لِلنَّدَى وَالْبَاسِ سَيْفًا فَقَلْدُهُ أَبَا الْعَبَّاسِ
مَلِكٌ إِذَا اسْتَقْبَلَتْ غُرَّةٌ وَجْهَهُ قَبْضُ الرِّجَاءِ إِلَيْكَ رُوحَ الْيَاسِ
وَجَّةٌ عَلَيْهِ مِنَ الْحَيَاءِ سَكِينَةٌ وَمَحَبَّةٌ تَجْرِي مَعَ الْأَنْفَاسِ
وَإِذَا أَحَبَّ اللَّهُ يَوْمًا عَبْدَهُ أَلْقَى عَلَيْهِ مَحَبَّةً لِلنَّاسِ

وعاش في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي اقترنت ولايته بظهور الهلال، فنسمعه يقول في هذا اليوم (3):

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ترجمة رقم 45.

(2) العقد الفريد، 312/1.

(3) نفح الطيب، 330/1.

بدا الهلالُ جديداً والمُلْكُ غَضُّ جديداً
يا نعمةَ اللهِ زيدي إن كانَ فيكَ مزيداً
إن كان للصومِ فطُرُ فأنْتَ للدهرِ عيُداً

وإذ تابع غزواته المتتالية التي دامت إحدى وعشرين سنة، من سنة 301هـ إلى سنة 322هـ انتصر فيها على مُناوئيه وأعاد للأندلس وحدتها وأمنها واستقرارها، فقد سجّل ابن عبد ربه هذه الانتصارات في أرجوزة طويلة تبلغ 448 بيتاً، ومنها قوله ⁽¹⁾:

قد أوضح اللهُ للإسلام منهاجاً والناسُ قد دخلوا في الدينِ أفواجا
وقد تزينتِ الدنيا لساكنها كأنما لبستُ وشياً وديباجاً
مات النفاق وأعطى الكفرُ ذمته وذلتِ الخيلُ إجماعاً وإسراجاً
في نصف شهرٍ تركتِ الأرضُ ساكنةً من بعد ما كان فيها الجورُ قد ماجاً
إن الخلافةَ لن ترضى ولا رضيتُ حتى عقدتَ لها في رأسك التاجاً

الوصف

لم يكن ابن عبد ربه من الشعراء الوصافين الكبار، ولكنه أجاد في بعض أوصافه، وبخاصة وصف المعارك والحروب، وقد أورد أمثلة منه في عقده في مثل تشبيهه الطريف الذي استهلّه بقوله: «وقد وصفنا الحرب بتشبيه عجيب لم يُتقدّم إليه».

وجيشٍ كظهرِ اليمِّ تنفحه الصِّبَا يعبُ عُبَاباً من قنا وقنابلٍ
فتزلُّ أولاه وليس بنازلٍ وترحلُ أخراه وليس بإرحلٍ

فهذه صورة باهتة استمدّها من وصف بشار بن برد للجيش «وجيشٍ كجُنح

الليل.....».

ووصفه المشيب الذي ينمّ عن صدق عاطفته وإحساسه المرهف، ودقّة

تصويره ⁽²⁾:

(1) العقد الفريد، 4/ 494.

(2) م.ن، 3/ 47.

حَسَرَ المشيبُ قناعه عن رأسه وصحا العواذلُ بعد طولٍ ملامٍ
فكأنَّ ذاكَ العيشَ ظلُّ غمامةٍ وكأنَّ ذاكَ اللُّهُوَ طيفُ منامٍ
فقد شتَّص المشيب، وصوَّر العيشَ بظلِّ غمامة، واللَّهُوَ بطيف منام، ليدلِّل
على قضية الحياة والموت.

وله قصيدة يصف فيها القلم، أغار فيها على بعض معاني أبي تمام في وصف
القلم⁽¹⁾.

ينطقُ في عُجمةٍ بلفظته تصمُّ عنها وتُسمع البصرا
إذا امتطى الخنصرين أذكرَ من سحبانٍ فيما أطال واختصرا

الحكمة والزهد

جاءت حكمته سلبية أقرب ما تكون إلى هجاء الناس وذمِّ الدنيا، وقد بناها على
تشاؤمه وسخطه على الناس وإساءة الظن بهم، لما في نفسيته من استعداد لرؤية
الجانب المظلم من الحياة، وهو حادّ الطبع، سريع الانفعال. وقد دفعه ذلك الى رؤية
الحياة وقد خلت من الخير، ووصف أهل الدنيا بأحطّ الصفات، إذ جعلهم كلاباً⁽²⁾:

وأيامٌ خلت من كل خيرٍ ودنيا قد توزَّعها الكلابُ
كلاب لو سألتهم تراباً لقالوا عندنا انقطع الثرابُ

وما دامت هذه أحوال الناس فهم صمُّ صلاب لا تفلح فيهم عصا موسى⁽³⁾:

حجارةٌ بُخلٍ ما تجود وربما تفجَّرَ من صمِّ الحجارة ماءٌ
ولو أنَّ موسى جاء يضربُ بالعصا لما انبجست من ضربه البخلاءُ

(1) الذخيرة، 4/ 1 ص 164.

(2) العقد الفريد، 2 / 342.

(3) م. ن، 1 / 292.

وبسبب من سوء ظنه بالحياة، فقد جعلها تسير نحو الأسوأ، ولا يبقى فيها سوى
البخلاء واللؤماء، أما الكرماء فقد مضوا⁽¹⁾:

فما الموتُ إلا عيشٌ كلُّ مُبْجَلٍ وما العيشُ إلا موتٌ كلُّ ذَمِيمٍ
وأعذرُ ما أدمى الجفون من البكا كريمٌ رأى الدنيا بكفٍ لئيمٍ
وإذا فهذه الحياة لا يغنى فيها إلا اللئيم⁽²⁾

أرى كلَّ قَدَمٍ قد تبجَّج في الغنى وذو الظَّرْف لا تلقاه غير عديمٍ

ومن ثمَّ لا نجد عند ابن عبد ربه حكمة إيجابية أو متفائلة، ذلك أنه نظر إلى
الدنيا من زاوية سوداء، بوصفها دارفناء وزوال، وأقصى ما يراه فيها أنها مزارع، نزرع
فيها ونحصد، ولا يبقى منها سوى الذكري:

إن الحَيَاةَ مَزَارَعٌ فازرعُ بها ما شئتُ تحصدُ
والنَّاسُ لا يبقَى سوى آثارِهِم والعَيْنُ تُفقدُ

وإذا كانت الحكمة سلبية في شعر ابن عبد ربه، فقد كان زهده كذلك، وقد كان
لثقافته الفقهية تأثير في عزوفه عن الدنيا ومباهجها، فكان يدركه شيء من الخوف مما
ارتكبه من ذنوب وآثام لا ترقى إلى المعاصي، وقد انتهى به ذلك إلى الزهد والتقصف
وذكر الله، فنسمعه يصف الدنيا بأنها دار للفجائع والمصائب:

ألا إنما الدنيا غَضَارَةٌ أَيْكَةٌ إذا اخضرَّ منها جانبٌ جفَّ جانبُ
هي الدارُ ما الآمالُ إلا فجائعٌ عليها، ولا اللَّذاتُ إلا مصائبُ
وكم سَخَنَتْ بِالْأَمْسِ عَيْنٌ قَرِيرَةٌ وَقَرَّتْ عِيونٌ دمعها اليومَ ساكبُ
فلا تكتحلَّ عيناكُ منها بَعْبَرَةٌ على ذاهبٍ منها، فإنك ذاهبُ
ومن ثمَّ راح يبيكي شبابه الزائل، فيقول⁽³⁾

قالوا شبابك قد مضتْ أيامهُ بالعيش، قلتُ وقد مضتْ أيامي

(1) العقد الفريد، 2 / 349.

(2) م.ن، 3 / 35.

(3) م.ن، 3 / 47.

لله أئمةٌ نعمةٍ كان الصُّبَّا لو أنها وُصِلت بطول دوامٍ
وأيّاً كان الأمر، فإن حكمة ابن عبد ربه تبدو غريبة التّسج مضطربة الألوان،
تختفي وراءها روح متشائمة مجبولة بسوء الظن، أما زهده فلا يشكل مذهباً أدبياً
أخلاقياً كالذي نَجده عند أبي العتاهية في المشرق ذلك أنه «لم ينتشل نفسه في المرحلة
الثانية من ذنوب وآنام أقضّت مضجعه في المرحلة الأولى⁽¹⁾».

(1) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، ص 195 و 196.

المبحث الثاني

ابن هانيء الأندلسي (362هـ / 973م)

هو أبو القاسم محمد بن هانيء⁽¹⁾، وينسب إلى القائد الأموي المهلب بن أبي صفرة (-83هـ / 702م) الذي اشتهر بقتاله للخوارج في الشام والعراق وانتصاراته في خراسان لعهد بني أمية، ثم إن المهلبين ينسبون إلى أصل يعني، إذ هم من الأزد، وهو يفخر بهذا النسب فيقول مفتخراً بشعره:

يَمَانِيَّةٌ فِي نَحْرِهَا أَزْدِيَّةٌ أَفْضَلُهَا نِظْمًا وَأَحْكَمُهَا رِصْفًا

حيث ولد بإشبيلية سنة 320هـ، وآية ذلك أن لقاء الشاعر مع جوهر الصقلي وقع سنة 347هـ، وكانت سنّهُ آنذاك سبعةً وعشرين عاماً⁽²⁾ وكان والده قد هاجر إلى المهديّة⁽³⁾ في شمالي إفريقيا إلى الأندلس ونزل بإشبيلية.

تلقى الشاعر ثقافته بإشبيلية، ويشير ابن الخطيب إلى تبخره في اللغة وبصره بالشعر،⁽⁴⁾ وقد بدت ثقافته الدينية من قرآن كريم وسنّة نبويّة في شعره، في مثل قوله: يا مشرفي! اسجد له من بينهم يا باطل! ازهق، يا حقيقةً حصحصي! فقد نظر فيه إلى الآية 51 من سورة يوسف. وقوله:

لَكُنْكُمْ كُنْتُمْ كَاهِلَ الْعَجَلِ لَمْ يُحْفَظْ لِمُوسَى فِيهِمْ هَارُونَ

وفيه نظر إلى الآية 148 من سورة الأعراف، إذ أشار إلى قصة العجل.

وتلقّن ثقافة شعبية تمثّلت في ميله إلى التأويل الباطني للأشياء، ولا يُدرى هل تلقّنها بالأندلس أثناء تكوّنه الأول في أسرته أو في حلقات سرّية، أم بإفريقيا حين دخل في خدمة المعز⁽⁵⁾؟

(1) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (ترجمة رقم 640)، والتكملة لابن الأبار، ص 103، ومعجم الأدباء لياقوت، 92/19. ومطمح الأنفس للفتح بن خاقان، ص 74.

(2) محمد اليعلاوي، ابن هانيء المغربي الأندلسي، ص 112.

(3) مدينة أسسها المهدي عبيد الله بين سنة 300هـ و 303هـ.

(4) محمد اليعلاوي، م.س، ص 112.

(5) محمد اليعلاوي، ابن هانيء المغربي الأندلسي، ص 114.

تركه الأندلس

عُرف ابن هانيء بلهوه ومجونه وبتطاولة على الدين، مما حمل أهل إشبيلية والفقهاء عليه، وامتدت نقيمتهم إلى صاحب إشبيلية الذي يرعاه، فنصح به بالابتعاد عن هذه المدينة، فسافر إلى المغرب وعمره سبعة وعشرون عاماً.

اتصل في المغرب بجوهر الصقلّي قائد المعزّ لدين الله الفاطمي، وكان لقاءه به سنة 347هـ التاريخ الأدنى لوصوله إلى المغرب، وسنة 348هـ التي فرغ فيها جوهر من حملته العسكرية التي توجّها بفتح فاس. ومدحه بقصيدة أعلن فيها انضمامه إلى الفاطميين:

أراك بمراة الإمامة كاسمها على كور عَنَسِ والإمام المرشحا

وأشار فيها إلى الأسرى الذين أسرههم جوهر، لكنه لم يُبشّر الشواب الذي كان ينتظره إذ أعطاه مئتي درهم فقط. ولعلّ ذلك يعود إلى أنه كان شاعراً مغموراً، ولم يؤثر عن هذا الصقلّي الأصل أنه كان يُجزّل العطاء، ومن ثمّ أخذ يبحث عن ممدوح آخر. فاستقرّ عند بني حمدون بالمسيلة، وأصبح من خاصة الأميرين جعفر ويحيى ابني علي ابن حمدون وكانا واليين على الزاب في المغرب الأوسط للمعزّ الفاطمي، فمدحهما وأشاد بهما وبالحمولات التي يقودانها لاستخلاص الضرائب أو لقمع الفتن. ولم يلبث أن دخل في خدمة المعزّ وأصبح شاعره الرسمي، وعلت منزلته عنده، وبالع في الإنعام عليه، مما جعل الشاعر يخلص إلى سيده فنراه يُلحّ على «قديم تشيعه» في إحدى مدائحه للمعزّ، مما عرّضه لعداوة الأمويين، إذ يقول:

ولو علقته من أمية أجبل لجبّ سنام من الشعر تامك
ولما التقت أسياؤها ورماحها شرعاً، وقد سُدت عليّ المسالك
أجرت عليها عابراً وتركها كأن المنايا تحت جني أرائك
وما نقموا إلا قديم تشيعي فنجى هزبراً شدّه المتدارك

ولعلّ هذه المزاغم البطولية تُمثل لونا من المبالغات الشعرية التي دأب عليها الشاعر، ويفخر بأن سيفه أصبح ماثلاً له بالعقيدة، بقوله:

لي صارمٌ، وهو شيعيٌّ كحامله يكاد يسبق كراتي إلى البطل
إذا المعزُّ معزّ الدين سلّطه لم يرتقب بالمنايا مُدّة الأجل

وفاته

تتفق المصادر على أن موت ابن هاني كان مفاجئاً وهو ببرقة⁽¹⁾، إلا أنها تختلف في ظروف هذا الموت وأسبابه.

فيرى ابن الأبار أنه «توفي ببرقة في طريقه إلى مصر⁽²⁾» نافياً عنه فكرة القتل أو الاغتيال، ويخالفه ابن الأثير إذ يعتقد أنه اغتيل في خطة مدبرة «فلما وصل المعزّ إلى برقة، ومعه محمد بن هاني الشاعر الأندلسي، قتل غيلة، فرُئي مُلقى على جانب البحر قتيلاً لا يُدرى من قتله⁽³⁾»، ويرى ابن تغري بردي أنه دخل إلى القاهرة في ركب المعزّ «..... إلى أن قُتل ببرقة في عوده إلى المغرب لأخذ عياله، وعوده بهم إلى مصر⁽⁴⁾»

أما صاحب الوفيات، فيرى أنه لقي حتفه بعد أن ودّع المعزّ وهو في طريقه إلى الإسكندرية، وآية ذلك أن الشاعر أرسل قصيدته الأخيرة إلى المعزّ بعد توديعه، وأنه تسلمها بعد مقتل الشاعر الذي عاد إلى المغرب ليُحضر أولاده وأهله. وقد أسف عليه المعزّ وتحسر عليه حين بلغه نبأ وفاته، بقوله «هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق، ولم يُقدّر علينا ذلك⁽⁵⁾» وهناك من ينسب قتله إلى تميم بن المعزّ بسبب الغيرة من الشاعر، وأنه أوعز بقتله، وربما دبر هذا القتل بعض خصوم المعزّ ليحرمه من شاعر كان يُمثل صوت الدولة.

(1) اسم قديم لقرية المرج التي تقع اليوم على بُعد مائة ميل تقريبا من مدينة بنغازي، وتطلق على الإقليم الشرقي من ليبيا.

(2) ابن الأبار، التكملة، ص 103.

(3) الكامل، 43 / 7.

(4) النجوم الزاهرة، 4 / 67.

(5) م.ن.

أما تاريخ مقتله فهو يوم الأربعاء 23 رجب 362هـ / 29 نيسان 973، على نحو ما ذكره ياقوت وابن خلكان. وكانت سنّه عند الوفاة اثنين وأربعين عاماً.

ديوانه

يبلغ عدد النسخ المخطوطة من ديوان ابن هانئ ثمانين نسخة، محفوظة في كبريات المكتبات العالمية، فضلاً عن مخطوطات أخرى يحتفظ بها بعض الخواص من رجالات الشيعة الإسماعيلية في بلاد الهند.

طبع الديوان في مصر سنة 1274هـ، وفي بيروت سنة 1886م وسنة 1907م وهو مرتب حسب حروف الهجاء. وشرحه زاهد علي وسمّاه «تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانئ» وشفعه بترجمة إنجليزية، تقدّم بهما سنة 1932م لنيل الدكتوراه من جامعة أكسفورد، ثم نُشر الديوان بالقاهرة سنة 1933.

شعره

مَنْ يرجع إلى ديوان ابن هانئ يجده يشمل سبعين قصيدة تتراوح بين أحد عشر بيتاً ومائتين، فضلاً عن مقطوعات قصيرة، جُمِلَتْها ثمان وأربعون مقطوعة. ويدور شعره حول أغراض تقليدية كالمدح والوصف والثناء والهجاء والغزل.

المدح

يحتل المدح الجانب الأكبر من قصائده السبعين، منها ست وعشرون في بني حمدون، وثلاث وعشرون في المعز، وثلاث عشرة قصيدة في القوّاد والوَلَاة والكَتّاب. وتدور مدائحه حول معانٍ تقليدية لا يخلو منها شعر البلاط كالكرم، والحلم، والبأس والقوة، إلا أنه ملأ مدائحه بمعانٍ عقديّة ومذهبية تدور حول صفات المعزّ الإمامية، والمغالاة في مدحه وخلع الصفات القدسية عليه، من ذلك قوله:

وما كُنْه هذا الثُّور نور جبينه ولكنَّ نورَ الله فيه مشارِكُ

وقوله⁽¹⁾:

هو علّة الدنيا ومن خلقت له ولعلّة ما كانت الأشياء

وقوله⁽²⁾:

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ فاحكم فأنت الواحدُ القهارُ

والأمثلة في ذلك كثيرة. فالشاعر ينعت المعزّ بأسماء وصفات تخصُّ بها الله وحده، إذ يجعله روحاً من الله، ويجعله سبب الوجود وعلة الحياة، ويجعله أيضاً الواحد القهار، وفي ذلك تطاول على الدين على نحو ما يرى ابن شرف: «..... وكان في دينه في أسفل منزلة، ناهيك من رجل يستعين على صلاح دنياه بفساد آخرته، لرداءة دينه وضعف يقينه⁽³⁾».

ويُلقي المؤرخ القيرواني ابن شداد التبعيّة على المعزّ لدين الله الذي يُشجع شعراءه على هذا الإفراط ويستزيدهم⁽⁴⁾. ومن ثمة، فلا يمكننا فهم هذا الشعر إلا بوضعه «في إطاره من العقيدة الإسماعيلية أولاً، ومن الخصومة الكلامية بين الدولة الفاطمية وأعدائها في الداخل والخارج ثانياً⁽⁵⁾»، إلا أن هذا لا يُبرّئه ولا يُعفيه من المساءلة.

وكذلك لم تخل معانيه التقليدية من المبالغة، فلا يكتفي بتشبيهه بمدوحه بالغيث أو البحر، وإنما يجعل نداءه أعمّ وأوسع انتشاراً من شعاع الشمس:

وما الشمسُ تكسو كل شيءٍ شعاعها بأسبغٍ عندي من نداك ولا أضفى

(1) الديوان، ص 150.

(2) م. ن، ص 365.

(3) انظر: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، 2/ 213.

(4) انظر: محمد اليعلاوي، ابن هاني المغربي الأندلسي، ص 241.

(5) م. ن.

واذا كان تشبيه حلمه بالجبل الراسي مقبولا:

والأرضُ تحملُ حلمه فيؤودها حتى تكاد بأهلها تنزل
فإنه ينفذ بذكائه حجب الغيب:

كأنك شاهدتَ الخفايا سوافراً وأعجلتَ وجه الغيب أن يتسّرا

فعرّفتَ في اليوم البصيرةَ في غدٍ وشاركتَ في الرأي القضاءَ المقدّرا
وهذا زعمٌ لا نفهمه أيضاً إلا في سياق القصيدة التي ترى أن الخليفة يطّلع على
الغيب سواء بالوحي أو بالفراسة.

أما بأسه فشديد، يخشاه الملوك، إلى حد أنهم يتحاشون مناجاة أنفسهم:

خافوكَ حتى تفادوا من جوانحهم فما يُناجونها من كثرة الوَهْل
وله قصيدة مشهورة في مدح المعزّ تعرض فيها لفتح مصر، وأشاد بقائده جوهر
الصقلّي:

وقد جاوزَ الأسكندريّةَ جوهرٌ تُطالعه البُشرى ويقدمُهُ النَّصرُ

وله أيضاً قصيدة يمدح بها المعزّ ويصف أسطوله المجهّز «باللهيب اليوناني»، وهو
خليط من النفط و البارود تُضرم فيه النار، ترسله المجانيق على السفن المعادية فيحرقها:

لك البرُّ والبحرُ العظيمُ عُبابة فسَيانَ أغمارُ تُخاضُ وييدُ

أما والجواري المنشآتِ التي سَرَتِ لقد ظَاهَرَتْها عُدَّةٌ وعديدُ

قِبابٌ كما تُجزى القِبابُ على المِها ولكنَّ مَنْ ضُمَّتْ عليه أسودُ

وللّه ما لا يرونَ كتائبُ مُسوَّمةٌ تحدو بها وجُنودُ

وما راعَ ملكَ الرّومِ إلا اطلّاعُها تُنشرُ أعلامُها وبُنودُ

أثافتُ بها أعلامُها وسماها بناءً على غيرِ العراءِ مشيدُ

من الراسياتِ الشَّمُّ لولا انتقالُها فمنها قِنانٌ شُمخٌ وريودُ

من الطّيرِ إلا أنهنَّ جوارحُ فليس لها إلا النفوسَ مصيدُ

عليها غمامٌ مكفهرٌ صبيرُهُ له بارقاتٌ جمَّةٌ ورعودُ⁽¹⁾
 مواخرُفي طامي العُبابِ كأنها لعزمك بأسٌ أو لكفك جودُ
 إذا زفرت غيظاً ترامتْ بمارج كما شبَّ من نارِ الجحيمِ وقودُ⁽²⁾
 فأنفاسهنَّ الحامياتُ صواعقُ وأفواههنَّ الزَّافراتُ حديدُ

فهو يصف أسطول المعز الحربي وانتصاره على الأسطول البيزنطي في معركة بحرية سنة (351هـ)، استخدمت فيها قاذفات اللهب، ويصف قباب السفن، ويشبهها بهودج الحسان، وقد بعثت أعلامها الرعب في قلوب الروم، ويمثل علوها بشموخ الجبال وسرعتها بخفة الطيور الجارحة التي تقتنص جنود الروم. ثم يصف اللهب الذي ترسله هذه القذائف المحرقة، وهي ترمي بالشرر وتزفر كالجحيم. ويمدح المعز فيشيد بعزمه وبأسه وبطشه بالأعداء. ونلاحظ في هذا الوصف الجزالة في الألفاظ، إلى جانب الوصف الدقيق للحرب البحرية الغني بالصُّور البصرية.

وصف الطبيعة

وصف ابن هانئ الطبيعة في مشاهد أخاذة طريفة، في مثل قوله:

أَلَوْلَوْ دَمَعَ هَذَا الْغَيْثُ أَمْ تُقَطُّ؟ ما كان أحسنَّهُ لو كان يُلْتَقَطُ!
 بين السَّحَابِ وبين الرِّيحِ ملحمةٌ قعاقعٌ، وظبىٌ في الجَوِّ تُخترطُ
 كأنه ساخطٌ يرضى على عَجَلٍ فما يدومُ رضىٌ منه ولا سَخَطُ
 أهْدَى الرِّيحِ إلينا روضةً أنْفأ كما تَنْفَسُ عن كافوره السَّفَطُ

فتخيل قطرات المطر لؤلؤاً، إلا أنه لا يلتقط، ثم التفت خياله إلى السُّحب والريح فتصورهما جيشين يجتدم بينهما القتال، إلا أنه لا يُسفر عن قتلى، بل عن روضة أنف غنية بالعشب المعطر، أهداها الربيع إلينا.

(1) الصَّبِيرُ: السحابُ المتراكم

(2) المارج: الشعلة شديدة اللهب.

ثم يأتينا بمشهد آخر، فيقول:

غمائمُ في نواحي الجوِّ عاكفةٌ خُفْلٌ، تحَدَّر منها وابلٌ سَيطُ
كَأن تهتانها في كُلِّ ناحيةٍ مَدٌّ من البحرِ يعلو ثم ينهبُ
والبرقُ يظهرُ في لَأْلَاءِ غرَّتِه قاضٍ من المَزْنِ في أحكامه شَطَطُ

فتلمس في هذا المشهد صورة حَيَّة للطبيعة، بما فيها من عوارض الغيث، من خلال إشارته إلى البحر في مدّه وجزره، وتشبيه السحاب بالقاضي العبوس، ولا تلبث أن تأخذ الأرض حظها من هذه السحب، فتغدو بساطاً أخضر معطراً بشذا النسيم:
والأرض تبسط في خَدِّ الثرى ورقاً كما تُثَرُّ في حافاتِها البُسَطُ
والريحُ تبعثُ أنفاساً مُعَطَّرةً مثلَ العبيرِ بماءِ الوردِ يُخْتَلَطُ
ولابن هانيء مقطوعات شعرية في ديوانه، وجملتها ثمان وأربعون، تُشمل مائة وأربعين بيتاً. منها مقطوعة في وصف الجلنارة، وهي زهرة الرمان، وتعد من الأرجاز القليلة في الديوان، ومنها⁽¹⁾:

كأنما جُثَّت دماً من نحرِ
أو نشأت في تربةٍ من جَمْرِ
جاءتُ بمثل التَّهْدِ فوق الصدرِ
في مثل طعم الوصل بعد الهجرِ

فقد وصف حمرتها القانية الدامية، ثم وصف ثغرتها الشبيهة بالابتسامة المغربية، التي تمثلها بلذة الوصل.

(1) زاهد علي، تبين المعاني في شرح ديوان ابن هانيء، ص 334.

ووصف مجلس هور على طريقة أبي نواس ، إذ يقول (1):

وليلٍ بتُ أسقاها سُلافاً مُعْتَقَةً كلونِ الجَلَنارِ
كَأَنَّ حَبَابَهَا خَرَزَاتُ دُرٍّ عَلَتْ ذهباً بأقداحِ النُّضارِ
بكفٍ مُقرطقٍ يُزهى برَدْفٍ يضيقُ بحمله وَسُعُ الإزارِ
أَقَمْتُ لَشُرْبِهَا عِشاً، وعندي بناتُ اللّهُو تَعَبْتُ بالعُقَارِ
ونجمُ الليلِ يركضُ في الدِّياجي كأنَّ الصَّبحَ يطلبه بشارِ

وهذه أوصاف تقليدية تدور حول الخمرة والأقداح والساقى والقيان نجوم السماء.

ومن أوصافه الطريقة التي تلقانا في مجالس هور، قوله:

والأباريق كالظباء العواطي أَوْجَسَتْ نبأة الجياد العتاق
مُصغياتٌ إلى الغناء مُطْلَأً تٌ عليه، كثرةُ الإطلاقِ

فقد صور الأباريق وقد امتدّت أعناقها مُصغية إلى القيان، بظباءٍ أوجست خيفةً، وأطلّت بأجيادها.

وقد خصّ الجانب الأكبر من مقطوعاته لوصف السلاح، في مثل قوله (2):

هو السيفُ سيفُ الصدقِ، أما غِرارُهُ فَعَضْبٌ، وأما متْنُهُ فَصَقِيلُ
يشيعُ له الإفرندُ دمعاً كأنما تذكُرُ يومَ الطُّفِّ فهو يسيلُ
فقد خلع عليه صفة الصدق، وجعله عضباً صقيلاً، وتحيلُ بريقه دموعاً على الحسين يوم كربلاء.

الرثاء

ألم ابن هانيء بالرثاء التقليدي، إلا أنه لم يُكثر منه، فمراثيه لا تعدو الثلاث، خصّ بها بني حمدون، فقد رثى غلاماً مات في سن الخامسة، نفذ من خلالها إلى ذمّ الدهر والشكوى من الحياة، إذ يقول:

(1) زاهد علي، تبين المعاني في شرح ديوان ابن هانيء، ص 334.

(2) م. ن، ص 684.

وهبَ الدَّهرَ نفيساً فاستردَّ رُمّا جادَ بخيلٍ فحَسَدُ
 كلما أعطى فوقى حاجةً بيدِ شيئاً تلقاهُ بيدُ
 خاب من يرجو زماناً دائماً تُعرف البأساء منه والتكذُ
 فإذا ما كدّر العيشُ نما وإذا ما طيّبَ الزادُ نفدُ
 وعزى الأخوين جعفر ويحيى عن أهمها مبرئية رائية طويلة، بدأها بتأملات
 حكمة تدور حول الفناء وقصر العمر:
 إنا، وفي آمال أنفسنا طول، وفي أعمارنا قصرُ
 لنرى بأعيننا مصارعنا لو كانت الأبوابُ تعبرُ
 وأشاد بخصائل الأم، فتحدث عن إحسانها الذي لا يدانيه السحاب، والمطر
 الذي شيعها في ذلك اليوم:
 شهد الغمام، وإن سقاك حياً أن الغمامَ إليك مُفتقرُ
 كم من يدٍ لك غير واحدة لا الدمعُ يكفرها ولا المطرُ
 ونراه يشيد في مريثته المقصورة بالأمهات، إذ يقول:
 لأمانتنا نـصفُ أنسابنا إذا الملكُ القَيلُ منّا انتمى
 دعائمُ أيماننا في الفخارِ وأكفاءُ أبائنا في العلى
 ويؤثرهن على الرجال:
 ونغدو فمنهن أسماعننا وأبصارنا في حجال المهـا
 فلو جاز حكمي في الغابرين وعدلتُ أقسامَ هذا الـورى
 لسميتُ بعض النساء الرجال وسميتُ بعضَ الرجال النـسا
 أما حين تحدث عن قبرها فقد رأى الخلق يكون عليه، والمزن تجود عليه بالحيا:
 ولما أتينا سقته الدموع فما بات حتى سقاه الحيا
 وما جاده المزن من غلة ولكن ليـك الندى بالندى

ولعل إشاداته بالأمهات وتفضليهن على الرجال، وذكره للملك القليل ذات مغزى سياسي، «فكانه من خلال هذه الأبيات يدعو المعز إلى الافتخار بالانتساب إلى فاطمة⁽¹⁾». وهي التي انتسبت إليها الدولة الفاطمية، مندداً بمن يدعوها الدولة العبيدية نسبة إلى «عبيد الله».

شكوى الدهر

ولابن هانئ شعر في شكوى الدهر، سَلَكَ فيه طريقة المتبني دون أن يلحق به فليس لشكواه «نفس العمق ولا ذاك الطابع الشجيّ ولا تلك الغنائية الحزينة»⁽²⁾ التي نَجدها في شكوى المتنبّي.

ونراه يربط الشكوى بالنسيب حيناً، في مثل قوله:

أريد لهذا الشمل جمعاً كعهدنا وتأبى خطوبٌ للنوى وحوادثُ

عبثتُ زماناً بالليالي وصَرَفها فها هي بي لو تعلمون عوابثُ

فقد جعل هجران المحبوبة ورحيلها من صروف الليالي وتقلبات الأيام.

ونراه ينفذ من بكاء شبابه ورحيله إلى الشكوى من المشيب والدهر معاً، على شاكلة ابن الرومي:

لبست رداء المشيب الجديد ولكنّها جـدة للبلـى

فأكديتُ لما بلغتُ المدى وعُرِيتُ لما لبستُ الثُهي

وقد ينزع في شكواه منزعاً طريفاً، فيشكو الأيام إذ يُمثل تقلبها بتقلب الحسنة في هواها، فيقول:

طَوَيْتُ لي الأيامُ فوق مكايِدِ ما تنطوي لي فوقها الأعداء

ما كان أحسن من أياديها التي توليك! إلا أنّها حسناء

ما تحسّن الدنيا قديم نعيمها: فهي الصُّناع، وكفُّها الخرقاء

(1) محمد اليعلاوي، ابن هانئ المغربي الأندلسي، ص 235.

(2) م. ن، ص 219.

تأثره بالشعراء السابقين

ربط النقاد بين ابن هانئ والمتني، فقد قال فيه صاحب الوفيات: إنّه عند المغاربة كالمتني عند المشارقة،⁽¹⁾ وهي مقولة ذاعت بين الناس حتى صار يُدعى عند الأندلسيين متني الغرب، وفي ذلك ما فيه من إساءة فهم لقول ابن خلكان، فهو لم يحكم بينهما وإنما وازن بين منزلتيهما، ذلك أن الفرق بينهما شاسع جداً، «فلم تكن لابن هانئ عبقرية المتني ولم يكن لديه المعين النفسي والفلسفي الذي اغترف منه أبو الطيب»⁽²⁾، إلا أن ابن هانئ كان واضح العقيدة والمذهب، فقد سخر طاقته الشعرية في خدمة الدعوة الإسماعيلية، أما المتني فقد كان مضطرب العقيدة ولم تكن له أبعاد دينية، وقد سخر طاقته الشعرية في مدح الملوك والأمراء طلباً للمال والجاه.

ولاحظ الدكتور شوقي ضيف أن ابن هانئ كان يأتي المعاني والأخيلة من بعيد، وكان يستر ذلك بما تعودّه من ضخامة التعبير، شأنه في ذلك شأن المتصّعين الذين يعتمدون إلى التلفيق واللف،⁽³⁾ ولعل ذلك ما جعل ابن رشيق يقول عنه: «وفرقة أصحاب جلبة وقعقة بلا طائل معنى إلا القليل النادر كأبي القاسم بن هانئ ومن جرى مجراه»⁽⁴⁾.

وإلى هذا أشار أبو العلاء عندما سمع شعره: «ما أشبهه إلا برحى تطحنُ قرونا»⁽⁵⁾، غير أن ابن خلكان يعزو ذلك إلى تعصب المعري للمتني، مما ينفي أن شعره كله جعجعة بلا طحن.

وكان ابن هانئ يستقي من شعراء آخرين، فقد قلّد أبا نواس في وصف مجالس لهوه، فیدعو صاحبيه الى طرد الهمّ براح مُعتقة أو يتذكّر الجِسان وهنّ يُقدّمن له شرابه المفضل، أو يصف الساقبي بالغصن المتمايل فوق الكشب:

(1) ابن خلكان، وفيات الأعيان، 5/2.

(2) جودت الركابي، في الأدب الأندلسي، ص 90.

(3) انظر: الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص 422.

(4) العمدة، 1/080.

(5) ابن خلكان، م.س، 5/2.

يقولون: حَقَفَ فوقه خيزرانةٌ أما يعرفون الخيزرانة والحَقَفَا
ويقلد عمر بن أبي ربيعة في بعض مغامراته الغزلية، وبخاصة مغامراته مع
صاحبتة نَعَم:

فقد أطرقُ الحيَّ بعد الهجوع تصلُّ أسنَّتْهم والظُّبي
فألهو على رقبة الكاشحين بمُفعمة السَّوقِ خُرس البُرى
وأيا كان الأمر، فابن هانيء شاعر أندلسي في أوصافه وتصويره للطبيعة، وهو
شاعر الدولة الفاطمية في مدائحه وبامتيازه.

المبحث الثالث

ابن درّاج القسطلي (- 421هـ / 1030هـ)

هو أحمد بن محمد بن درّاج القسطلي، ويُنسب إلى بني درّاج، وهم فرع من صنهاجة⁽¹⁾ المنسوب لقسطة درّاج من أعمال جيان، وُلد بقسطة في المحرم سنة 347هـ/ آذار 958م.⁽²⁾

وكان كاتب المنصور ابن أبي عامر وزير الأمويين، كما كان شاعره، ويبدو أنه مرّ بمحنة في أول عهده به، إذ تألّب عليه الحساد وأدّعوا عليه عند المنصور أنه متحل سارق لا يستحق أن يكون له عطاء منظم، فامتحنه المنصور وعقد له مجلساً سنة 382هـ، وطلب منه أن ينظم في موضوع معين، فنظم ما أعجبه، فأعطاه مائة دينار وأجرى عليه الرزق، وكتب اسمه في ديوان العطاء، وقد دافع عن نفسه بقصيدة بائية مطلعها⁽³⁾:

حَسبي رضاك من الدهر الذي عَتَبَا وعطفُ نِعماك للحظّ الذي انقلبَا
ويذكر فيها أن الناس دأبوا على اتهام كبار الشعراء، بقوله:
ولستُ أوَّلَ مَنْ أَعَيْتَ بدائعهُ فاستدعتِ القولَ مِمَّنْ ظَنُّوا حَسِيبَا
إن امرأ القيس في بعضِ لُمُتْهُمَّ وفي يديه لواء الشعرِ إن ركبَا
ولا يلبث أن يزهو بنثره وشعره، لائذاً بوقوف المنصور إلى جانبه، فيقول:
عبدٌ لِنِعماك في فكّيه نجمٌ هدى سارٍ بمدحك يجلو الشكَّ والرّيبَا
إن شئت أملئ بديع الشعرِ أو كتبَا أو شئتَ خاطبَ بالمشور أو خطبَا

(1) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص 466.

(2) انظر: ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان، 1/ 42، وبيمة الدهر للثعالبي، والمجلد الأول من الذخيرة ص 43.

(3) الديوان، ص 363.

وإذ اطمئن الشاعر إلى ثبوت منزلته عند المنصور أخذ يكثر من مديحه، من ذلك قصيدته الرائية التي يصف فيها وداعه لزوجته ويذكر ابنه الصغير الذي خلفه وراءه، وصعوبة الفراق:

ولما تدانت للوداع وقد هفا بصبري منها أنة وزفير
تُناشدني عهدَ المودة والهوى وفي المهدِ مبغومُ النداء صغيرُ
عَصِيْتُ شَفِيعَ النفس فيه وقادني رواحٌ بتدآبِ السرى وبُكورُ
وطار جناحُ اليبين بي وهفت بها جوانحُ من ذعرِ الفراقِ تطيرُ
وهي أبيات تفيض بالعاطفة الصادقة، ثم أخذ يمدح المنصور مفلداً المتنبي، وناسجاً على منواله، في مثل قوله:

أُثِرْنِي لخطبِ الدهرِ، والذهرُ معضلُ وكلني لليلِ الغابِ وهو هَصورُ
وقد تُخَفِّضُ الأسماءَ وهي سواكنُ ويعملُ في الفعلِ الصحيحِ ضميرُ
وتنبو الرُدينيَّاتُ والطولُ وافرُ ويُعِدُّ وقعَ السهمِ وهو قصيرُ

وكذلك سجل في مدائحه انتصارات المنصور المتوالية، ووصف فيها أدوات الحرب من خيل وسيوف ورماح، عرّج في كثيرٍ منها على مدح ابنه المظفر، في مثل قوله:

هو النصرُ والتمكينُ أدركَ طالبه ولاحت وشيكا بالسعود كواكبه
وقوله:

شهدتُ لك الأبطالُ يومَ كفاحها والحربُ بين غُدوِّها ورواحها
وقوله:

تبلّجَ عن إشراقِ غُرَّتِكَ الصُّبحُ وأسفرَ عن إقدامِكَ النَّصرُ والفتحُ

ولم تلبث قرطبة أن تعرضت لفتنة عاتية، تزعمها البرابرة بالتواطؤ مع سليمان (المستعين) سنة 400هـ، فعصفت بكيانها واقتلعت قصورها وشردت أدباءها وعلماءها، وفيهم ابن دراج القسطلبي مع عدد من الشعراء الذين «نسجت على أفواههم ومحاربهم العناكب أيام الحرب والفتنة، واشتدت فاقتهم»⁽¹⁾، وقد نكب شاعرنا ولم يجد قوت عياله، فخرج في طلب الرزق، ليقف على أبواب الأمراء الذين اقتسموا الأندلس بعد الفتنة، فقصده المستعين وأنشده مديحه مهنئاً، فلم ينل منه شيئاً، ولم يلبث أن قصد خيران العامري صاحب المرية ثم مظفرأ ومباركا العامريين صاحبي بلنسية، واستقر أخيراً عند منذر بن يحيى صاحب سرقسطة الملقب بذي الرياستين، وقد مدحه بست وعشرين قصيدة، وتحدث في بعضها عن أبنائه وما لاقوه من أهوال إبان تنقلهم واغترابهم إذ يقول⁽²⁾:

وبين ضلوعي بضع عشرة مُهجةً ظمأً إلى جدوى يدك حوائمُ
تلدُّ الليالي لحمها ودماءها وطعمُ الليالي عندهنَّ علاقمُ
قطعتُ بهنَّ الليلَ والليلُ جامدٌ وخضتُ بهنَّ الآلَ والآلُ جاحمُ
إذا ملأَ الهولُ الميْتُ صدورَها تحركَ من ذكراكُ فيها تمائمُ

وقد طال مقام الشاعر في سرقسطة، كان يصيب فيها رزقه من مدائحه، وإذا أحسَّ بإهمال عمدوحه عزم على الرحيل وقد تقدمت به السن، فتوجه إلى بلنسية ومدح صاحبها ابن شنجول، ومدح مجاهدا العامري سنة 419هـ، بدانية ولعله مات بها ليلة الأحد لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الثانية سنة 421هـ⁽³⁾.

شعره

يشغل المديح الجانب الأعظم في ديوانه، فقد مدح به فئات متعددة من الناس، يمثلون عهوداً متفاوتة، وقد شغلته لقمة العيش عن التأمل في مأساة الأندلس وسقوط

(1) لسان الدين بن الخطيب، أعمال الأعلام، ص 122.

(2) الديوان، 165.

(3) انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان، 1 / 42.

مدنها في أيدي الأعداء، سوى التفاته للفتنة التي ألحقت بقرطبة خراباً ودماراً، إذ يقول⁽¹⁾ :

في جاهلية فتنة عبت بها دون الإله مضلة الأرباب
تستقسم الأزلأم في مهجانتنا وتسيل أنفسنا على الأنصاب
غيراً من الأيام أصبح ماؤها غوراً وأعقب صفوها بعقاب
وبوارقاً للغى أضرم نورها ناراً وصاب غمامها بالصاب
وهي آيات تصور الفتنة خير تصوير.

ولعل شغله بتدبير رزقه ورزق أبنائه جعله يشكو من الدهر في كثير من قصائده، مستمداً صوت التنبي في هذا الصدد، فنسمعه يخاطب ابنه مبشراً بما لقي في رحاب منذر بن يحيى⁽²⁾ :

أبني لا تذهب بنفسك حسرةً عن غولٍ رحلي مُنجداً أو مُغوراً
فلئن تركت الليل فوقى داجياً فلقد لقيت الصُّبحَ بعدك أزهرأ
وحللت أرضاً بُدلت حصاؤها ذهباً يرفُّ لناظريَّ وجوهرأ
وقد يُشبه أبنائه بيوسف عليه السلام وإخوته والأحد عشر كوكباً، ليخلص إلى أنهم قد نجوا مثله من القتل، وتغربوا على شاكلته، فيقول:

أخو ظمأٍ يمصُّ حشاهُ سبعٌ وأربعةٌ وكلُّهم ظمأء
كأنجم يوسفٍ عدداً ولكن برؤيا هذه برح الخفاء
وكلُّهم ليوسفٍ إذ فدها من القتلِ التغرُّبُ والجلأ

(1) الديوان، ص 184.

(2) الذخيرة، 1/ 1/ 67. والديوان، ص 327.

ويشير في إحدى مدائحه للمنصور إلى عجزه عن المشاركة في الحرب، واكبر الظن أنه عجز جسماني⁽¹⁾:

وربما كنت أمضي في مكارهها قدماً وأثبتُ قي أهوالها الجون
لكن سهاً من الأقدار ما برحت على مرأصد ذاك الماء ترميني
ومن هنا أضفى على غزله لوناً من الصور الحربية، في معرض حديثه عن
مغامراته العاطفية في صباه، إذ يقول:

أوجفتُ خيلي في الهوى وركابي وقذفتُ بُلي في الصِّبا وجرابي
وسَلَلْتُ في سُلِّ الغواية صارماً عَضْباً ترقرق فيه ماءً شبابي
ويختتم هذه الصور التي جلاها بأدوات القتال وفنون الحرب بقوله:

حتى افتتحتُ عن الأحبة معقلاً وعَرَ المسالكِ مُقفلاً الأبوابِ
ووقفتُ موقفَ عاشقٍ حَلَّتْ له فيه غنيمَةٌ كاعبٍ وكَعَابِ

ولعل انكبابه على المديح الذي سعى إليه لكسب رزقه، جعله ينصرف عن
الأغراض الشعرية الأخرى، فهو لم يقل في الرثاء إلا نزرأ يسيراً، وله أبيات في وصف
الأزهار نظمها بطلب من المظفر بن أبي عامر، وله غزل مُصطنع جاء في مقدمات
قصائده الطوال.

ديوانه

له ديوان شعر نُشر في دمشق بتحقيق الدكتور محمود مكي سنة 1961م.
ويشتمل على 162 قصيدة أضيف إليها ملحق ببعض قصائد لم ترد في ديوانه.

استلهامه شعر السابقين

يلاحظ المتفحص لشعر ابن درّاج القسطلي تأثره بعدد من الشعراء السابقين،
فقد لاحظ صاحب الذخيرة أنه كان يتتبع المتنبي في شعره ويُغير على معانيه في غير
موضع، في مثل قوله في وصف فرس⁽²⁾:

(1) انظر إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص 362.

(2) التحجيل: بياض في قوائم الفرس. الشُّكْل: جمع شكال وهو القيد الذي تُشد به قوائم الفرس.

وذو غُرَّةٍ معروفةٍ السَّبْقِ في المدى وقد قِرَحَ التحجيلُ من حَلَقِ الشُّكْلِ
نظر فيه إلى قول المتنبي⁽¹⁾:

وإن تكن مُحكماتُ الشُّكْلِ تمنعني ظُهور جَرِيٍ فلي فيهنَّ نُصْهالُ
وتأثر بأبي نواس إذ عارض قصيدته الرائية في مدح الخصيب بطلب من المنصور
ابن أبي عامر⁽²⁾:

أجارةً بيتينا أبوكُ غيور وميسور ما يُرجى لديك عسيرُ
بقصيدة مطلعها⁽³⁾:

ألم تعلمي أنَّ الثَّواء هو النَّوى وأن ييوتَ العاجزين قبورُ
ومن يتأمل القصيدتين يلاحظ تأثر ابن درَّاج بأبي نواس في كثير من معانيه، كما
استعار منه الوزن والقافية، فالقصيدتان تجريان على البحر الطويل ورويهما الراء.
ولم يكتفِ ابن دراج بتقليد المشاركة كالمثني وأبي نواس، وإنما نراه يشغف بتقليد
ابن هانيء الأندلسي في قوله⁽⁴⁾:

إن كان واديك ممنوعاً فموعدا وادي الكرى فلعلِّي فيه ألقاكُ
فقد نظر فيه إلى قول ابن هانيء:

عيناكُ أم مغناكُ موعداً وفي وادي الكرى نلقاكُ أم واديك

خصائص وسمات

1. قصر ابن درَّاج فنه على المديح، دون غيره من فنون الشعر سوى قصائد محدودة في الرثاء ووصف الأزهار، وبعض المطالع الغزلية.

(1) الذخيرة، 63 / 1 / 1.

(2) ديوان أبي نواس، ص 480.

(3) الديوان، ص 303، التوى: الهلاك.

(4) الثعالي، بتيمة الدهر، ص 440.

2. يلزم التصنع في شعره حتى في القصائد التي يحاول أن يعبر فيها تعبيراً حُرّاً عن عاطفته⁽¹⁾، فهو يملأ شعره بالمحسنات البديعية من جناس وطباق، ويُعنى بالغريب والأنساب والأمثال والاقتباس والتضمين.
3. مولع بالتقليد، فقد تتبع بعض الشعراء المشاركة كأبي نواس والشريف الرضي والمتنبي، ولم يكتفِ بتقليد المشاركة وإنما كان يقلد ابن هانيء الأندلسي في بعض قصائده.
- 4 شعره جزل قوي الصياغة، «فكان مزجاً عجيباً بين طريقة العرب وطريقة المحدثين، وتجيء قصيدته على مسرد واحد لا ارتفاع فيها ولا انخفاض⁽²⁾» بمعنى أنه حافظ على مستوى عالٍ في قصيدته من أولها إلى آخرها.

(1) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص 429.

(2) إحسان عباس، تاريخ الدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص 266 و 267.

المبحث الرابع

ابن شهيد (-426هـ / 1035م)

حياته

هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن مروان بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد، وبنو شهيد من بيوتات الشعر في الأندلس، يعود نسبهم إلى غطفان، من ولد الوضّاح ابن رزاح الذي كان مع الضحاك بن قيس يوم مرج راهط.

كان والده عبد الملك من شيوخ الدولة العامية، مقرباً من المنصور بن أبي عامر (-392 هـ) الذي استقر الحكم له لعهد الخليفة هشام المؤيد، وقد دام ملكه ستاً وعشرين سنة⁽¹⁾

ولد ابن شهيد سنة 382هـ في قرطبة في الحي المسمى «منية المغيرة» في الدار المعروفة بدار ابن النعمان، وترعرع في حياة منعمة مترفة في ظل العامرين، حيث عمل والده في خدمتهم تسع سنوات نال فيها حظاً من الثراء، فضلاً عن رعاية المنصور وتدليله له، فقد دخل عليه وهو في الخامسة من عمره، فرأى بين يديه تفاحة كبيرة، فأخذ يتأملها تأمل الشّره، فأمره المنصور بأن يأخذها ويأكلها، فلما أطبق على بعضها فمه لم يستطع أن يقطع منها شيئاً. فتناولها المنصور منه، وأخذ يقطع له بفمه ويطعمه.

كما أغدق عليه المال، الذي بدّده على لعبه وعلى لِداته⁽²⁾ وظل يعيش في رعاية ملوك الدولة العامية وأمرائها بعد أن تنسك والده وأخذ يتقشّف على أبنائه، إذ عمد إلى ابنه أحمد وكان يومئذ في الثامنة، فحلق لّمته، وانتزع ما عليه من ثياب الخزّ والوشي، وألبسه بدلاً منها ثياباً بسيطة، وإذ علم المظفر بن المنصور ولي العهد - وكان المنصور غائباً - استقدم الغلام إليه وألبسه ثياب الحرير، وحمله على فرس بسرجه ولجامه، وأعطاه ألف دينار. وقد كان لهاتين الحادثتين أثر عميق في نفسية أحمد يشبه الحقد⁽³⁾.

(1) نفح الطيب، 1 / 373 - 376.

(2) انظر: الذخيرة، 1 / 1 / 165.

(3) انظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر قرطبة)، ص 272 و 273.

وبعد موت المنصور بن أبي عامر، خلفه ابنه عبد الملك لمدة سبع سنوات، فابنه الثاني عبد الرحمن الذي قتله خصومه وحملوا رأسه إلى المهدي سنة 399، وبذلك انتهت دولة بني عامر، وتُكبت قرطبة بعد انقضاء أيامها السعيدة في ظلهم، ولم يفارقها ابن شهيد وإنما اكتفى بالنظر إلى معاهدها الدارسة في أسى ولوعة، وأخذ يبكي قصورها ومنتزهاتها، معللاً بقاءه فيها بحبه لقرطبة وإن كانت عجوزاً متغيرة الريح، ساقطة الأسنان و« طاب له الموت على هواها»⁽¹⁾

ولما أصبح أمر قرطبة في أيدي بني حمود سنة 407هـ وصل أبو عامر أسبابه بهم، وهم من شيعة المغرب، يُنسبون إلى إدريس من سلالة الحسن بن علي.

ونظراً لمكانته الأدبية والاجتماعية التي حظي بها كثر الحاسدون والحاقدون عليه، وحاولوا الانتقاص من شعره وأدبه، وسعوا للوقيعة بينه وبين الأمراء، فتكدّرت حياته، وزُجَّ به في السجن إبان حكمهم وفقد ماله، فكتب إلى ابن حمود رسالة قي صفة السجن والمسجون، وألحق بها قصيدة في الشكوى، إذ يقول:

فراقٌ وسجنٌ واشتياقٌ وذِلَّةٌ وجَبَّارٌ حَفَاطٌ عليّ عِتْدُ
فمنْ مُبْلَغُ الفتيانِ آتِي بعدهم مقيمٌ بدارِ الظالمينِ وحيدُ
مُقيمٌ بدارٍ ساكنوها من الأذى قيامٌ على جمرِ الحِمَامِ قُعودُ

ثم أخذ يستعطف المعتلي بن حمود صاحب مالقة وإشبيلية بقوله:

وراضتْ صعايبُ سطوةً علويّةً لها بارقٌ نحو الندى ورعودُ
تقولُ التي من بيتها خفٌّ مركبي: أقربُك دانٍ أم نواكُ بعيْدُ
فقلتُ لها: أمري إلى من سَمَتَ به إلى المجدِ آبَاءَ له وجُدودُ

ولم يلبث أن أطلق المعتلي سراحه، فمدحه في عدّة قصائد، منها قصيدة أنشدها لما انتصر على ابن الشرب، منها:

فريقُ العِدا من حدٍّ عزمك يَفِرُّ وبالدهرِ مما خاف بطشك أوثقُ

(1) الذخيرة، 1/1/175، وتاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص 273.

عجبتُ لمن يعتدُّ لمن دونك جُنَّةً وسهمك سعدٌ والقضاءُ مُفَوَّقُ

وإذ عادت السلطة إلى البيت المرواني، وتعاقب فيها خلفاء مستضعفون، انتهت بخلع هشام الثالث المعتد بالله سنة 422هـ / 1031م، وهي فترة مضطربة وَزَرَ فيها ابن شهيد أولاً للمستظهر مع صديقه ابن حزم ثم أصبح جليساً لهشام المعتد⁽¹⁾ وقد رثاه حين خُلع بقوله⁽²⁾.

أحللتني بمحلَّة الجوزاء ورويتُ عندك من دم الأعداء
وحملتني كالصقر فوق معاشرٍ تحي كأنهم بناتُ الماء

علاقته بمعاصريه

كان تربط ابن شهيد علاقات بمعاصريه من الأدباء والشعراء، فقد جرت بينه وبين صديقه ابن الحناط الأعمى «مناقضات في عدة رسائل وقصائد أشرقت أبا عامر وأخذت عليه بفروج الهواء»⁽³⁾.

ويعد ابن حزم أقرب أصدقائه إليه، عاشاً معا في ظل الدولة العامية. وإذ مرض ابن شهيد كتب إلى ابن حزم أبياتا يذكر فيها أخوته وصادقته: ⁽⁴⁾

فمن مُبلِّغ عني ابن حزم وكان لي يداً في ملماتي وعند مضايقي
عليك سلامُ الله إنني مفارقٌ «وحسبك زاداً من حبيبٍ مُفارقٍ»
فلا تنسَ تأييني إذا ما فقدتني وتذكّارَ أيامي وفضلَ خلائقي
فلي في اذكاري بعد موتي راحةٌ فلا تمنعونيها علالة زاهقٍ

(1) الذخيرة، 1/1 ص 273.

(2) المغرب، 1/85 و123.

(3) م.ن.

(4) الذخيرة، 1/1 ص 383.

فأجابه ابن حزم بقوله:

أبا عامر ناديتَ خِلاً مُصافياً يُفدِّيكَ من دُهم الخطوب الطوارق
وَأَلَمْتَ قلباً مخلصاً لكَ مُمحضاً بودَّكَ موصولَ العُرى والعلائق

ومن أوثق العلاقات ما كان بينه وبين عبد العزيز بن أبي عامر، وقد مدحه بقصائد عدّة، منها قصيدته التي مطلعها: (1)

هاتيك دارهُمُ فقِفْ بمغانيها تجدِ الدموعَ تجدُ في هملانها

وكذلك ارتبط بصلة وثيقة باثنين من العامريين هما: المؤتمن عبدالعزيز، وكان يرأسه ويمدحه. (2) وأبو عامر بن المظفر الذي كان يُجالسه في قرطبة، حتى لنرى ابن شهيد يسهر عنده وفي مجلسه طفلة تُقدم لهم الشراب تسمى أسماء، فعجبوا من مكابذتها السهر على صغر سنّها وطلب ابن المظفر إلى ابن شهيد وصفها، فقال (3)

أفدي أسيماً من نديم مُلازم للكؤوس راتب
قد عجبوا في السُّهاد منها وهي لعمري من العجائب
قالوا تجافى الرقاد عنها فقلت: لا ترقد الكواكب

وفاته

اصطلحت العلل والأمراض على ابن شهيد في مستهلّ ذي العقدة سنة 425هـ، فقد أصيب بداء في صدره تمثّل في ضيق النَّفس والنفخ، ثم أصيب بالفالج طوال سبعة أشهر كاملة، قاسى فيها العذاب الشديد، حتى لنراه يهْمُ بالتخلص من الحياة، لكنه استسلم لقضاء الله، فنسمعه يقول (4):

أنوح على نفسي وأندبُ بُلها إذا أنا في الضراء أزمعتُ قتلها

(1) الذخيرة، 1/1 ص 173

(2) م.ن، 260.

(3) م.ن.

(4) م.ن، 1/1، ص 281-289.

رضيت قضاء الله في كل حالة عليّ وأحكاماً تيقنتُ عدلها
وتجدر الإشارة إلى أنّ ابن شهيد كان أصمّ، وكان لصممه آثار سلبية في حياته.
ونراه يتذكر أصدقاءه قبل موته، وكان آخر ما قاله في وداعهم⁽¹⁾:

أستودعُ الله إخواني وعِشرتهم وكلُّ خِرْقٍ إلى العلياء سَبَّاقٍ
وكوكباً لي منهم كان مغربه قلبي ومشرقهُ ما بين أطواقِي
الله يعلمُ أني ما أفارقهُ إلا وفي الصّدر مني حرٌّ مشتاقُ
كُنّا أليفين خان الدّهرُ ألفتنا وأيُّ حرٍّ على صَرف الرّدى باقٍ

وقد أوصى قبل وفاته بجملة وصايا، منها أن يُكتب على قبره:

«بسم الله الرحمن الرحيم، قل هو نَبأٌ عظيمٌ أنتم مُعرضون. هذا قبر أحمد بن
عبد الملك بن شهيد المذنب، مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،
وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ الجنة حق وأنّ البعث حق وأنّ الساعة آتية لا ريب
فيها، وأنّ الله يبعث مَنْ في القبور»، ثم يُكتب تاريخ الوفاة بالشهر والسنة، وأبيات من
الشعر.

وافته المنية بقرطبة، ضُحى يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة 426هـ.

آثاره

لم يصلنا من شعر ابن شهيد سوى القليل، إذ جاء متفرقاً في بعض كتب الأدب
مثل «يتيمة الدهر» للثعالبي، و «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» لابن بسام، و «وفيات
الأعيان» لابن خلكان.

وكذلك لم يصلنا من نثره سوى فصول من رسالة سمّاها «التوابع والزوابع»
التي احتفظ بها صاحب الذخيرة، وقد نشرها حديثاً في بيروت بطرس البستاني معتمداً
على ما جاء منها في الذخيرة.

(1) انظر: الذخيرة، 1/1 ص 281 وما بعدها.

شعره

يدور شعره حول موضوعات تقليدية كالمَدح والرثاء والهجاء والوصف والخمريات وهو في الشعر «خير ثمرة لمدرسة القالي التي جنحت إلى القوة والجزالة البدوية⁽¹⁾».

عُرف ابن شهيد بصوره الشعرية المبتكرة، في مثل قوله:

فكَأَنَّ النجوم في الليل جيشٌ دخلوا للكمون في جوف غابٍ
وَكأنَّ الصَّبَّاحَ قانصٌ طيرٌ قبضتْ كَفَّهُ برجل غرابٍ

وهما صورتان طريفتان تقومان على التشخيص الذي يبعث فيهما الحركة والحياة، فقد تخيل النجوم جيشاً والصبح قانص طير، ثم جسّم سواد الليل فلماذا هو جوف غاب حيناً ورجل غراب حيناً آخر .
ومن صورهِ أيضاً:

ورعيتُ من وجه السماء خميلاً خضراء لآح البدر من غدرانها
زكَانَ نثر النجم ضاًئاً وسَطَها وكأئما الجوزاء راعي ضائها

فقد تخيل السماء خميلاً خضراء وقد لاح القمر من بين غدرانها يضيء في وسط الظلام، ثم امتد به الخيال فجعل نجومها مثل قطعان الضأن، وجعل الجوزاء راعياً لها.
ومن صورهِ الغريبة قوله في الغزل:

فَمَشَتْ نَحوي وقد مُلكتْها مِشْيَةُ العُصْفورِ نَحو الثعلبِ

وهو خيال مصنوع لأنه غير مرتبط بالإدراك الوجداني أو الإحساس العاطفي، فقد صورَ مِشْيَةَ المحبوبة نَحوه مثل مِشْيَةِ العُصْفورِ نَحو الثعلب ، وهو تصوير يحمل معاني العذاب والألم والاستبشاع يخالف تماماً الموقف العاطفي للمحبين.
ومن صورهِ الجميلة وصفه لليل:

تراه كملك الزنج في قَرطٍ كبره إذا رام مِشياً في تبخُّثِهِ أبطا

(1) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، ص 293.

مُطْلاً عَلَى الْآفَاقِ وَالْبَدْرُ تَاجُهُ وَقَدْ عَلَّقَ الْجُوزَاءُ فِي أُذُنِهِ قُرْطَا
وواضح أن العاطفة هنا قد كشفت عن شغف الشاعر بالصورة العالية وأنه نظر
إلى الليل بهذا الإحساس، فمثله ملكاً من ملوك الزنج يمشي بجيلاء وبطء، ثم صوّر
القمر تاجاً له، والجوزاء قُرْطَا في أذنه، وهي صورة مصنوعة.
ولاحظ الدكتور إحسان عباس أن ابن شهيد - وهو الأصم - يميل في شعره إلى
الحوار، في مثل قوله:

وغمّام باكرتتنا عيُّنه تُثْرِعُ الْأَفْقَ بِدَمْعِ صَيِّبِ
فَسألناه وقد أعجبنا حشوه العين بمراى عجبِ
أنت ماذا؟ قال: مُزِنُ عَلِمْتُ كَفَّهُ النَّجْعَةُ كَفًّا دَرَبِ
سامني بالشرق أن أسقيكم رَحْمَةً مِنْهُ بِأَقْصَى الْمَغْرِبِ
فَسألناه: أَبْنُ ذَاكَ لَنَا قال: هل يخفى ضياء الكوكب؟

فقد أجرى حواراً بينه وبين الغمام، وأخذ يسأله، والغمام يجيبه.

وشعره جزل قوي يكاد يقترب من المشاركة سواء بمعارضاته الشعرية التي عرف
بها أو بروحه البدوية في مثل قوله:

يا صاحبي إذا ونى حاديكما فتنشقا النفحات من طيَّانها
وخُذْذا لمرتبِع الحسان فرمما شفع الشبابُ فكنت إلفَ حسانها
فهو يستمد منهم، ولكننا نقع عنده على صور طريفة كالتى مرّت بنا آنفاً، وكان
ذوقه قريباً من ذوق المُصنِّعين من خلال شغفه أحياناً بالجناس المتكلف في مثل قوله:
وتكفُري برداء وصل مُقرطقي كتبوا بنفس المسك في كافوره
مُتَلَفِّعٌ بجريره مُتَضَمِّعٌ بعبيره، مترنِّحٌ بفتوره
يدعو بُلكنة بربري لم يزل يستفُّ بالصحرَاءِ حبَّ بريره
متقدِّمٌ بمضائه مُتَلَفِّعٌ بردائه مُتَكَلِّمٌ في عيره

وهذا فضلاً عن جمال التقسيم الذي نلمسه في البيتين الثاني والرابع، مما أضفى
لونا من الإيقاع الموسيقي الصاحب.

واتهم ابن شهيد بالانتحال، فقد زعم أبو بكر المعروف باشكمياط أنه يتنحل ما
لغيره، وهي تهمة خطيرة كانت تملأه غيظاً، ويشير إلى ذلك بقوله⁽¹⁾:

وَبُلَّغْتُ أَفْوَماً تَجِيشُ صُدُورَهُمْ عَلِيٌّ وَإِنِّي مِنْهُمْ فَارِغُ الصَّدْرِ
أَصَاخُوا إِلَى قَوْلِي فَأَسْمَعْتُ مُعْجِزاً وَغَاصُوا عَلَى سَرِّي فَأَعْيَاهُمْ أَمْرِي
فَقَالَ فَرِيقٌ: لَيْسَ ذَا الشَّعْرُ شَعْرُهُ وَقَالَ فَرِيقٌ: أَيْمُنُ اللَّهُ مَا نَدْرِي

وهو اتهام كما يرى الدكتور إحسان عباس مبني على الحسد، ولكنه لا يعدم
حظاً ضئيلاً من الصواب، فصاحب الذخيرة يذكر أن ابن شهيد كان يستعير معاني أبي
العلاء في بعض أشعاره، لكنه غطى على محاكاته وأخذه بعض المعاني من غيره، بأنه
يحاول دائماً أن يكون مبتكراً مُجَدِّداً⁽²⁾.

(1) الذخيرة، 1/1 ص 233.

(2) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة) ص 298.

المبحث الخامس

ابن زيدون وولادة بنت المستكفي (-463هـ / 1071هـ)

حياته

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي، وينتهي نسبه إلى قبيلة مخزوم القرشية التي دخلت إلى الأندلس⁽¹⁾، ولد بالرّصافة أحد أرباض قرطبة سنة 394هـ / 1003م، وكان سليل أسرة عريقة، فكان والده من أعيان قرطبة، إلا أنه توفي سنة 405هـ حين بلغ ابن زيدون الحادية عشرة من عمره، فتعهده جده لأمه أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم، وهياً له ثقافة واسعة على أساتذة كبار منهم أستاذه أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي، فلم يعلوم عصره وبرع في الأدب نثره وشعره. وكانت له ثقافة فلسفية، ولم يلبث أن نال شهرة واسعة في مجالس قرطبة الأدبية والاجتماعية والسياسية.

أما أمه فقد ذكرها ابن زيدون مرتين في آثاره، الأولى عندما زارته في السجن، فبكت، فقال قصيدته⁽²⁾:

ألم يأن أن يبكي الغمامُ على مثلي ويطلبَ ناري البرقُ مُنصَلتَ النَّصْلِ
والثانية في رسالته إلى أستاذه أبي بكر بن مسلم التي يقول فيها: « وغبْتُ عن أمِّ
أنا واحداً، تمتدُّ أنفاسها شوقاً إليّ، وتغضُّ أجفانها حزناً عليّ... »⁽³⁾

وقد علمنا أن له ابناً يدعى أبا بكر وَزَرَ للمعتمد بعد وفاة ابن زيدون سنة 463هـ، وقُتل يوم سقطت إشبيلية بيد المرابطين سنة 484هـ.

حظي ابن زيدون بمناصب رفيعة، إذ انقطع إلى بني جهور في قرطبة، وتقرب إلى أبي الحزم بن جهور فكان سفيره وشاعره، وقد أناله لقب «ذي الوزارتين» وارتبط أيضاً بصداقة وثيقة بابنه أبي الوليد.

(1) انظر نفح الطيب، 5 / 168.

(2) الديوان، ص 12.

(3) الذخيرة، 1 / 2 ص 353.

وقد حسده أقرانه من الأدباء على مكانته الرفيعة لدى بني جهور، فأوغر عليه ابن عبدوس صدر ابن جَهْوَر، وكانت قد جرت بينهما منافسة على ولادة بنت المستكفي، فسجنه الأمير، وأخذ ابن زيدون يُنشيء الرسائل وينظم القصائد يستدرّ بها عطف ابن جَهْوَر، ولما أخفق في نيل عفوهِ فرّ من سجنه، واختبأ في الزهراء ضاحية قرطبة، وكتب إليها من مخبئه قصيدته القافية المشهورة:

إنني ذكرتُك بالزهراء مشتاقاً والأفقُ طَلَقُ ومرأى الأرض قد راقا

ولم يلبث أن نال عفو ابن جهور، ثم إنه عمل وزيراً وسفيراً لبني جهور لدى ملوك الطوائف، ولكنه خاف وشي الحساد والأعداء، فأخذ يضرب في أكناف بلاد الأندلس، فنزل عند صاحب إشبيلية المعتضد فولاه مقاليد الوزارة. وفي عهد المعتمد ابن المعتضد انتقل إلى قرطبة إثر استيلاء بني جهور عليها، ولما ثارت إشبيلية على اليهود سعى خصوم ابن زيدون ليرسله إليها، ونجحوا في مسعاهم، فعاش بقية عمره في إشبيلية حيث وافته المنية سنة 463هـ / 1071م.

آثاره

لابن زيدون ديوان شعر نشره في القاهرة سنة 1932 كامل كيلاني وعبد الرحمن خليفة، ويضم بين دفتيه مختلف الأغراض الشعرية والغزل على وجه الخصوص. وله مجموعة رسائل منها: الرسالة الجدّية، والرسالة الهزليّة، والرسالة البكريّة، والرسالة المظفريّة، والرسالة العامريّة، والرسالة العبّاديّة⁽¹⁾.

وأهم هذه الرسائل رسالتاه الشهيرتان: الجدّية والهزليّة تتصل الأولى بحياته السياسية وما رافقها من سجن واستعطاف وتتصل الثانية بحياته العاطفية وما اشتملت عليه من حب ومنافسة. وسنذكر الحديث عنهما في الفصل التاسع.

شعره

طرق ابن زيدون أكثر الموضوعات الشعرية التقليدية من مديح ورثاء وعتاب وغزل:

(1) هذه الرسائل ملحقة بديوان ابن زيدون، تحقيق على عبد العظيم، ص 634_776.

الغزل

وهو بحق شاعر الغزل الأندلسي الأول، وشعره الوجداني يتسم بعاطفة قوية صادقة، ويحفل بالركة والعذوبة. وقد هام ابن زيدون بولادة بنت المستكفي، وكان لها محل واسع في ديوانه، فقد قصر غزله عليها، سواء في أوقات لقائه بها أو في فترات الجفاء إبان تعلقها بمنافسه ابن عبدوس، ولعل أرق غزله فيها وأجمله ما قاله وهو بعيد عنها في سجنه أو منفاه.

وواضح أن غزله يدور حول ولادة التي أملت عليه ألوان هذا الغزل، فقد يلجأ إلى عتابها حين تشتد لوعته، وينأى به حبل الوصال.

ويبدو أن العلاقة بين ابن زيدون وولادة لم تجر على وتيرة واحدة، لأسباب عدة منها تقلب ولادة في حبها وشدة غيرتها، ودخول أطراف أخرى بينهما، من أمثال ابن عبدوس منافسه في حبها، « وإذا كانت غيرة ولادة سبباً في سوء ظنها بابن زيدون نفسه ثم تحوّلها عنه فإن شخصية ابن زيدون تُعدّ سبباً آخر، إذ كان شاباً مغروراً بجماله وقتوته، نرجسياً في نظرته لذاته، وكان مُبتلى بمثل الغيرة التي لدى صاحبتة⁽¹⁾ ».

هذه العلاقة كانت تقوم بادىء ذي بدء على أن ابن زيدون هو المعشوق وولادة هي العاشقة، ثم انقلب الحال فأصبحت هي المعشوقة المدلّلة، وأصبح هو يصطلي بنار حبها، فيغار ويشكو السهر، فنسمعه يقول⁽²⁾:

أنتِ معنى الضنى، وسرّ الدموع، وسبيل الهوى، وقصْدُ الولوع
أنتِ والشمسُ ضَرَّتَانِ، ولكنْ لكِ عند الغروب فضلُ الطلوع
وإذ يلتقي الشاعر بها، نسمعه يقول⁽³⁾:

ودَعِ الصَّبْرَ حَبًِّ ودَّعِكِ ذائعٌ من سرّه ما استودعك
يقرع السنّ على أن لم يكنْ زاد في تلك الخطأ إذ شيعك

(1) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والرابطيت)، ص 132.

(2) الديوان، ص 60.

(3) الذخيرة، 1/1 ص 377.

يا أخا البدرِ سناءً وسناً حفظ الله زماناً أرجعك
إن يطُل بعدك ليلى فلكم بتُ أشكو قصرَ الليل معك

فهذه أبيات يقولها ابن زيدون في بواكير الشباب وقد هامت به ولادة، وكثرت بينهما اللقاءات، ثم أخذت العلاقة تفتّر بينهما، ففي لقاء في متدى ولادة الذي كان يحفل بالغناء، وكان لها جارية سوداء حسنة الصوت بارعة العزف اسمها عتبة غنت ذات ليلة:

أحبّتنا إني بلغتُ مؤملي وساعدني دهري وواصلني حبي
وجاء يُهنّيني البشيرُ بوصله فأعطيته نفسي وزدتُ له قلبي

وإذ سأها ابن زيدون أن تعيد الغناء دون إذن من ولادة فقد «خبا منهم التّبسمُ وبدا عارض التجهم⁽¹⁾» بدافع الغيرة التي كانت تملأ صدرها وأخذت ولادة تصدّ عنه وتزداد تدللاً، فيجزع ابن زيدون، ويشكو ويألم ويعاتب ويندم ويتمنى، ويمضي في نسج أبياته الرقيقة مصوراً حبه لها وهيامه بها، فنسمعه يخاطب قلبها⁽²⁾:

أيوحشني الزمانُ، وأنت أنسي ويظلم لي النهارُ وأنت شمسي
وأغرسُ في محبّتك الأمانِي، فأجني الموتَ من ثمرات غرسي
لقد جازيتَ غدراً عن وفائي، وبعثَ مودّتي، ظلماً، ببخس
ولو أن الزمانَ أطاع حُكمي فديتك، من مكارهه، بنفسي

ويخاطب فنّها في أبيات أخرى، لاثذاً بالبديع في تصوير معانيه، فيقول⁽³⁾:

يكفيك أنك إن حملت قلبي ما لم تستطعهُ قلوبُ الناسِ يستطع
يَه أحتمل واستطل أصبر وعِزُّ أهْن ووَلُّ أقبل وقل أسمع ومُر أطمع

(1) الذخيرة، 1/ 1/ 378.

(2) الديوان ص 25.

(3) م.ن، ص 68.

وهو إذ يقلد في بيته الثاني كلاً من ديك الجنّ والمتني، فقد جعل طباقته بين أفعال الأمر الصادرة من المحبوب وجواب الطلب الذي يمثل استجابة الحب وطاعته لمحبيه⁽¹⁾.

وتسوء هذه العلاقة حين يتأمر عليه ابن عبدوس ويوقع بينه وبين ولادة بوصفه منافساً له في حبها فيعاتبه ابن زيدون ويذكر ولادة مُعرّضاً بها بقوله⁽²⁾:

وغيرك من عهد ولادة سراب تراءى وبرق ومض
هي الماء يأبى على قابض ويمنع زبدته من مخض
وقبل أن تنفصم عرى الحب بينه وبين ولادة، كتب قصيدة إليها عنيفة، وقد فاض به الكيل، فيقول⁽³⁾:

ألم أوتر الصبر كيما أخف ألم أكثر الهجر كي لا أمل
ألم أرض منك بغير الرضا وأبدي السرور بما لم أنل
ألم اغتفر موبقات الذنوب عمداً أتيت بها أم زل
ولم يدر قلبك كيف التزوغ إلى أن رأى سيرة فامثّل
ثم إن ولادة هجت ابن زيدون هجاء مُقذعا، يُستغرب أن يصدر عن أميرة شاعرة، إلا أنه ظل مخلصاً لها، وكتب إليها أجمل قصائده وأرقها ولعل أشهر هذه القصائد نونيته التي يشكو فيها وجده إلى ولادة:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
وسندّخر الحديث عنها في الفصل التاسع.

وأيّاً كان الأمر، فقد انصرفت ولادة عن ابن زيدون إلى ابن عبدوس، وظل المحب الثاني يكفل لها العيش اللين بعد أن تحيّف الدهر المستطيل حالها، وطال عمرها وعمر أبي عامر حتى أربيا على الثمانين⁽⁴⁾.

(1) انظر: مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، ص 193 و 194.

(2) الذخيرة، 1/1 / 378.

(3) م.ن، 1/1 / 379.

(4) الذخيرة، 1/1 / 379.

المديح

ولابن زيدون مدائح تتصل بحياته السياسية، فبادى ذي بدء اتصل بأبي الحزم ابن جهور، ولم يلبث أن سجنه، فأخذ يرسل إليه مدائحه مستعظفاً كما في قصيدته التي ختم بها رسالته الجدّية، إذ يقول:

أُيْهِذا الوزير ها أنا أشكو والعصا بدء قرعها للحليم⁽¹⁾
ما عنانا أن يأنف السابق المرّ بطّ في العتق منه والتطهيم
وبقاء الحسام في الجفن يثني منه بعد المضاء والتصميم
أفصبرُ مئين خمساً من الأيا م؟ ناهيك من عذاب أليم!
ومُعْنَى من الضنى بهناتٍ نكأت بالكلوم قَرَحَ الكلوم⁽²⁾
نارُ بغِي سرى إلى جنة الأمـ ——— من لظاها فأصبحت كالصريم
بأبي أنت! إن تشأْكَ برداً وسلاماً كنار إبراهيم

ومن ممدوحيه المعتضد بن عباد وابنه المعتمد اللذين أحسنا رعايته ونال عندهما مكانة مرموقة، فكساهما بأجل مدائحه التي اتسمت بصدق العاطفة.

وله مدائح في بعض إخوانه وأساتذته، وهو في مدائحه غير متكسب، وإنما كان له مآرب أخرى، من استعطاف وطلب جاه وقد سار فيها على منهج الأقدمين.

اغراض أخرى

وأجاد في الاستعطاف والشكوى، ويأتيان في تضاعيف غزله ومدحه، وقلما انفرد بهما في قصائد خاصة، في مثل قصيدته التي أرسلها إلى صديقه أبي حفص بن برد ومنها⁽³⁾:

ما على ظنّي بأسٌ يجرحُ الدهرُ ويأسو

(1) ضمنه المثل المعروف: «إن العصا قرعت لذي الحلم».

(2) الهنات: الشدائد، الكلوم: الجروح.

(3) الديوان، ص 197.

ربما أشرف بالمرء على الآمال، ياسُ
ولقد يُنجيك إغفا لَ ويرديك أحتراسُ
والمحاذيرُ سهوًا والمقاصدُ قيواسُ
ولكم أجدى قعودًا ولكم أكدى التماسُ!
وكذا الدهرُ إذا ما عزّ ناسٌ، ذلّ ناسُ
ومرائيه تخلو من العاطفة الصادقة، وهي في بعض مدوحيه أو من يلوذ بهم.
وله مقطوعات في التهاني والإخوانيات.

والحديث عن ابن زيدون يستدعي أن نتحدّث عن ولادة بنت المستكفي،
الشاعرة التي اقترن اسمه بهما.

ولادة بنت المستكفي (- 484هـ/1091م)

ولدت الشاعرة الأميرة ولادة بنت المستكفي بالله في قرطبة في العقد الأخير
من القرن الرابع الهجري، نشأت في بيت أموي عريق، فجدها الثاني هو عبد الرحمن
الناصر (-350هـ)، إلا أن أباه كان خلافا لأبائه وأجداده سيء السيرة، واسمه محمد
ابن عبد الرحمن ويلقب بالمستكفي بالله، مات سنة 416هـ بعد حكم لم يدم طويلاً إذ
ملك سبعة عشر شهراً «صعاب نكدات مشوّهات مشوّمات»⁽¹⁾ ويجمع المؤرخون
على أنه كان لاهياً عابثاً وأنه لم يكن «أسقط منه ولا أنقص، إذ لم يزل مشتهراً بالشرب
والبطالة، سقيم السر والعلانية، أسير الشهوة....»⁽²⁾ واقترن عهده بالشر، استؤصلت
فيه آثار جده الناصر، وبخاصة قصر الزهراء.

ومن حسن الطالع أنها لم تكن كأبيها، فقد كانت مثقفة ذكية، وشاعرة الأندلس
الأولى، وجمعت إلى متنها خيرة الأدباء والشعراء والوزراء، وكذلك شغلت الشعراء
بجمالها الساحر، إذ اقترن اسمها بشاعر الأندلس أبي الوليد ابن زيدون.

(1) ابن بسام، الذخيرة، ج 1/ م 1/ 383.

(2) الذخيرة، ص 380.

ويحدثنا صاحب الذخيرة عن شخصيتها الفذة بقوله: «وكانت من نساء أهل زمانها واحدة أقرانها، حضور شاهد وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعبا لحياد النظم والنثر، يعيش أهل الأدب إلى ضياء غُرَّتْها، ويتهالك أفراد الشعراء والكُتَّاب على حلاوة عِشْرَتِها، إلى سهولة حجابها وكثرة متابها، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب⁽¹⁾» وقد امتد العمر بولادة طويلا، فقد تخطت الثمانين بضع سنين، وبذلك تكون قد عاشت ما يناهز التسعين عاما، وكانت وفاتها سنة 484هـ. يقول ابن بشكوال: «وعمرت طويلا ولم تتزوج قط⁽²⁾» وقد حفلت هذه الحياة بأخبار مثيرة، وشغلت الناس بأشعارها الجريئة على العرف والتقاليد، فقد كتبت بماء الذهب على عاتقها الأيمن:

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتية تيهها
وكتبت على العاتق الأيسر:

وأمكنُ عاشقي من صحن خدي وأعطي قُبلي من يشتهيها
ولادة وابن زيدون

كان لولادة منتدى أدبي في قرطبة يرتاده الأدباء والشعراء والوزراء، وكان ابن زيدون من ألمع الشعراء الذين ارتادوا هذا المنتدى، ونشأت بينهما مودة ومحبة، تحولت إلى قصة حب طغت على ما سواها من قصص الحب والغزل في الأندلس، بوصفها نشأت بين أميرة أموية من بيت الخلافة، وشاعر فذ ينتمي إلى بني مخزوم، ثم انتهت إلى فراق وحسرات على الماضي.

لقد أحبت ولادة ابن زيدون وقالت فيه أجل الغزل وأرقه، فنكتب إليه متلهفة:

ترقب إذا جنَّ الظلامُ زيارتي فلإني رأيت الليلَ أكتُمُ للسَّرِّ
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلُح وبالبدْرِ لم يطلع وبالليل لم يسر

(1) الذخيرة، ج 1 م 1 ص 379.

(2) نفح الطيب، 338/5.

وأنشأت أبياتاً تلوم فيها الشاعر، إذ تقول:

لو كنتَ تنصفُ في الهوى ما بيننا لم تهوَّ جاريتي ولم تتخيَّر
وتركتَ غُصناً مثمراً بجماله وجنحتَ للغُصنِ الذي لم يُثمر
ولقد علمتَ بأنني بدرُ السَّما لكنْ ذهبتَ لشقوتي بالمشتري

فهذه أبيات تنمُّ عن الغيرة الشديدة، بما حوته من لوم وعتاب، واتهام بالخيانة، إذ شَبَّهت نفسها بالغصن المثمر تارة وبالبدر تارة أخرى، لتدل على جاهلها، واعتمدت على التضاد فطابقت بين الإثمار وعدم الإثمار في الغصن، وبين البدر والمشتري، في نطاق الدفاع عن أناعتها وجاهلها.

ولم تلبث أن تشكو فراقه وقد غاب عنها وانقطع عن زيارتها، فتفصح عن مشاعرها بعد هذا التفرق، فتقول:

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق سبيلٌ فيشكو كلُّ صَبٍّ بما لقي
وقد كنتُ أوقاتَ التزاور في الشتا أبيتُ على جمرٍ من الشوق مُحرق
فكيف وقد أمسيتُ في حالِ قُطعةٍ لقد عجلَ المقدورُ ما كنتُ أُنقي
تمرَّ اليالي لا أرى البينَ ينقضي ولا الصبرَ من رِقِّ التشوِّقِ مُعتقي
سقى الله أرضاً قد غَدَتْ لك منزلاً بكلِّ سكوبٍ ها طِلَّ الوبلِ مُغدق

فهي ملتاعة تشكو الوحدة، وتبيت على جمر من الشوق. وإذ يقرأ الشاعر أبياتها، يكتب إليها بيتين يقول فيهما:

لحى الله يوماً لستُ فيه بملتقي مُحياكِ من أجل النوى والتفرُّق
وكيف يطيبُ العيشُ دون مسرةٍ وأيُّ سرورٍ للكثيرِ المؤرِّق

غير أن ثمرة هذا الحب كانت مرّة، فقد نافسه في حُبها صديقه الوزير أبو عامر ابن عبدوس وأبو عبد الله بن القلاس وغيرهما ممن كانوا يرتادون متدى ولآدة. وإذ فضلت في نهاية المطاف ابن زيدون فقد أوقع خصومه بينه وبين ولآدة من جهة، وبينه وبين أبي الحزم من جهة أخرى فسجنه سنة 430 هـ وكتب إليه رسالته الموسومة بـ «الرسالة الجدّية» يعتب فيها ويستعطف، ويتبرأ مما اتُّهم به، ولكنه خيب ظنه، ويبقى زُهاء خمسمائة يوم، ثم يفرُّ من سجنه.

المبحث السادس

ابن حمديس الصقلي (527هـ / 1133م)

حياته

هو أبو محمد عبد الجبار بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي، ولد في جزيرة صقلية سنة 447هـ ونُسب إليها، في أواخر الحكم العربي الذي امتد بين عامي 219 - 464هـ. إذ استولى النرمانديون على صقلية سنة 470هـ، فاكتوى بما حلّ في موطنه من الخراب ويقومه من الاضطهاد والتقتيل، وساء ذلك، لكنه أذكى مشاعره وجعله شديد الانطواء على نفسه. وإذ حلت النكبة بوطنه نزح إلى الأندلس سنة 571هـ، فارق بلده سرقوسة، وقد استدعاه المعتمد بن عباد من قرطبة إلى إشبيلية وأصبح شاعره وتحدث عن علاقته به فقال⁽¹⁾: «لما قدمتُ وافداً على المعتمد بن عباد أقمتُ بإشبيلية مدة لا يلتفت إليّ ولا يعبا بي، حتى قنطت لخيبي مع فرط تعبي، وهممت بالنكوص على عقي، فإني لكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذا بغلام معه شمعة ومركوب، فقال لي: أجب السلطان، فركبت من فوري ودخلت عليه، فأجلسني على مرتبة فنك، وقال لي: افتح الطاق التي تليك، ففتحتها، فإذا بكور زجاج على بعد والنار تلوح من بابيه، وواقدة تفتحهما تارة وتسدهما أخرى، ثم دام سد أحدهما وفتح الآخر، فحين تأملتُهما قال لي أجز:

انظرهما في الظلام قد نجما
فقلت: كما رنا في الدُّجْنَةِ الأسد
فقال: يفتح عينيه ثم يُطبقهما
فقلت: فعل امرئ في جفونه رمد
فقال: فابترّه الدهر نور واحدة
فقلت: وهل نجما من صُروفه أحد

(1) نفح الطيب، 5/ 150.

فاستحسن ذلك وأمر لي بجائزة سنّية وألزمي خدمته ولما استولى ابن تاشفين على دولة بني عبّاد ونفى المعتمد إلى قلعة أغمات لحق ابن حمديس سيده إلى منفاه، حافظاً عهده، وراعياً ذمامه، ونظم قصيدة عبّر فيها عن حزنه لما أصاب المعتمد، ومنها⁽¹⁾:

أبادَ حياتي الموتُ إن كنتُ سالياً وأنتَ مقيمٌ في قيودك عانيا
وإن لم أبارِ المزنَ قطراً بأدمع عليك فلا سُقيتُ منها الغواديا
تعزّبتُ من قلبي الذي كان ضاحكا فما ألبس الأجفان إلا بواكيا
وما فرحي يوم المسرة طائعا ولا حُزني يوم المساء عاصيا

ولما توفي المعتمد سنة 488هـ سار ابن حمديس إلى قرية المهديّة الإفريقية وبقي فيها زمناً، ثم انتقل إلى ميورقة وهي جزيرة صغيرة شرقي الأندلس، فمات بها أعمى بائساً سنة 527هـ.

شعره

يمثل شعر ابن حمديس الطور الثالث للشعر الأندلسي في القرن السادس الهجري الذي أخذ يصوّر البيئة وما فيها من حداثة وجدّة ويُعبّر أيضاً عن نزعات سابقه من القدماء والمحدثين.

ويعد شعر الطبيعة من أبرز أغراضه الشعرية، وهو يتداخل بمجالس لهو ويأتي تنمّة لها «وما علينا إلا أن نقرأ ديوانه لنراه يشرب عند طلوع الفجر في روضة فوّاحة الزهر مخضلة، ويشرب قبل أن ترتشف الشمس ريق الغوادي من ثغور الأقاح، ويشرب عند المغيب والشمس تلبس من الغيم نقاباً، ويشرب على إيماض برق كأنه نور مصباح شبّ في سواد الليل⁽²⁾» ومن هذا الطراز قوله:

طرقتُ والليلُ محدودُ الجناح مرحباً بالشمس في غير صباح

(1) ديوان ابن حمديس، 523.

(2) انظر: سيد نوفل، شعر الطبيعة في الأدب العربي، ص 270 وما بعدها.

ومنها:

في حديقِ غَرَسَ الغيثُ به عَبَقَ الأرواحِ مَوْشِيَ البطاحِ
تعقلُ الطرفَ أَزاهيرَ به ثم تعطيه أَزاهيرَ صُراحِ
أرضعَ الغيمَ لِبائاً بائه فترَبَّت فيه قامات الملاحِ
كلُّ غُصْنٍ تعترى أعطافه رعدةُ النشوانِ من كأسِ اصطباحِ
فقد أراد الشاعر أن يُضفي على مجلس الشراب إحساساً خاصاً بالجو المعطر، والطبيعة المنتشية، إذ تصبح قامات الملاح بعض أغصانها، في حين تسري النشوة في تلك الأغصان.

وقد يمزج الطبيعة بشعر الهموم والشكوى، في مثل قوله في وصف زهرة النيلوفر⁽¹⁾:
ونيلوفرٍ أوراقه مستديرةٌ تفتَحُ فيما بينهن له زهرُ
هو ابنُ بلادي كاغترابي اغترابه كلانا عن الأوطانِ أزعجه الدهرُ
فقد كان الإحساس بالغربة وراء هذه المقطوعة.

ومن مشاهد الطبيعة في مقام الغزل قصيدته الدالية في وصف البرد⁽²⁾:

نشرَ الجوُّ على الأرضِ بَرْدَ أيُّ دُرٍّ لنحورٍ لو جَمَدَ
لؤلؤُ أصدافه السُّحْبُ التي أنجزَ البارقُ منها ما وعَدَ
منحته عارياً من نكدٍ واكتسابُ الدُرِّ بالغوصِ نكدُ
ولقد كادت ثعاطي لَقْطَه رغبةً فيه كريماتُ الخُرْدِ
وثحلّي منه أجياداً إذا عَطَلْتُ راقتكِ في حليّ العَيْدِ
ذوّبته من سماءٍ أدمعَ فوق أرضٍ تتلقّاه بخُذِ
فَجَرَّت منه سيولٌ حولنا كثعابينَ عِجالٍ تطُردُ

(1) ديوان ابن حمديس، ص 151.

(2) م. ن، ص 49.

وتسرى كل غدير مُتأقٍ سبحت فيه قوارير الزبد
فابن حمديس يتخيل البرد المتساقط من السماء دُرّاً في نَحور الحسان، ولؤلؤاً
أصدافه السحب، وقد منحته دون تعب، إذ إنّ اللؤلؤ الطبيعي لا يُنال إلا بالغوص،
وفي ذلك ما فيه من جهد ومشقة.

وينظر الخيال إلى الحسان وهنّ يُسرعن إلى التقاط هذا اللؤلؤ، ليُحلّين به
أجياذهنّ، وهنّ الغانيات بما وهبهنّ الله من جمال طبيعي.

وجعله حبّات دموع وهو يذوب أمام عيني الشاعر فتتلقاه الأرض بخدّها، وقد
تساقط من عيون السماء، ويمضي الخيال في هذا التصوير فإذا هو يجري في سيول كأنها
ثعابين يُسابق بعضها بعضاً، ولم يلبث أن ملأ الغدران، وقد علاه الزبد، فبدا مثل
القوارير السابحة.

ولو أنك أنعمت النظر في خيال ابن حمديس لوجدت أنه استمدّه من طبيعة
الأندلس، وهي طبيعة رائعة خلاّبة استلهمها الشاعر في قصيدته، ولهذا نراه ينتقل من
صورة البرد إلى صور أخرى، وهي صورة البرق، وصورة التّبت في المروج، وطلوع
الفجر وشروق الشمس. ومن ثمّ استطاع خياله أن يؤلف هذه الصورة الرائعة لسقوط
البرد حتى طلوع النهار.

وقد أدّت المحنة التي لحقت بوطنه الأول صقلية إلى انطوائه على نفسه وتبرّمه
بالحياة، وهو ما نلمسه قي شعره، إذ يشكو الزمان والناس، وتبدو نفسه الحزينة كقوله
في وصف نهر:

ومطرِدِ الأجزاء يصقُلُ متنهُ صَباً أعلنت للعين ما في ضميره

جريحٌ بأطرافِ الحصى كلما جرى عليها شكا أوجاعه بخريره

وتبدو عناية الشاعر بتصوير يأسه وزهده على طريقة أبي العتاهية، كقوله⁽¹⁾:

ثقلت خطوتي وفودي تفرّى غيبُ الليل فيه عن نورِ فجرٍ⁽²⁾

(1) ديوان ابن حمديس، ص 265.

(2) الفود: معظم شعر الرأس، تفرّى: انشقَّ، غيبُ الليل: شدة ظلامه وسواده.

دبّ موت السكون في حركاتي وخبا في رماده حُمُرُ جمري
وأنا حيثُ سرتُ أكلُ رزقي غير أن الزمانَ يأكلُ عُمرِي!
كلّما مرّ منه وقتٌ بربح من حياتي، وجدتُ في الربيع خُسري

ولهذا كان من الطبيعي أن يكون شعر الرثاء أكثر انسجاماً مع نفسه الحزينة، فقد رثى أهله جميعاً، أباه وزوجته وبنته وعمته وابن أخته، كما خصّ جارية له تدعى «جوهرة» بمراثيتين، وقد ماتت غريقة إبان خروجه من الأندلس إلى إفريقيا، من ذلك قوله مخاطباً البحر: ⁽¹⁾

وأوحشتنا من فراقِ مُؤنسة يُميتني ذكرُها ويُحييها
يا بحرُ أرخصتَ غير مُكرثٍ مَنْ كنتَ لا للبياع أغليها
جوهرةٌ كان خاطري صدقاً لها، أقيها به وأحميها
ونفحة الطيب في ذوائبها وصبغة الكحل في مآقيها
عانقها الموجُ ثم فارقتها عن ضَمّةٍ فاضَ روحها فيها!

ولابن حمديس مدائح تقليدية، استهل بعضها بوصف الخمر فالغزل في مثل قوله في مدح الأمير يحيى بن تميم بن المعز: ⁽²⁾

ملكٌ عن ثغرة الدين اتقى ورمى الأعداء بالجيش اللَّجِبُ
طاهرُ الأخلاقِ مألوفُ العُلا طيبُ الأعراقِ مصقولُ الحَسَبُ
عادلٌ تعكفُ بالحمد على ذكره أفواهُ عجمٍ وعرب

(1) ديوان ابن حمديس، ص 517.

(2) م.ن، ص 45.

وقد بيني مدائحه على المدح فقط، في مثل قوله في مدح الأمير أبي الحسن عليّ ابن يحيى⁽¹⁾:

نُفْشِي يَدَاكَ سِرَائِرُ الْأَغْمَادِ لِقَطَافِ هَامٍ وَاخْتِلَاءِ هَوَادِي⁽²⁾
إِلَّا عَلَى غَزْوٍ يَبِيدُ بِهِ الْعِدَا اللَّهُ مِنْ غَزْوٍ لَهُ وَجْهَادٍ

خصائص وسمات

1. برع ابن حمديس في وصف الطبيعة، وتجلّت في بعض أوصافه روح الابتكار والابداع، ويقوم أكثره على طلب معنى مولّد أو مجدّد⁽³⁾
2. يأتي وصفه للطبيعة متداخلا في أغراض شعرية أخرى كالغزل والمدح والرثاء والخمرية، فيصوّر محاسن المحبوبة على مثال محاسن الطبيعة، في حين تأتي حزينّة باكية في الرثاء، ولاهية مترفة في وصف مجالس لهوه.
3. تغلب على أوصافه الصور البصرية التي يملأها بالأصباغ الخارجية على نحو ما دأب عليه أكثر الشعراء الوصافين، وقلما يتحول عن النقل الخارجي إلى النفاذ في الطبيعة بوجدانه.
4. جمع بين وصف الطبيعة الحية والطبيعة الصناعية كالقصور والبرك والرسوم.
5. تأثره بالحنّة التي حلّت بموطنه صقلية، فكان يتبرّم بالحياة ويشكو الزمن والناس.

(1) ديوان ابن حمديس، ص 145.

(2) الاختلاء: القطم، الهوادي: الاعناق.

(3) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص 159.

المبحث السابع

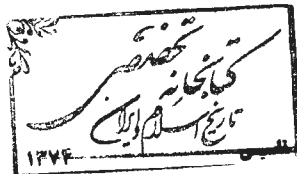
ابن خفاجة (533هـ/1139م)

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة، ولد سنة 450هـ بجزيرة شُقر من أعمال بلنسية، وهي جزيرة نهرية مشهورة بمجالها الأخاذ بوصفها جنة من جنات الأندلس. ولم يخرج منا إلا مرات قليلة. إذ سافر إلى عدوة المغرب لعهد المرابطين، ومدح سلطانهم علي بن يوسف بن تاشفين ووزرائه وبخاصة صديقه ابن عائشة، فينال الأموال والهبات، ويعود بها إلى بلدته، فينفقها في مجالس لهوه ولذائذه، كذلك نجده يمدح والي المرابطين في الأندلس إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ومساعديه من عمّال وقضاة.

وكان ابن خفاجة موسراً، ولم يتزوج قطاً. وفي ذلك يقول الفتح بن خاقان :
«وكان في شبيبته مخلوع الرّسن في ميدان مجونه⁽¹⁾»، وقد عاش طويلاً وتجاوز الثمانين، واستمتع في شبابه وكهولته بالحياة، فكان يُقبل في لَفٍّ من أصدقائه على اللهو والمجون في أحضان الطبيعة. وإذ تقدمت به السّن وأقلع عن ذلك وتاب، فكانت تعتريه الوحشة ويبكي صباه، فقد «نام فرأى أنه مستيقظ، وجعل يفكر بما مرّ به من شبابه، وفيمن ذهب من أحبابه ويبكي على أيام لهوه»⁽²⁾.

وقد ربط إحسان عباس بين هذه الحقيقة بموقف دقيق ورد في إحدى قصائده التي يتغزل فيها بأمة صغيرة تسمى عفراء، وفيها يتحسر لكونه أصبح ابن إحدى وخمسين سنة، إذ يقول:

فيا ليتني كنتُ ابنَ عشرٍ وأربعٍ فلم أذُعها بتناً ولم تدعني عمّاً⁽³⁾



(1) فلائد العقيان، 740 / 3.

(2) م.ن، 740 / 3 و 741.

(3) انظر: تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص 164.

ويقال إنه كان يخرج من جزيرته ويسير بين الوديان والجبال وينادي بأعلى صوته: يا إبراهيم تموت، فيجيبه الصدى ويحُرّ مغشياً عليه⁽¹⁾، وقد توفي سنة 533هـ عن اثنين وثمانين عاماً، في الجزيرة التي ولد فيها.

شعره

عُرف ابن خفاجة بأنه شاعر الطبيعة الأكبر، وقد سُمّي بالشاعر البستاني، ولقبه المقرّي بصنوبري الأندلس لعنايته بوصف الطبيعة الأندلسية ولا سيما الجانب المشرق منها، من أنهار وأزهار وأشجار ومنتزهات، ولا نكاد نجد لديه نظرة حزينة إلا ما كان من وصفه للجبل الذي اعترضه في سراه. وكذلك وصف الطبيعة الحية كالفرس والذئب وبعض الطيور.

وكان الأندلسيون يعجبون بشعره، فقد لُقّب بـ «الجنّان» لبراعته في وصف الرياض والأزهار، في مثل قوله:

والروضُ وجهٌ أزهرٌ والظلُّ فرعٌ أسودٌ والماءُ ثغرٌ أشنبُ
في حيثُ أطربنا الحمامُ عشيّةً فشدا يُغنينا الحمامُ المطربُ
واهتزَّ عطفُ الغُصنِ في طربِ بنا وافترَّ عن ثغرِ الهلالِ المغربُ
فكانه والحسنُ مقترنٌ به طوقَ على بُردِ الغمامةِ مذهبُ

وهو وصف للطبيعة في إطار لهوه ومُتعه مع خلّانه من الفتيان:

من كل أزهرٍ للنعيم بوجهه ماءٌ يُرقرقه الشبابُ فيسكبُ
وتبقى الطبيعة في ضوء هذا الوصف صورة للوجه الأزهر والفرع الأسود
والثغر الأشنب واهتزاز الخصر وابتسام الثغر وهي صورة حسية تمتع حواسنا وتغفل
عن الجانب الروحي في نفوسنا.
صنو ذلك وصفه لشجرة:

يا ربُّ مائسة المعاطفِ تزدهي من كل غصنٍ خافقٍ بوشاح
مهتزة يرتجُّ من أعطافها ما شئت من كَفَلٍ بموج رَداح

(1) الضبّي، بغية الملتبس، ص202.

نَفَضْتُ ذَوَائِبَهَا الرِّيحُ عَشِيَّةً فتملكتها هَزَّةُ المَرْتاحِ
لَقَاءُ حَاكٍ لَهَا الغَمَامُ مُلَاءَةً لبست بها حُسناً قميصَ صَباحِ
فقد بدت له الشجرة المنورة امرأة جميلة، مُضيفاً عليها بُعداً إنسانياً، حافلاً بالحركة والحيوية، فهي مائسة القَدِّ، مهتزة الكَفَلِ، تنفض ذوائبها، ممتلئة الجسم، تلفها مُلَاءة، وتلبس قميصاً زاهياً، وهو وصف لا تنصهر فيه ذات الشاعر مع الطبيعة وإنما تبقى في حدودها اللاهية بصنوف الجمال.

ولابن خفاجة مدائح كثيرة خصَّ بها بعض سلاطين المرابطين وعمالهم ووزرائهم، وهو يجري فيها على سنن الأقدمين، ملأها بالمبالغات «ولا نراه يخلطها بمعانٍ إنسانية وحكم وأمثال على طريقة المتنبي وربما كان ذلك راجعاً إلى أنه لم يمرَّ به طيفٌ من الحزن والتشاؤم، فحياته تمضي هنيئة⁽¹⁾».

وكان ابن خفاجة يصور الطبيعة الأندلسية، فيشخصها ويسرف في استخدام التشبيهات والاستعارات، ويمزجها بالفاظه الأنيقة المترفة، وخياله الخصب، كقوله في وصف نهر⁽²⁾:

لله نهرٌ سَالَ في بطحاء أشهى وروداً من لَمَى الحَسَاءِ
مُتَعَطِّفٌ مِثْلَ السَّوَارِ كَأَنَّهُ والزَّهَرُ يُكْنِفُهُ مَجَرُّ سَمَاءِ
قَدْ رَقَّ حَتَّى ظَنَّ قُرْصاً مُفْرَغاً مِنْ فِضَّةٍ فِي بُرْدَةِ خِضْرَاءِ
وَعَدَتْ تَحْفُ بِهَ الْغُصُونُ كَأَنَّهَا هُدْبٌ تَحْفُ بِمَقْلَةٍ زَرْقَاءِ
وَالْمَاءُ أَسْرَعَ جَرِيهِ مُتَحَدِّراً مُتَلَوِّياً كَالْحَيَّةِ الرَّقْطَاءِ
وَالرِّيحُ تَعْبُثُ بِالْغُصُونِ وَقَدْ جَرَى ذَهَبُ الْأَصِيلِ عَلَى لُجَيْنِ الْمَاءِ

فإذا نظرنا إلى خيال الشاعر وجدناه يستمد صوره من عناصر الطبيعة الجميلة والبيئة المترفة، فقد صوّر مسيل النهر بأنه لَمَى الحسنات. وينظر إلى النهر المتعرج فيراه سواراً، وإذ تكاثفت الأزهار من حوله رآها نجوماً متلألئة.

(1) شوقي ضيف، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، ص 445.

(2) الديوان، ص 16 و 17.

ويرقّ النهر أمام عيني الشاعر فإذا هو قرص من فضة قد وُضع على بردة خضراء هي الأرض المعشوشية المزهرة. ويمضي الخيال في هذا التصوير فما دام النهر يشبه المرأة الحسنة فلتكن تلك الأغصان الناعمة التي تميل على النهر هي أهداب عينيها الزرقاوين، ثم هي ذهب الأصيل على نهر من فضة سائلة.

ولو أنعمنا النظر في خيال الشاعر لوجدناه يُسرف في تشبيهاته وأوصافه، بحيث لم نعد نخرج منها بإحساس موحد، كالإحساس بالبهجة والنشاط الذي كنا نخرج به من وصف البحري للربيع في أبياته المعروفة التي مطلعها:

أناك الربيعُ الطلقُ يخْتال ضاحكاً من الحُسن حتى كاد أن يتكلما

ولعل ابن خفاجة لم يبلغ مبلغ الامتزاج بالطبيعة كالذي وجدناه في وصف الجبل، وقد لاحظ ابن خلدون تزاخم الصور في شعر ابن خفاجة، بقوله: «كان شيوخنا رحمهم الله يعيرون شعر ابن خفاجة شاعر شرقي الأندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد⁽¹⁾».

لم يقف ابن خفاجة من الطبيعة موقف المصور الذي يلتقط صوره من بُعد، وإنما نراه يفيض فيها من شعوره ووجدانه ويشخصها باعثاً فيها الحياة ويربط بين شعر الطبيعة وقضية الحياة والموت، وله من هذا الطراز ثلاث قصائد: اثنتان في وصف الجبل، وقد تناولنا إحداهما بالدراسة والتحليل، مطلعها:

وأرعنَ طمّاح الذّؤابةِ باذخٍ يُطاعن أعنان السماء بغاربٍ

والثالثة في العمر، استوحاها من غربته، ووقف فيها وقفة التأمل، وأكثر ما لفته منه نقصانه واكتماله، واختفاؤه وظهوره، فراح يناجيه، ويُصيخُ إليه بوصفه صاحب التجربة:

لقد أصَحْتُ إلى نجواك من قمرٍ وبت أدلجُ بين الوعي والنظر

وإذ بقي القمر صامتا، فقد استمد الشاعر من هذا الصمت العظة والعبرة، فلم يعد القمر قناعاً يخفي وراءه الشاعر، وإنما تولّى الحديث عنه فنسمعه يقول:

وإن صَمَتَ ففي مرآك لي عظةٌ قد أفصحتَ ليَ عنها ألسن العبر
 تمرُّ من ناقصٍ حوراً ومكتملٍ كورا، ومن مُرتقٍ طوراً ومُنحدرٍ
 والناسُ من مُعرضٍ يلهى ومُلتفتٍ يرعى، ومن ذاهلٍ ينسى، ومُدَّكرٍ
 تلهو بساحات أقوامٍ تُحدِّثنا وقد مضوا فقضوا، إنا على الأثر
 فإن بكيتُ، وقد يبكي الجليدُ، فعن شجرٍ يُفجِّرُ عينَ الماءِ في الحَجَرِ
 فبعد أن أوهمنا الشاعر بأن القمر سيكون أهلاً للحديث، شرع يتحدث عنه،
 فربط بين الطبيعة (القمر) وما توحى به من شعور بالفناء، وقد حرص الشاعر على
 استخدام الطباق والثنائيات الضدَّة في هذه الأبيات، سواء على صعيد القمر (ناقص/
 مكتمل، مرتق/ منحدر) أو على صعيد الأقوام الذين مضوا (مُعرض/
 مُلتفت، ذاهل/ مدَّكر) لينقلنا إلى القضية المركزية، وهي الحياة أو الموت، إذ يبدو
 الشاعر قلقاً على حياته خائفاً من الموت، فيبكي دون أن يجد عزاءً في فناء القمر مثلما
 وجده في فناء الجبل.

ومن الطبيعي أن يكون وقع الشيخوخة مؤلماً على ابن خفاجة، فنراه يبكي
 شبابه ورفاقه الذين مضوا، ويبكي على أيام لهُوه، إذ يقول: ⁽¹⁾

ألا ساجِلُ دموعي يا غمامُ وطارِحني بشجوك يا حمامُ
 فقد وفَّيتها ستين حولاً وناديتني ورائي: هل أمامُ؟
 وكنتُ ومن لباناتي لُبِنى هناك ومن مراضعي المدام
 فيا شرخ الشباب ألا لقاءً يُيلُ به على بَرَحِ أوامُ
 ويا ظلَّ الشبابِ وكنتَ تندي على أفياء سَرَحَتِكَ السلام

فهو يبكي الشباب بقدر ما يبكي المتع واللذات المرتبطة به، ويتحسّر على
 انقضاء أيام لهُوه وضياع شبابه إلى الأبد، معتمداً صيغتي النداء بألفها المعولة،
 والاستفهام الدال على التحسر والضياع، وتردّد الألفات كما يتردد الصراخ في المآتم

(1) فلائد العقيان، 3/ 741_743.

(غمام، حمام، أمام، المدام، أوام، السلام). ويعبر عن تلهفه على شبابه من خلال ترديده (شرح الشباب، ظل الشباب) كأنما يريد ألا ينساه.

خصائص وسمات

1. برع ابن خفاجة في وصف الطبيعة بجميع مظاهرها ومباهجها، برياضها وأشجارها وأزهارها وأنهارها وجبالها ومغاورها وسمائها ونجومها. وتعد قصيدته في وصف الجبل خير أوصافه إذ امتزجت فيها ذاته بالطبيعة.

2. يسرف في استخدام ألوان التصنيع، من تشخيص وجناس وطباق، محاكيا بها أبا تمام وغيره من شعراء الطبيعة في المشرق، وكان ذوقه قريبا من ذوق هؤلاء الشعراء، وجمع بين التصنيع والتصنع في شعره.

3. لاحظ النقاد أنه استمد بعض صوره وألفاظه من الشعراء العباسيين، كقوله: ⁽¹⁾

يا بدرَ تَمَّ زارني منه الهلالُ وقد تلَّم
فقد أخذه لفظا ومعنى من قول الشريف الرضي:

تلَّم مرتاباً بفضل ردائه فقلتُ هلالٌ بعدَ بدرٍ تمام
ومن ذلك قوله:

كأنني بعدكم شـمـالٌ قد فارقتُ منكم يمينا
وقد أخذه بلفظه ومعناه من قول ابن المعتز:

وإني وإياك مثلَ اليدين ولكن لك الفضل أنت اليمينُ

وكانت قصيدته التي تحدث فيها عن الجبل صدىً لأبيات مجنون ليلى في جبل التوباد، فالنصان متقاربان مع اختلاف غرض الشاعرين، فابن خفاجة قال قصيدته في معرض وصف الطبيعة في حين قال المجنون قصيدته في معرض الغزل.

وأيا كان الأمر فإن هذا الأخذ يعد أخذاً حسناً، نلمس فيه التأثير والتأثير وفضل السابق على اللاحق.

(1) انظر: فلائد العقيان، 3/ 741-743.

المبحث الثامن

المعتمد بن عباد (- 488 هـ / 1095م)

نشأته

ينتمي بنو عباد إلى أصول عربية من بني لُخم من ولد النعمان بن المنذر، وقد قامت دولتهم في إشبيلية سنة 414هـ، واشتدّ بنیان هذه الدولة في عهد عباد بن محمد المعروف بالمعتضد، وكان شديد الدهاء ومحارباً قديراً، إذ استولى على غرب الأندلس، وكان من أبرز ملوك الطوائف، وكانت وفاته سنة 461هـ فخلفه ابنه أبو القاسم محمد الذي اتخذ فيما بعد لقب المعتمد على الله، فمن هو هذا الملك الشاعر؟

هو محمد بن عباد بن إسماعيل بن عباد، ولد سنة 431هـ بمدينة باجة غربي الأندلس. وقد تدرّب على الحكم وقيادة الجيوش في بواكير نشأته، فقد قلده والده المعتضد الحكم بمدينة أوبّة وهي مدينة ممتنعة بين جبال ضيقة المسالك، تعدّ من المدن البرية البحرية⁽¹⁾، ثم أسند إليه قيادة الجيش الذي حاصر مدينة شلب. ولم يلبث أن خلف أباه على عرش إشبيلية سنة 461هـ.

وقد امتدّ ملكه حتى شمل قرطبة وجزءاً كبيراً من الأندلس، ودام ثلاثاً وعشرين سنة.

شعراء بلاطة

كان بلاطه موئلاً كبار شعراء الأندلس، وفي طليعتهم الشاعر ابن زيدون الذي لجأ إلى إشبيلية بعد هروبه من سجن ابن جهور، وكان المعتمد معجباً به وبأدبه، إذ دارت بينهما مساجلات شعرية، وقصائد أطلق عليها اسم «المعميات»⁽²⁾ بقصد التسلية وترجية الوقت، وقد حاول الحساد أن يفسدوا ما بينهما، إلا أنهم أخفقوا في سعايتهم، إذ لم يُصغ المعتمد لأقوال هؤلاء الحُساد، فمدحه ابن زيدون بقصيدة ميمية بلغت سبعة وأربعين بيتاً، عرّض فيها بحُسادَه، ومطلعها⁽³⁾:

(1) الحميري، الروض المعطار، ص 35.

(2) ديوان ابن زيدون، ص 273_277.

(3) م.ن.

الدهر، إن أملى، فصيح أعجمُ يعطي اعتباري ما جهلت، فأعلمُ
 إن الذي قَدَر الحوادث قدرها ساوى لديه الشهد منها العلقمُ
 لي منك فليذب الحسود تليظاً لطف المكانة والمحل الأكرمُ
 الفخر ثغر عن حياضك باسمُ والمجد بُرد من وفائك مُعلمُ
 فاسلم مدى الدنيا فانت جاهلها وئسوغ النعمى فإنك مُنعمُ

إلا أنه لم يعيش طويلاً في عهد المعتمد إذ وافته المنية سنة 463هـ.

ووفد عليه الشاعر عبد الجليل بن وهبون، ومدحه ولم يلبث المعتمد أن أبعدته وهجره. وما يروى من أخباره أن المعتمد جلس للشرب والغيث ينهمر، وبين يديه جارية تسقيه فاتفق أن لعب البرق بحسامه فارتاعت الجارية لخطفة البرق فقال المعتمد:

روّعها البرق وفي كفها برق من القهوة لَماع
 عجت منها وهي شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع

واستدعى عبد الجليل بن وهبون وأنشده البيت الأول مُستجيزاً، فقال عبد

الجليل:

ولن أرى أعجب من أنسٍ من مثل ما يمسك يرتاع

فاستحسنه المعتمد وأجازه⁽¹⁾.

ومن شعراء المعتمد أبو بكر الداني المعروف بابن اللبانة، وكان المعتمد يستحسن شعره، وظل الداني مخلصاً له، فقد رحل إلى المغرب وقصد أغمات سنة 486هـ، ورثى دولة بني عباد والمعتمد على قيد الحياة، كما كتب عن هذه الدولة وأخبارها كتابين، سمى الأول «الاعتماد في أخبار بني عباد» والثاني سماه «نظم السلوك في مواعظ الملوك» ضمنه بعض المراثي.

كما وفد عليه ابن حمديس الصقلي، وكان قد استدعاه من قرطبة إلى إشبيلية، فلزمه ومدحه. ومن أبرز الشعراء الذين اتصلوا به الشاعر المغامر محمد بن عمار،

(1) نفع الطيب، 5/ 295.

وكان يكبره بتسع سنوات، وقد صحبه في غدواته وروحاته⁽¹⁾، فقد ركب المعتمد في بعض الأيام قاصداً الجامع وابن عمار يسايره، فسمع أذان المؤذن فقال المعتمد:

هَذَا الْمُؤَذِّنُ قَدْ بَدَأَ بِأَذَانِهِ
فَقَالَ ابْنُ عِمَارٍ:

يَرْجُو بِذَاكَ الْعَفْوَ مِنْ رَحْمَانِهِ
فَقَالَ الْمُعْتَمِدُ:

طُوبَى لَهُ مَنْ شَاهَدَ بِحَقِيقَةٍ
فَقَالَ ابْنُ عِمَارٍ:

إِنْ كَانَ عَقْدُ ضَمِيرِهِ كُلِّسَانَهُ

وقد اتخذ المعتمد أخاً ووزيراً، ولم تلبث أن ساءت العلاقة بينهما، فقد عصى ابن عمار سيده وخانه، فكانت خاتمته مأساوية، إذ أتى به مقيداً، ثم انهال عليه المعتمد بفأسه ولم يزل يضربه حتى فتك به، ثم أمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك⁽²⁾.

ولعلّ هذا التقدير الذي لقيه الشعراء من المعتمد يعود إلى كونه شاعراً من جهة ولمكانة الشعر في نفوس أهل الأندلس من جهة أخرى، وما أورده المقرئ في النفع أنه «إذا كان الشخص بالأندلس نحويًا أو شاعراً فإنه يعظم في نفسه لا محالة عادة قد جُبِلُوا عليها⁽³⁾».

الجواري اللائي تغزل بهنّ

لم يقصر المعتمد غزله على جارية بعينها، فقد فتن بعدد منهن، وكنّ يُقمن في قصوره، يُقبلن عليه حيناً، ويصددن عنه حيناً، فكان يعجبه هذا الدلال، فيفرط في

(1) نفع الطيب، 5/ 149.

(2) انظر: علي أدهم، المعتمد بن عباد، ص 151 وما بعدها.

(3) م. ن، 1/ 207.

التقرب إليهن، إلا أن «جوهرة» كانت القريبة إلى قلبه، فهام بها وتملكه حبها وخصها بمقطوعات من شعره، فقال فيها في إحدى نوبات غضبها عليه وهجرها له:

سرورنا بعدكم ناقص والعيش لا صافٍ ولا خالص
والسعد إن طالعنا نجمه وغبت فهو الآفل الناكص
سموك بالجواهر مظلومة مثلك لا يدركه غائص
وإذ تمادت في ذلك كتب إليها يقول:

جوهرة عذبي منك تمادي الغضب
فزفرتني في صعد وعبرتي في صباب
يا كوكب الحسن الذي أزرى بزهر الشهب
مسكنك القلب فلا ترضني له بالوصاب

ومنهن «سحر» التي أوقعته في حبال حبها، إذ أفرطت في التجني عليه، ولم يبق له سوى أن يسأل الله الصفح عنها:

عفا الله عن سحر على كل حالة ولا حوسبت عما بها أنا واجد
أسحر ظلمت النفس واخترت فرقي فجمعت أحزاني وهن شوارد

صنو ذلك جاريته «وداد» التي أنس بذكرها وقد غابت عنه:

قمر غاب عن جفونك مرأه وسكناه في سواد فؤادك

إلا أن هؤلاء الجواري الكثيرات لم يشغلن عن زوجته «اعتماد الرميكية»، فقد كانت رفيقة دربه وفيها تيقظت مشاعره، إذ يقول:

أهجر ظيماً في ضلوعي كناسه وبدر تمام في جفوني مطالعه
وروضة حسن أجتنيها وبارداً من الظلم لم تخطر عليّ مشاعره

وكان تُعرفه إليها عن طريق الأدب، فقد زعموا - كما يقول المقرئ - أن المعتمد ركب في النهر ومعه ابن عمّار وزيره، وقد زردت الريح النهر، فقال ابن عمّاد لابن عمّار: أجز:

صنع الريح من الماء زرد

فأطال ابن عمار الفكرة، فقالت امرأة من الغسلات:

أيُّ درعٍ لقتُـالٍ لـو جَمَد

فتعجب ابن عباد من حُسن ما أتت به، مع عجز ابن عمار، ونظر إليها فإذا هي صورة حسنة، فأعجبته، فسألها: أذات زوج هي ؟ فقالت: لا، فتزوجها، وولدت له أولاده الملوك الثُجباء⁽¹⁾.

وفي ديوان المعتمد بن عباد مقطوعات غزلية، في جواريه، وهي من هذا الطراز الذي مرّ بنا، فكان يرقّ فيها ويلين، ويستعطفهنّ وهو المعروف بمجروته وصولته، وهذا هو الجانب اللاهي المترف من حياته في إشبيلية.

فروسية المعتمد بن عباد

كان المعتمد بن عباد فارساً شجاعاً، وقد تجلّت بطولته في معركة الزلاقة سنة 479هـ، يعاونه فيها يوسف بن تاشفين الذي استعان به المعتمد نفسه، وذلك حين أخذت جيوش الفونسو السادس تغير عليه. وقد أوقع المسلمون بجيش الفونسو هزيمة نكراء إذ أبيد أكثر جنده وخيرة قوّاده، وتخلص أمراء الأندلس من دفع الجزية له، واستردوا بعض الثقة بأنفسهم وأعجبوا أشدّ الإعجاب ببسالة يوسف وصلاحه وتقواه وزهده وترفعه عن الغنائم، إذ عفّ عن غنائم معركة الزلاقة وآثر بها ملوك الأندلس⁽²⁾.

وكان ابن تاشفين يُظهر الود والتقدير للمعتمد ابن عباد إذ يقول: «إنما نحن في ضيافة هذا الرجل وتحت إمرته⁽³⁾». واستمرت هذه العلاقة الطيبة بينهما، بعد عودة ابن تاشفين إلى المغرب.

(1) انظر: نفح الطيب، ص 73.

(2) وفيات الأعيان، 6 / 116.

(3) المراكشي، المعجب، ص 135.

المعتمد بن عباد أسيراً

حكم بنو عباد لإشبيلية وغرب الأندلس منذ سنة 414هـ / 1023، وكانت دولتهم من أبرز دول الطوائف، إذ احتلت مكانة رفيعة في عهد المعتمد بن عباد، وقد كانت نهايتها على يد الأمير يوسف بن تاشفين سنة 484هـ / 1091م.

فقد ساءت الأحوال في الأندلس، ولم يعد ملوك الطوائف قادرين على مواجهة الفونسو السادس ومدافعتهم، مما جعل أهل الأندلس يستجدون ثانية بيوسف بن تاشفين ويستدعونهم، فدخلت جيوشه الأندلس سنة 484هـ، لمنازلة ملوك الطوائف والتخلص منهم، إذ غلبت عليهم مظاهر الترف ودلائل الإسراف والفساد، وكان ذلك إيذاناً بسقوط دولة بني عباد.

وتقدمت هذه الجيوش واقتلعت حصون المعتمد ومعاقله، ووقع المعتمد في أسر المرابطين، إذ حاصره جندهم في قصره، فدافع عن حماه ببسالة حتى أصابته الجراح، ثم اقتادوه إلى طنجة فمكناس فأغماط هو وأسرته، وهي بلدة على مقربة من مراكش حاضرة المرابطين، ولعل اهتمام يوسف بن تاشفين بهذا المكان راجع إلى غرض سياسي أساسه التوجس في نوايا المعتمد، فجعله تحت إشرافه ورقابته.

ويتذكر المعتمد اليوم الذي وقع فيه أسيراً، فينظم شعراً بعد نزوله بعدوة المغرب أسيراً حزيناً⁽¹⁾.

لَمَّا تَمَسَّكَتِ الدَّمْعُ وَتَبَّهَ الْقَلْبَ الصَّدِيعُ
قَالُوا الْخُضُوعُ سِيَاسَةٌ فَلْيُنِذْ مِنْكَ لَهُمْ خُضُوعُ
وَالدُّ مِنْ طَعْمِ الْخُضُوعِ عَ عَلَى فَمِي السُّمُّ النَّقِيعُ
إِنْ يَسْلُبِ الْقَوْمُ الْعَدَا مُلْكِي وَتُسَلِّمُنِي الْجَمْعُوعُ
فَالْقَلْبُ بَيْنَ ضُلُوعِهِ لَمْ تُسَلِّمِ الْقَلْبَ الضُّلُوعُ

فهو يتحدث عن صموده في وجه المرابطين الذين سلبوه ملكه وانتهبوا قصوره. وتجدر الإشارة إلى أن المرابطين ألزموه بمخاطبة ابنه: المعتد بالله والراضي على النزول

(1) ديوان المعتمد بن عباد، ص 149 - 151.

عن معقلية (رُندة وما رتلة) في مقابل عهود ومواثيق، لم يلبثوا أن نقضوها، فقد قبض على المعتد وتنازل عن كل ما يملكه، في حين قُتل الراضي بالله غيلة وأُخفي جسده⁽¹⁾

أغماتيات المعتمد بن عباد

أقام المعتمد في أغمات أسيراً مقيداً في سجنه بعد ماضيه الزاهي بإشبيلية، وقد عومل في منفاه معاملة قاسية لا تليق بملك فارس، فأخذ يندب حظه ويشكو من جَوْرِ الزمان، من خلال قصائده ومقطوعاته الشعرية التي عُرِفَت بالأغماتيات، وكانت أشعاره وهو في قصره بإشبيلية تدور على اللهو ومجالس الأنس.

فكان يتأمل حاله في أول عيد يستقبله وهو أسير، وقد دخل عليه من بنيه وبناته على وجه الخصوص وهنّ في حالة بائسة، وعليهنّ الأسمال البالية، لا يملكن من حطام الدنيا شيئاً، يبكين حسيرات وأقدامهنّ حافية، فيؤلمه هذا المشهد، وينشد أبياتاً تقطر أسى ولوعة وتمزّق نياط القلب⁽²⁾:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً	فساءك العيدُ في أغماتٍ مأسورا
ترى بناتِكَ في الأطمار جائعة	يغزلنّ للناس ما يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة	أبصارهنّ حسيراتٍ مكاسيرا
يطأن في الطين والأقدام حافية	كأنهما لم تطأ مسكاً وكافورا
لا خدّاً إلا تشكى الجذبَ ظاهره	وليس إلا مع الأنفاس ممطورا
أفطرت في العيد لا عادت مساءئله	فكان فطرك للأكباد تفتيريا
قد كان دهرك إن تأمره مُمثلاً	فردك الدهرُ منهياً ومأمورا
من بات بعدك في ملكٍ يُسرّ به	فإنما بات بالأحلام مغرورا

ولعله يشير في البيت الرابع الى قصة مشهورة، إذ رأت زوجته الريمكية الناس يمشون في الطين، فاشتتت المشي فيه، فأمر المعتمد بصبّ ماء الورد على أخلط

(1) انظر: فلائد العقيان، ص 20.

(2) ديوان المعتمد بن عباد، ص 168 - 1169.

الطيب وعُجنت بالأيدي حتى عادت كالطين، وخاضتها مع جواربها، وعُرف ذلك يوم الطين⁽¹⁾.

حاول المعتمد أن يستلين قلب أسره ابن تاشفين، فمدحه وأشاد بموقفه يوم الزّلاقة:

وَيَوْمَ العُروبة دُذتَ العِدا نصرتَ الهُدَى وأبيتَ الفِرار
ثَبَّتْ هَناكَ وإنَّ القُلُوبَ بَ بين الضُّلُوع لَتأبى القَرار
ولولاكَ يا يوسُفُ المُتَّقَى رأينا الجُزيرةَ للكُفر دارا
ولكن ابن تاشفين لم يأبه به، فانطوى الشاعر على نفسه مؤمنا بقضاء الله وقدره، ومدركا أن الدّهر قَلْب، فنسمعه يقول:

من يصحب الدهر لم يعدم قلبه والشوكُ يَنْبُتُ فيه الورد والآسُ
ولكنه ظل يتذكر محنته، فقد مرّ وهو في أسره سرب قطا، فأثار شجونه، وتمنى لو كان حراً طليقا مثله، وأنشد:

بَكيتُ إلى سرب القطا إذ مرَّرنَ بي سوارحَ لا سجنَ يعوق ولا كَبَلُ
ولم تَكْ - والله المَعِيدُ - حِسادَةً ولكنْ حيناً إن شَكلي لها شَكْلُ
فأسرَحُ لا شَملي صديقٌ ولا الحِشا وجيعٌ ولا عِنايَ يُبكيهما ثُكْلُ
ألا عَصَمَ اللهُ القُطا في فراخها فلإن فراخي خانها الماءُ والظِلُّ

ويرثي ولديه المأمون قتيل قرطبة، والراضي قتيل رُنْدَه، فتتأججُ أحزانه، وكان قد رأى قُمرية نائحة على سكنها وأمامها وكرّ فيه طائران يرددان نغمة⁽²⁾:

بَكْتُ أن رأتَ إلَفينَ ضمَّهما وكرُّ مِساءً وقد أخنى على إلَفاها الدَّهرُ
بَكْتُ لم تُرِقْ دَمْعاً وأَسبَلتْ عَبرةً يَقصرُ عنها القطرُ مَهما هَمى القطرُ
وناحت فباحَتْ واستراحت بِسرِّها وما نَطَقَتْ حرفاً يَبسُوحُ به سرُّ

(1) انظر: نفح الطيب، 2/ 100 وما بعدها.

(2) قلائد العقيان، 1/ 86. والديوان، 164 165.

فما لي لا أبكي أم القلبُ صخرةً وكم صخرةً في الأرض يجري بها نهرُ!
 بكتُ واحداً لم يُشجها غيرُ فقدته وأبكي لآلافٍ عديدهم كثرُ
 صنو ذلك مريثته في أبنائه الثلاثة: المأمون والراضي وسراج الدولة الذي قتله
 ابن عكاشة في قرطبة ومطلعها:

يقولون صبراً، لا سبيلَ إلى الصبر سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري
 وإذ تُهب قصره في إشبيلية سُبيت ابنته بُثينة في جملة من سُبيت من نساء القصر
 وصباياه، وكانت مثل أمها الرميكية آية في الجمال والذكاء وهي تعدُّ من أديبات
 الأندلس المشهورات في البلاغة، وقد ظل المعتمد والرميكية في وله دائم لا يعلمان ما
 آل إليه أمرها، وكان أحد تجار إشبيلية قد اشتراها بوصفها جارية سرّية، ووهبها لابنه
 فلما أراد الدخول عليها امتنعت وأظهرت له نسبها وقالت له: «لا أحلّ لك إلا بعقد
 زواج شرعي إن رضي أبي بذلك⁽¹⁾»، ثم إنها أرسلت كتاباً لأبيها ضمته مقطوعة
 شعرية، حكّت فيها قصتها فتقول:

اسمع كلامي واستمع لمقالي	فهي السلوكُ بدت من الأجياد
لا تنكروا أتي سُبيتُ وأنني	بنتُ لملكٍ من بني عباد
ملكٍ عظيمٍ قد تولى عصره	وكذا الزمان يؤول للإفساد
لما أراد الله فرقة شملنا	وأذاقنا طعم الأسى من زاد
قام النفاق على أبي في ملكه	فدنا الفراق ولم يكن بُمراد
فخرجت هاربةً فحازني امرؤ	لم يأت في إعجاله بسداد
إذ باعني بيع العبيد فضمّني	من صانني إلا من الأنكاد
وأرادني لزواج نُجلٍ طاهرٍ	حسن الخلائق من بني الأنجاد
ومضى إليك يسوم رأيك في الرضا	ولأنت تنظرُ في طريقٍ رشادي

(1) نفح الطيب، 6/ 20.

وختمتها بقولها ⁽¹⁾:

فَعَسَاكَ يَا أَبَتِي تُعَرِّفَنِي بِهِ إِنَّ كَانَ مِمَّنْ يُرْتَجَى لِوَدَادِ
وعسى رميكة الملوك بفضلها تدعو لنا باليمن والإسعاد
وسرُّ الأبوان إذ علما مآل أمرها، ووافق المعتمد على زواجها، وردَّ عليها
بكتاب أوصاها فيه بزوجها قائلاً:

بُنَيْتِي كَوْنِي بِهِ بَرَّةً فَقَدْ قَضَى الدَّهْرُ بِإِسْعَافِهِ
وكان المعتمد يعرف قدره وأن أنباء أسرهِ قد طبقت الآفاق، فوفد إليه الشعراء
وفاءً له، فكانوا يؤنسونه في غربته ويعثون فيه الأمل وهو في غياهب سجنه، وفي
طليعته ابن اللبانة الذي عبر البحر إلى المغرب وقصد أغمات سنة 489هـ، وأنشده
قصيدة طويلة تقطر أسى ولوعة بما أصاب المعتمد ومنها:

أَفَكَّرُ فِي عَصْرِ لِكَ مَشْرِقاً فِيرْجِعْ ضَوْءَ الصَّبْحِ عِنْدِي مُظْلِماً
لئن عظمت فيك الرزية إننا وجدناك منها في البرية أعظماً
وقد أكرمه المعتمد رغم ضيق ذات اليد، فبعث إليه بعشرين مثقالاً مرابطة
وثوبين غير مخيطين.

وألّف ابن اللبانة كتاباً سماه «السلوك في وعظ الملوك» ضمّنه قصائد
ومقطوعات في البكاء على بني عباد ودولتهم الدارسة، كما وفد عليه غير مرة.
ومن الشعراء الذين حفظوا للمعتمد عهده ابن حمديس الصقلي، ونظم قصيدة
في مواساة المعتمد على ما حلّ به .

وفاته

بقي المعتمد في أسرهِ وهو يُعاني من أغلالهِ وسوء صحته إذ اشتد به المرض في
الستين الأخيرتين من حياته. ويصف صاحب القلائد ذلك بقوله: «ولم تزل كبده
تتوقد بالزفرات، وخلده يتردد بين النكبات والعثرات، ونفسه تنقسم بالأشجان

(1) نفح الطيب، 20/6.

والحسرات الى أن شفته منيته....⁽¹⁾». وكانت وفاته في سجن أغمات لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة 488هـ. ولما كان أول عيد بعد وفاته وفد الشعراء إلى أغمات يرثونه، وفي طليعتهم أبو بحر ابن عبد الصمد. وقد زار قبره بعد مضي 273 سنة على وفاته لسان الدين بن الخطيب الوزير الأندلسي⁽²⁾.

وأياً كان الأمر، فقد «ظلت ذكراه أثيرة في النفوس بوصفه آخر فرع في دوحة أسرة الملوك الشعراء الذين حكموا الأندلس، ولقد بكاه الناس ورثوه أكثر مما رثوا غيره»⁽³⁾.

(1) قلائد العقيات، ص 31.

(2) انظر: نفح الطيب، ص 237 و 238.

(3) دوزي، إسبانيا الإسلامية ص 736.

شاعرات الأندلس

المبحث الأول: شاعرات إشبيلية

المبحث الثاني: شاعرات قرطبة

المبحث الثالث: شاعرات غرناطة

المبحث الرابع: شاعرات المرية

المبحث الخامس: شاعرات وادي الحجاره

الفصل السابع

شاعرات الأندلس

تمهيد

كان للمرأة الأندلسية نصيب في حركة الشعر الأندلسي، إذ شاركت الرجل في نظم الشعر منذ عهد مبكر، فتلقانا « الجارية العجفاء » وهي تنشد وتغني، وإذا سمع عبد الرحمن الداخل بأدبها وفنها بعث إلى سيدها، وكان رجلاً فقيراً يسكن معها في بيت صغير، فاشتراها منه وحملت إليه.

وفي عهده ظهرت أول شاعرة أندلسية، من الحرائر هي حسانة التميمية، وقد أنشدته قصيدة رائية منها ⁽¹⁾:

إلى ذي الندى والمجد سارت ركائي على شَحَطٍ تصلى بنار الهواجر
ليجبر صَدْعِي إنه خير جابر ويمعني من ذي الظلّامة جابر
فإنني وأيتامي بقبضة كَفِّه كذي ريش أضحى في مخالب كاسر

ثم كثرت النساء الشاعرات في عهود ملوك الطوائف، وأخذ الشعر يتسرب إلى دور الحریم في القصور، ويتردّد على ألسنة الحرائر من بنات الملوك والأمراء، والجواري على اختلاف طبقاتهن.

وقد أورد المقرّي أشعاراً لطائفة كبيرة من شاعرات الأندلس، وسنقف عند هؤلاء الشاعرات من خلال مواطنهن في مختلف المدن والبلدات، في إشبيلية، وقرطبة، وغرناطة، والمرية، ووادي الحجاره. وقد أحصى محمد الريسوني في كتابه «الشعر النسوي في الأندلس» ⁽²⁾ خمساً وعشرين شاعرة أندلسية، موزعة على مختلف عصور الأدب الأندلسي.

(1) انظر: مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، ص 125 و 126.

(2) تقديم عبد الله كنون، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1978.

المبحث الأول

شاعرات إشبيلية

قَدِّمَتْ إشبيلية ثلاث شاعرات هُنَّ: مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري، وبثينة بنت المعتمد بن عباد، وأسماء العامرية.

فقد عرفت مريم بنت أبي يعقوب بأنها شاعرة مديح، فمدحت عُبيد الله بن محمد المهدي الأموي، وكان يُجيزها من ماله، ويخلع عليها من أدبه، إذ تقول: ⁽¹⁾

من ذا يُجَارِيكَ في قولٍ وفي عملٍ وقد بَدَرْتُ إلى فضلٍ ولم تُسَلِّ
مالي بشكر الذي تُظْمِئُ في غُنْقي من اللّالي وما أوليتَ من قبلي
حَلَيْتَنِي بَحْلَى أَصْبَحْتُ زَاهِيَةً بها على كلِّ أنثى من حُلَى عَطَلِ

فلما أدركت سن الشيخوخة، عبّرت عن آلامها وهمومها، إذ تقول ⁽²⁾:

وما ترتجي من بنت سبعين حِجَّةً وسبع كنسج العنكبوت المهلهل
تُدبُّ دبيبَ الطفل تسعى إلى العصا وتمشي بها مشيَ الأسير المُكْبَلِ

وتلقانا بثينة بنت المعتمد بن عباد التي أسرت إبان نكبة أبيها، وسبق الكلام عليها في سياق حديثنا عنه.

ومن شاعرات إشبيلية في القرن السادس الهجري أسماء العامرية، وقد كتبت إلى عبد المؤمن بن علي ملك الموحدين أبياتا، تشكو ظُلماً وقع على أموالها، فتقول:

عرفنا النَّصَرَ والفتحَ المينَا لسيِّدنا أمير المؤمنينَا
إذا كان الحديثُ عن المعالي رأيتُ حديثكم فينا شُجونا
رويتم علمه فعلمتموه وصتمتم عهده فغدا مصونا

(1) نفح الطيب، 1 / 149.

(2) م. ن.

ولشاعرات إشبيلية الأصيلات ميزة اتّسمنَ بها «تمثّلت في العفّة والحياء والوقار والكبرياء»⁽¹⁾. أما الشاعرة «قمر» التي عاشت في إشبيلية، في القرن الثالث الهجري فلم تكن من الخرائر، وإنما هي جارية وفدت من الشرق، وكانت تنشد الشعر وتغنيه في قصر سيّدها إبراهيم بن حجاج، إذ يقول⁽²⁾:

ما في المغارب من كريم يرتجى إلا حليفُ الجودِ إبراهيمُ
 إنني حلّلت لديه منزلَ نعمةٍ كلُّ المنازلِ ما عداه سقيمُ
 وفي مقابل هذا الاحتفاء وجميل القول، احتفى بها مولاها وأكرم معاملتها، على نحو ما عُرف به من تكريم لمن يقصده.

(1) مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، ص 237.

(2) م.ن، ص 130.

المبحث الثاني

شاعرات قرطبة

وتبرز في قرطبة أربع شاعرات، هن: عائشة القرطبية، وولادة بنت المستكفي، ومهجة بنت التّياني، وأم الهناء بنت القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية.

فعائشة القرطبية من شاعرات القرن الرابع الهجري «لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعدلها علماً وفهماً وأدباً وشعراً وفصاحة»⁽¹⁾، وعرفت بتعدد مواهبها فهي حسنة الخط تكتب المصاحف، وشاعرة قديرة ترتجل الشعر ارتجالاً، فقد ارتجلت قصيدة دالية في حضرة المظفر بن المنصور بن أبي عامر، تُحييه وتمدحه، فتقول⁽²⁾:

أراك الله فيه ما تريدُ ولا برحتُ معاليه تزيدُ
فقد دلتُ مخايلهُ على ما تؤمّله وطالعهُ السعيدُ
تشوّقت الجيادُ له وهزّ الحُـ سأمُ هوى وأشرفتُ البنودُ
وكيف يخيبُ شبلٌ قد نمثهُ إلى العليا ضراغمة أسودُ
فسوف تراه بدرأ في سماءٍ من العليا كواكبهُ الجنودُ
فأنتم آل عامر خيرُ آلٍ زكا الأبناء منكم والجدودُ

وهذا شعرٌ نلمس فيه ديباجة الشعراء المشاركة، وتجدد الإشارة إلى إن الشاعر الأندلسي أبا بكر الأبيض قد أخذ معاني هذه القصيدة.

وتلقانا شاعرة قرطبة ولادة بنت المستكفي التي ارتبط اسمها بابن زيدون. ومن هنا فقد أفردناها بالدراسة في سياق حديثنا عنه.

وهناك شاعرة قرطبية أخرى، ارتبط اسمها بولادة هي مهجة بنت التّياني القرطبية، وهي لم تكن أميرة مثلها، وإنما هي ابنة بائع تين، وكانت صديقة لولادة ثم

(1) نفح الطيب، 6 / 26.

(2) م.ن.

انقلبت عليها وهجتها هجاء مُقدّعا، إذ تقول⁽¹⁾:

ولادة قد صـرت ولادةً من غير بعلٍ، فُضحَ الكاتم

وهذا هجاء فاحش، يُذكرنا بهجاء ابن الرومي لابن الخبّازة وأمه بوران⁽²⁾.

وكانت أم الهناء آخر شاعرات قرطبة، وهي بنت القاضي أبي محمد ابن عبد الحق بن عطية، من شاعرات القرن السادس، وكانت مُقلّة، حاضرة النادرة، سريعة التمثل، من أهل العلم والفهم والعقل ولها تآليف⁽³⁾، وغزل رقيق بعيد عن فُحش القول، إذ تقول:

جاء الكتاب من الحبيب بأنه سيزورني فاستعبرت أجفاني

غلبَ السرورُ حتى أنّه من عظم فرطٍ مسرّتي أبكاني

يا عين صار الدمع عندك عادةً تبكين في فرح وفي أحزانٍ

فاستقبلي بالبشر يوم لقائه ودعي الدموعَ لليلة الهجران

فقد عبّرت عن مشاعرها ببراءة العذارى، ووشّت أبياتها بلون من البديع، فطابقت بين السرور والبكاء، والفرح والأحزان، واللقاء والهجران.

(1) نفح الطيب، 29/5.

(2) انظر: ديوان ابن الرومي، 6 / 2359.

(3) نفح الطيب، 6 / 28.

المبحث الثالث

شاعرات غرناطة

حظيت غرناطة بنخبة من شاعرات الأندلس، منهنّ حمدونة بنت زياد، وأختها زينب بنت زياد، ونزهون القلعية، وحفصة الركونية، وقسمونة بنت إسماعيل.

حمدونة بنت زياد المؤدب

ويقال لها حمدة، من وادي آش، وهي بلدة قريبة من غرناطة، ولُقبت بخنساء المغرب، مع أن شعرها في الغزل ووصف الطبيعة وليس في الرثاء، ووصفها بالخنساء ليس صحيحاً، والأولى أن يقال إنها «صنوبرية الأندلس» نسبة إلى شاعر الطبيعة الصنوبري. عُرِفَت حمدونة بعفتها، وقد وُصِفَت بأنها من المتأدبات المتصوّفات المتغزّلات المتعفّقات، وهي صفات خلعها عليها ابن الأبار وذكر اسمها كاملاً وهو حمدة بنت زياد بن يقيّ العوفي المؤدب⁽¹⁾.

ومن غزلها الرقيق⁽²⁾:

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وما لهمُ عندي وعندك من ثارٍ
وشئوا على أسماعنا كل غارةٍ وقُلْ حُماتي عند ذاك وأنصاري
غَزَوْتُهُمْ مِنْ مُقْلَتِيكَ وأدمعي ومن نَفْسِي بالسيف والسَّيْلِ والنارِ
وفي البيت الأخير لون بديعي جميل، هو الطي والنشر، فالطّي في «مقلتيك»
و«أدمعي» و«نَفْسِي»، والنشر في «السيف» للمقلتين، و«السيْل» للأدمع، و«النَفْس»
للنار.

وخرجت ذات يوم إلى وادٍ، مع صاحباتها، فترسم لوحة فنية جمعت فيها جمال الطبيعة إلى جمال الأنوثة فتقول⁽³⁾:

(1) المقتضب، ص 162.

(2) نفع الطيب، 1/ 23.

(3) م. ن، 6/ 23 و 24.

أباح الدمع أسراري بوادٍ له للحسن آثارٌ بوادي
 فمن نهرٍ يطوفُ بكلّ روضٍ ومن روضٍ يرفُّ بكل وادي
 ومن بين الظباء مهاة أنسٍ سبّت لبّي وقد ملكت فوادي
 لها لحظٌ تُرقّده لأمرٍ وذاك الأمرُ يمنعي رُقادي
 إذا سَدَلْتُ ذوائبها عليها رأيتَ البدرَ في أفق السّوادي
 كأنّ الصُّبحَ مات له شقيقٌ فمن حُزنٍ تُسرّبُ بالحِداد
 وهنالك من ينسب هذه الأبيات لحمة العوفية، ذلك أن الحداد عند
 الأندلسيين كان يلبس بلبس البياض وليس بالسواد.
 وتصف وادياً بالأندلس فتقول (1):

وقانا لفحة الرّمضاء وادٍ سقاه مُضاعفُ الغيثِ العميم
 حللنا دوحه فحنا علينا حنوّ المرضعات على الفطيم
 وأرشفنا على ظمأٍ زلالاً الدُّمن المدامة للنديم
 يصدُّ الشمسَ آتًى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
 يروغُ حصاه حالية العذارى فتلمسُ جانبَ العقدِ النظيم
 إذا تأملنا هذه الأبيات وجدنا أن الشعور العميق بالعطف والحنان هو أبرز ما
 يميزها، فقد شخّصت الوادي وجعلته أماً حنوناً، وتخيلت حصاه حباتٍ من اللؤلؤ،
 تروع العذارى الحاليات، فتلمس مكان العقود من لبّاتهن؛ خشية أن تكون عقودهنّ
 قد انفرط نظمها واختلطت بحصى الوادي

ولعلّ هذه المعاني الجميلة والصور الرائعة جعلت بعض المؤرخين المشاركة،
 ومنهم النديم ينسبها لشاعر مشرقى اسمه المنازي، إلا أنّ أبا جعفر الأندلسي
 الغرناطي، نزيل حلب، يردها إلى صاحبها حمدونة، فيقول: (.... وأنّ هذه الأبيات
 نسبها أهل البلاد (أي بلاد الشرق) للمنازي من شعرائهم، وركبوا التعصب في جادة

(1) نفح الطيب، 6/ 24.

ادّعائهم، وهي أبيات لم يُحلها غيرُ لسانها، ولا رَقَمَ بُردِها غيرُ إحسانها، ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا، وهي الأندلس، أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازي إلى الوجود، ويتّصف بلفظة الوجود⁽¹⁾.

أما أختها زينب بنت زياد، فهي شاعرة تعرف ببنت الوادي آشي، إلا أنه لم يصل إلينا شيء من شعرها.

قسمونة بنت إسماعيل

وظهرت شاعرة رقيقة بين يهود الأندلس، في غرناطة، في القرن السابع الهجري، اسمها قسمونة بنت إسماعيل، نلمس في شعرها نغماً حزيناً يُنبئنا عن إحساسها بالوحدة والحرمان، فقد نظرت في المرأة ذات يوم وهي في ريعان شبابها، ولم تتزوج بعد، فأنشدت⁽²⁾:

أرى روضةً وقد حان مني قطافها ولست أرى جانٍ يمدُّ لها يدا
فوا أسفاً يمضي الشباب مُضيئاً ويبقى الذي ما إن أسمىه مفردا
وئبصر ظبيةً كانت تقطنها، فتخاطبها⁽³⁾:

يا ظبيةً ترعى بروضٍ دائماً إني حكيثك في التوحُّشِ والحوار
أمسى كلانا مفرداً عن صاحبٍ فلنصطر أبدأ على حُكم القَدَر

وتجدر الإشارة إلى أن اليهود عاشوا في الأندلس في ظل التسامح الديني الذي عُرِف به المسلمون. وكانت غرناطة مليئة بهم.

نزهون القلعية

وهي من شاعرات القرن الخامس الهجري، عُرِفَتْ بأنها شاعرة ماجنة كثيرة النوادر⁽⁴⁾، إذ هجت عدداً من الشعراء منهم ابن قزمان الشاعر الزجال، والأعمى

(1) نفح الطيب، 24/6.

(2) م.ن، 5 / 74.

(3) م.ن، 5 / 74.

(4) المغرب، 2 / 121.

المخزومي، (ووصف بخفة الروح، والانطباع الزائد والحلاوة رائق وكانت جريئة في غزلها، من ذلك وصفها لإحدى لياليها، والحلاوة وحفظ الشعر والمعرفة بضرب الأمثال مع جمال فائق وحسن رائق⁽¹⁾):

لله درُّ الليالي ما أحسِنَها وما أحسِنَ منها ليلة الأحدِ
لو كُنتَ حاضراً فيها وقد غَفَلت عينُ الرقيبِ فلم تنظرِ إلى أحدِ
أبصرتَ شمسَ الضحى في ساعدي قمرٍ بل ريمَ خازمةٍ في ساعدي أسدِ
وهي أبيات تنمّ عن أصالة فنية وموهبة خصبة أمدتها بالشعر الرائق في محيط نشأتها والمجتمع الذي وضعت نفسها فيه⁽²⁾.

حفصة الركونية

وهي من شاعرات القرن السادس الهجري عُرفت بذكااتها وبديعتها الحاضرة، من ذلك أنها ارتجلت أبياتا بين يدي الملك عبد المؤمن بن علي، وكانت تعمل مؤدبةً لنسائه⁽³⁾.

يا سيّد الناسِ يا مَنْ يُؤمّلُ الناسُ رِفْدَه
أُمننْ عليّ بطُرسٍ يكون للذّهر عُدّه
تخطّ يُمنّاك فيه «الحمدُ لله وَحده»

وقد ضمنت في البيت الأخير شعار دولة الموحدين «الحمد لله وحده».

وإلى جانب ذلك عُرفت بلطفها وخفة روحها، فراها تكتب بخط يدها إلى إحدى سيدات قرطبة هذين البيتين⁽⁴⁾:

يا ربّة الحُسنِ بل يا ربّة الكرمِ غُصّي جفونك عما خطّه قلّمي

(1) نفع الطيب، 5/ 31.

(2) انظر: مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، ص 159.

(3) نفع الطيب، 5/ 304.

(4) م.ن.

تصفّحيه بلحظِ الودِّ مُنعمَةً لا تحفلي برديء الخطِّ والكَلِمِ

وقد ارتبط اسمها بالوزير الشاعر الكاتب أبي جعفر أحمد بن سعيد وزير بني عبد المؤمن، إذ كثرت اللقاءات بينهما، ولم تنقطع إلا في فترات قصيرة. ويبدو أنها كانت متولّهة به، فنراها تبعث بأبيات إليه وقد استبدّ بها الشوق، ولما يمض على فراقهما وقت طويل:

أزورك أم تزورُ فإن قلبي إلى ما تشتهي أبداً يميل
وقد أمنت أن تظمى وتضحى إذا وافى إليّ بك القبول
فثغري موردٌ عذبٌ زلالٌ وفرعٌ ذؤابي ظلٌ ظليل
فعجّل بالجواب فما جميلٌ أناثك عن «بينة» يا «جميل»

وهي أبيات غزلية جريئة، تخطّت فيها الشاعرة آفاق الغزل في الشعر العربي، بما فيها من ألوان الإغراء والإثارة من ثغرٍ عذب كالزلال، وفرع الذؤابة الظليل، إلا أنها تتسم برقة الأنثى الشاعرة، وفي البيت الأخير تورية لطيفة. وإذ وصلت الأبيات إلى الوزير الشاعر ردّ عليها بيتين، نلمس فيهما أثران الرجل الوقور:

أجلّكم ما دام بي نهضةً عن أن تزوروا إن وجدتُ السبيل
ما الرّوض زوّاراً ولكنّما يزوره هُبّ النسيم العليل

وتتمادى حفصة في غزلها فتبعث إليه برقة شعرية، للإثارة فيها نصيبٌ كبير، إذ تقول:

زائرٌ قد أتى بجيدٍ غزالٍ مُطلِعٌ تحت جُنحه للهِلالِ
بلحاظٍ من سحرٍ بابلٍ صيغتُ ورُضابٍ يفوق بنت الدّوالي
يفضحُ الوردُ ما حوى منه خدٌ وكذا الثغرُ فاضحٌ لِّلالِي
ما ترى في دخوله بعد إذنٍ أو تراه لعارضٍ في انفصال؟

وإذ وصلت الرقعة إليه، نسمعه يقصُّ ذهاب الشاعرة إليه وطرقها بابه، وكبف استقبالها: «فعلمتُ أنها حفصة، وقمتُ مبادراً للباب، فقابلتها بما يُقابل به من يشفع له حُسنه وآدابه والغرام به، وتفضّله بالزيارة دون طلب في وقت الرغبة في الأُنس به⁽¹⁾». وكان للوزير منافس خطير يطمح في الاستيلاء على قلب حفصة هو الملك أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن، لكنه أخفق في أحلامه، فما كان منه إلا أن تخلّص من وزيره، ودبّر له مكيدة وقتله. وتحزن حفصة وترثيه إذ تقول⁽²⁾:

ولو لم تكن نجماً لما كان ناظري وقد غيت عنه مظلماً بعد نوره
سلامٌ على تلك المحاسن من شَج تناءت بنعماءه وطيب سروره

(1) نفع الطيب، 5 / 310 و 311.

(2) المغرب، 2 / 139.

المبحث الرابع شاعرات المريّة

وقد اشتهرت المريّة بشاعراتها المجيدات، ومنهنّ: الغسانية البجانية، وزينب المريّة، وأمّ الكرام بنت المعتصم بن صمادح، وجاريتها غاية المنى.

الغسانية البجانية

وقد عاشت الغسانية في منطقة بجمانة ونسبت إليها، وتعد من شاعرات القرن الخامس، ولم يصل إلينا من شعرها إلا القليل، منه أبيات في الغزل وشكوى الفراق، إذ تقول⁽¹⁾:

أَتَجَزَعُ أَنْ قَالُوا سَتَرْحَلُ أَظْعَانُ وَكَيْفَ تُطِيقُ الصَّبْرَ وَيَحْكُ إِذْ بَانُوا
فَمَا بَعْدُ إِلَّا الْمَوْتُ عِنْدَ رَحِيلِهِمْ وَإِلَّا فَصَبْرٌ مِثْلَ صَبْرِ وَأَحْزَانُ
عَهْدَتُهُمُ وَالْعَيْشُ فِي ظِلٍّ وَصَلَهُمْ أَنْتِ قُورُوسُ الْوَصْلِ أَخْضَرُ فِينَانُ
فِيَا لَيْتَ شَعْرِي وَالْفِرَاقُ يَكُونُ، هَلْ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِ الْفِرَاقِ كَمَا كَانُوا؟
وَهِيَ أَبْيَاتُ نَلَمَسَ فِيهَا مَسْحَةُ الْأَسَى، وَالْمُ الْفِرَاقُ، وَالصَّبْرُ عَلَيْهِ، تَخْتَفِي وَرَاءَهَا
كَبْرِيَاءُ النَّفْسِ.

زينب المريّة

وكانت معاصرة للغسانية، ولم يصل إلينا من شعرها سوى أبيات ثلاثة في الشكوى تخاطب صاحبها بضمير المفرد الغائب، فتقول⁽²⁾:

يَا أَيُّهَا الرَّاكِبُ الْغَادِي لَطِيفِهِ عَرَجَ أَنْتِكَ عَنْ بَعْضِ الَّذِي أُحْدُ
مَا عَالَجَ النَّاسُ مِنْ وَجْدٍ تَضْمَنُهُمْ إِلَّا وَوَجَدِي بِهِمْ فَوْقَ الَّذِي وَجَدُوا
حَسْبِي رِضَاهُ وَأَتَيْ فِي مَسْرَتِهِ وَوَدَّهَ آخِرَ الْأَيَّامِ أَجْتَهَدُ

(1) المغرب، 2 / 192.

(2) نفح الطيب، 6 / 22.

فهذه أبيات تنبض بالعاطفة الصادقة، وذات ديباجة صافية تنبئنا عن شاعرة موهوبة.

أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح

وهي شاعرة أميرة، وابنة صاحب المروة وأحد ملوك الطوائف. اعتنى والدها بتأديبها حتى تخرجت شاعرة تنظم الشعر الرقيق والموشحات. ولم يصل إلينا من شعرها إلا نزرٌ قليل، يدور حول الغزل الصريح، بما فيه من لوعة الحب، وجرأة على الخلوة بمحبوبها فتقول:

يا معشر الناس أفاعجبوا مما جئتُ لوعة الحب
لولا لم ينزل بيدر الدجى من أفقه العلوي للثرب
حسي بمن أهواه لو أنه فارقني تابعه قلبي
وتقول⁽¹⁾:

ألا ليت شعري هل سبيلُ الخلوة يُنزّه عنها سمعُ كل مراقب
ويا عجباً أشتاقُ خلوةً من غدا ومثواه ما بين الحشا والترائب

وتلقانا أيضاً «غاية المنى» وهي قينة شاعرة، اشتراها المعتصم بن صمادح، ارتبطت بالمروة، إلا أننا لا نقع على شيء من شعرها، سوى تلك الأبيات التي أجازتها.

المبحث الخامس

شاعرات وادي الحجرة

وتلقانا حفصة بنت حمدون الحجارية، وهي من شاعرات القرن الرابع الهجري، وتنسب إلى وادي الحجرة القريب من طليطلة. وتعد أول شاعرة أندلسية تطرق شعر الغزل، في مثل قولها:

لي حبيبٌ لا ينثني بعتابٍ وإذا ما تركته يزيد تيهها
قال لي: هل رأيت لي من شبيهٍ قلت أيضاً: وهل ترى لي شبيها؟!

وتليها أم العلاء بنت يوسف وهي من شاعرات القرن الخامس الهجري، وتعد امتداداً لشاعرة الغزل حفصة بنت حمدون، وفي غزلها حِشمة ورقّة، فنسمعها تقول⁽¹⁾:

كلُّ ما يصدر منكم حسنٌ وبُعْليَاكم تحلَّى الزَّمنُ
تعطفُ العينُ على منظركم وبِـذِكرَاكم تلـدُّ الأذنُ
مَنْ يَعِشْ دونكمُ في عُمره فهو في نيل الأمانِي يُغْبَنُ

خصائص وسمات

1. أسهمت الشاعرات الأندلسيات في حركة الأدب الأندلسي، وأثرينها، وشكلن ملمحاً بارزاً فيها، في إطار من الحرية، لم تنله الشاعرات في المشرق.
2. كانت بواكير الشعر النسوي في الأندلس من الجوّاري الوافدات من المشرق، منذ القرن الثاني الهجري، وكنّ يتسرّبن إلى دور الحريم في القصور. ثم أخذ يزدهر مع ظهور ملوك الطوائف، سواء عند الحرائر من بنات الملوك والأمراء، وبنات الشعب، أو الجوّاري بمختلف طبقاتهنّ. ومن ثمّ ظهر لونان من الأدب: أدب الجوّاري والقيان، وأدب الحرائر.

(1) المغرب، 38/2.

3. توزّعت الشاعرات في مختلف مدن الأندلس ومقاطعاتها، في إشبيلية، وغرناطة، وقرطبة، والمرية، ووادي الحجاره، على مدى القرون التي عاشها العرب في الأندلس.
4. تدور الأغراض الشعرية عند الشاعرات الأندلسيات حول الغزل والمديح ووصف الطبيعة والهجاء والشكوى. ويتراوح غزلهنّ بين الغزل العفيف الرقيق، والغزل الصريح الذي يتسم بالجرأة والتطرف والإثارة، تبدو فيه هي العاشقة المتلهفة . وتألق بعضهنّ في وصف الطبيعة وبخاصة وصف الوديان والأنهار والرياض. ومن المستهجن أن تبلغ الشاعرة الأندلسية في الهجاء مبلغ الفحش والبذاءة الذي وصل إليه كبار الهجّائين في الأدب العربي.
5. يتفاوت شعر المرأة الأندلسية من حيث الصنعة البديعية والصور الفنية والتشبيهات. وهو في الإجمال يميل الى الاعتدال، ويخلو من الغلو.
6. تبدو الشاعرة الأندلسية قصيرة النّفس، فأكثر شعرها مقطّعات، وهو يخلو من القصائد المطوّلات في مختلف الأغراض الشعرية.
7. شاركت بعض شاعرات الأندلس في النقد السياسي، كالذي نجده عند الشاعرة حسانة التميمية.

نصوص من الشعر الأندلسي (دراسة وتحليل)

المبحث الأول: قصيدة «أضحى التنائي» لابن زيدون

المبحث الثاني: قصيدة «وصف الجبل» لابن خفاجة

المبحث الثالث: قصيدة «رثاء الأندلس» لأبي البقاء

الرّندي

الفصل الثامن

نصوص من الشعر الأندلسي (دراسة وتحليل)

المبحث الأول

قصيدة «أضحى التناهي» لابن زيدون

1. الشكوى من الفراق (1-7)

أضحى التناهي بديلاً من ئدانينا وناب عن طيب لُقيانا تجافينا
ألا- وقد حان صُبح البين- صَبَحنا حَيْنٌ، فقام بنا لِلْحَيْنِ داعينا
من مُبلَغُ الملبسينا بانتراحهمُ حُزناً مع الدهر لا يَبْلَى، وبُلينا
أَنَّ الزَّمان الذي ما زال يُضحكننا أنساً بقربهمُ قد عاد يُبكيانا
غِيظَ العِدا من ئساقينا الهوى، فَدَعَوْا بأن نَعَصَّ، فقال الدهرُ: آمينا
فانحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا واثبتَ ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون، وما يُخشى تفرقنا فاليومَ نحنُ، وما يُرجى تلاقينا

2. عتاب ولادة (8-10)

يا ليت شعري- ولم نُعَيَّبُ أعاديكم- هل نال حظاً من العُتْبَى أعاديانا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم رأيا، ولم نتقلد غيره ديننا
ماحقناً أن تُقَرَّوا عينَ ذي حسدٍ بنا، ولا أن تُسَرَّوا كاشِحاً فينا

3. تصوير حاله بعد الفراق (11-16)

كنا نرى اليأسَ ئسلينا عوارِضُهُ وقد يئسنا، فما لليأسِ يُغرِينا
بئسُمُ وبنا، فما ابتلَّتْ جوانحنا شوقاً إليكم، ولا جفَّتْ مآقينا

نكاد- حين تُناجيكم ضمائرنا - يقضي علينا الأسي، لولا نأسينا
حالتُ لفقدُكم أيامنا، فعدت
إذ جانبُ العيشِ طُلُقٌ من تألفنا
وإذهصرنا فنون الوصلِ دانيةً

4. الحنين إلى الماضي (17- 20)

لُيسقَ عهدكم عهدُ السُرور، فما
لا تحسبوا نأيكم عنا يُغيرنا
والله ما طلبتُ أهواؤنا بدلاً
ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا

5. مناجاتها عبر البرق والنسيم (21- 24)

يا ساريَ البرقِ غادِ القصرَ واسقِ به
واسألْ هنالك: هل عنتى تذكُرنا
ويا نسيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تحيتنا
فهل أرى الدهرَ يقضينا مُساعفةً

6. وصف جمال المحبوبة ومحاسنها (25-36)

ريبُ مُلكٍ كأنَّ الله أنشأه
أو صاغهُ ورِقاً محضاً، وتوجَّهُ
إذا تأود أدتَه رفاهيةً
كانت له الشمسُ ظِئراً في أكلته
كأنما أثبتتُ في صحنٍ وجتته
ما ضرَّ أنْ لم نكنْ أكفاءه شرفاً
يا روضةً طالما أجنّت لواحظنا

مِسكاً، وقدَرَ إنشاءَ الورى طينا
من ناصع الثبرِ إبداعاً ونحسنا
تومُ العقود، وأدمته البُرى لنا
بل ما تجلَّى لها إلا أحيينا
زهرُ الكواكبِ تعويذاً وتزييناً
وفي المودَّة كافي من تكافينا
ورداً جَلاه الصَّبَا غَضاً ونسرنا

ويا حياة تملّينا بزهرتها
ويا نعيمًا خطرنا من غضارته
لسنا نسميك إجلالاً وتكرمةً
إذا انفردت وما شورك في صفة
يا جنة الخلد أبدلنا بسدرنها
مُنَى ضُرُوباً وَلَدَاتِ أَفَانِينَا
فِي وَشَى نُعْمَى سَحَبْنَا ذِيلَهُ حِينَا
وَقَدْرُكَ الْمُعْتَلَى عَنْ ذَاكَ يُغْنِينَا
فَحَسْبُنَا الْوَصْفُ إِضْحَاحاً وَتَبِينَا
وَالْكُوْثِرُ الْعَذْبُ زُفُوماً وَغَسَلِينَا

7. مضمون رسالته إليها (37- 52)

إن كان قد عَزَّ في الدنيا اللقاء ففي
كأننا لم نبت، والوصلُ ثالثنا
سِرَّانٍ في خاطر الظُّلْمَاءِ يَكْتُمُنَا
لا غَرَوُ في أن ذكرنا الحزن حين نَهَتْ
إنا قرأنا الأسى يوم النوى سوراً
أما هوالك فلم نعدِلْ بمنهله
لم تُجِفْ أَفَقَ جَمَالٍ أَنْتِ كوكبه
ولا اختياراً تَجَنَّبْنَاهُ عَنْ كُتُبِ
نَاسِي عَلَيْكَ إِذَا حُثَّتْ مُشْعِشَةٌ
لا أَكُوسُ الرِّاحِ تُبْدي من شمائلنا
دُومِي عَلَى الْعَهْدِ - مَا دُمْنَا - مُحَافِظَةٌ
فما استعضنا خليلاً منك يجبسنا
ولو صَبَا نَحُونَا مِنْ عَلَوِ مَطْلَعِهِ
أولي وفاء - وإن لم تُبْذَلِي صِلَةَ -
وفي الجوابِ مُتَاعٌ إِنْ شَفَعْتَ بِهِ
مَوَاقِفِ الْحَشْرِ نَلْقَاكُم، وَيَكْفِينَا
وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانٍ وَاشِينَا
حَتَّى يَكَاذَ لِسَانُ الصَّبْحِ يَفْشِينَا
عَنْهُ التُّهَى، وَتَرَكْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا
مَكْتُوبَةً، وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِينَا
شِرْباً، وَإِنْ كَانَ يُرُونَا فَيُظْمِنَا
سَالِينَ عَنْهُ، وَلَمْ نَهْجِرْهُ قَالِينَا
لَكِنْ عَدْتْنَا - عَلَى كُرِهِ - عَوَادِينَا
فِينَا الشُّمُولِ، وَغَنَانَا مُغْنِينَا
سِيماً ارْتِيَاكِ، وَلَا الْأَوْتَارُ ثُلْهِينَا
فَالْحَرُّ مِنْ دَانٍ إِنْصَافَا، كَمَا دِينَا
وَلَا اسْتَفْدْنَا حَبِيباً عَنْكَ يَثِينَا
بَدْرُ الدُّجَى لَمْ يَكُنْ - حَاشَاكَ - يُصْبِينَا
فَالطِّيفُ يُقْنَعُنَا، وَالدَّكْرُ يَكْفِينَا
بِيضَ الْأَيْدِي الَّتِي مَا زَلْتِ ثَوْلِينَا

عليك منّا سلامُ الله ما بقيتْ صباةٌ بك تُخفيها فتُخفيها

جوا القصيدة

كان لولادة بنت المستكفي متدى في بيتها، يرتاده الأدباء والشعراء والوزراء، وكان ابن زيدون من رواد ذلك المتدى، فتولت الشاعر، ونشأت بينهما علاقة مودة ومحبة طغت على ما سواها من قصص الحب والغزل في الأندلس.

ثم دخلت شخصية الوزير ابن عبدوس في قصة حب ولادة في صورة منافس لابن زيدون، فأثرته عليه، وأحسن بأنه قد أقصي عن مجلسها، ولم يلبث أن تعرض لمؤامرة أدخلته السجن، ووقع في حال من اليأس والحرمان، وحاول ابن زيدون أن يستدرّ عطف الأمير ابن جهور من خلال رسالته الموسومة بـ « الرسالة الجدية » فلم يفلح في نيل عطفه، إلا أنه تمكن بعدئذ من الهرب والتخلص من سجنه، فاتجه إلى إشبيلية واتصل بأمرها المعتضد بن عبّاد.

وأصبحت قصة حبّه لولادة وما جرّته من جراحات لكبرياته ملهمة له، فكتب إليها هذه القصيدة التي لم تعد وصفاً للمرأة بقدر ما هي معرض لعواطفه وأحاسيسه.

بنية القصيدة ومسارها

تتمحور القصيدة في سبع شرائح، هي:

1. الشريحة الأولى: الشكوى من الفراق (1-7).
2. الشريحة الثانية: عتاب ولادة (8-10).
3. الشريحة الثالثة: تصوير حاله بعد الفراق (11-16).
4. الشريحة الرابعة: الحنين إلى الماضي (17-20).
5. الشريحة الخامسة: مناجاتها عبر البرق والنسيم (21-24).
6. الشريحة السادسة: وصف جمال المحبوبة ومحاسنها (25-36).
7. الشريحة السابعة: خاتمة القصيدة (أو مضمون رسالته إليها) (37-52).

جاءت القصيدة في قالب رسالة، اتخذت سياقاً عاطفياً، استجمع فيه الشاعر طاقته الشعرية، وحشد فيه مشاعره وأحاسيسه في مختلف حالاتها، من شكوى وحنين،

وعتاب وتقريع، ويأس وأمل، وتوسل وحسرة، وصدق ووفاء، وذكرىات وتمنيات، وعشق وغزل.

وقد لفتت هذه القصيدة أنظار النقاد، فوصفوها وأشادوا بها، ومما قاله ابن بسام في هذا الصدد: «وهذه القصيدة بجملتها فريدة، وقد عارضه فيها جماعة قصرّوا عنه⁽¹⁾». وقال صلاح الدين الصفدي: «ومن ذلك قصيدته النونية التي سارت في البلاد، وطارت في العباد، وقد اشتهرت حتى صارت محذورة، فيقال إنه ما حفظها أحد إلا مات غريباً، وعارضها الناس في حياته وبعد موته ولم يقاربوها⁽²⁾».

وأيّ كان الأمر، فهذه القصيدة تعد من عيون الشعر العربي في مختلف عصوره، عارضها كثير من الشعراء، فلم يبلغوا شأواً ابن زيدون، ومن أشهر معارضاتها، معارضة أحمد شوقي ومطلعها:

يا نائحَ الطلح أشباه عوادينا نشجى لواديك أم ناسى لوادينا

تحليل النص

تشكل الأبيات السبعة الأولى مقدّمة في الشكوى من الزمن، فمطلع القصيدة:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لُقيانا تجافينا

يبدأ بالفعل الماضي (أضحى) الذي يمثل فعلاً دالاً على التحوّل، إذ حلّ التنائي محلّ التداني، وحلّ التجافي محلّ طيب اللُقيا، وتوحي كلمتا «بديلاً» و«ناب» بعمق هذا التحوّل وسعته، وفي هذا التحوّل انقطاع عن المحبوبة على الصعيد النفسي، يمثل ما آلت إليه العلاقة بين ابن زيدون وصاحبته «ولادة»، مما ينذر بغيوم من الأسى التي احتشدت بعد الفراق والتغيير، ومن ثم أخذ يبكي ويتحسر على عهود مضت كانت حافلة بالسرور.

(1) الذخيرة، 1/ 1/ 362.

(2) تمام المتون، ص 12 و13.

ثم يُلقِي تبعة تحوّلها عنه إلى عاملين اثنين، هما: الأعداء والدّهر؛ فالأعداء غاظهم ما كان بين الشاعر وولادة من علاقة حميمة، فدعوا عليهما بالغصّة، واستجاب الدهر لهم، ومن ثم حلّ الفراق محلّ الوثام وانقطعت أسبابه بها.

ونراه يمضي في تجربته، فينبري بتوجيه العتاب لولادة التي انصرفت عنه وآثرت عليه غيره، ومن ثمّ يُحمّلها انفصام هذه العلاقة. وأخذ يصف حاله بعد الفراق، فوقع في حال من اليأس والبكاء والأسى، فعيناه تذرّفان الدمع، ويبلغ به الأسى حداً كبيراً، ومن هنا يأتي تأسيه، وقد غدت أيامه سوداً وهو حسير، بعد أن كانت ليلاليه حافلة بالهناء والسرور. ولا يلبث أن يعود إلى الماضي متلذداً بذكرياته، ويركز على أمرين:

أ. أنه لم يتغيّر.

ب. ولم يرض بديلاً عنها، مع أنها صدّت عنه، وأهملت شأنه، وجرحت كبريائه.

وإذ يستبد به الحنين إلى الماضي، فقد أخذ يناجيها عبر البرق والنسيم، ويصوّرها بإنسان يحمل تحياته إليها، وهي صورة فيها تشخيص.

وتشير كلمة (كان) إلى الزمن الماضي الذي لم يعد قائماً، وكانت ولادة تسقيه صرف الهوى والود، ولم تعد الآن كما كانت.

ويتحدث في الشريحة التالية عن جمال صاحبتة ومحاسنها، ويمضي في تصوير هذه المحاسن فإذا هي مخلوقة من المسك في حين خلق غيرها من الطين، وبشرتها بيضاء، وشعرها أشقر، وجسمها ناعم، وهي روضة وجنة وكوثر، وواضح أن هذه الصفات تؤلف فيما بينهما (امرأة مثال) افتتن بها، وجعلها تسمو فوق البشر، هذه المرأة التي يتغنى بها هي تعبير غير مباشر عن تغنيّه بنعيم الماضي ورغد العيش.

أما خاتمة القصيدة فأشبه بصورة الاحتضار، إذ يبدو الشاعر متحسراً على فراق ولادة ومغادرة جنتها، ومستسلماً لليأس، فلم يعد يقوى على لقاءها في الدنيا، ويتمنى أن يلقاها في الآخرة.

وإذ يصوّر لحظات الماضي الجميلة، يُجدّد حزنه وأساه، وما آله أنّ ولادة أقرّت أعين الحساد والأعداء في حين لم يفعل الشاعر شيئاً من ذلك.

ويُجدد لها العهد بالمحافظة عليها وعدم إثثار غيرها عليها، وفي المقابل يلتبس الشاعر من صاحبته أن تدوم على عهده، وكأنه يومئ إلى أنها تخلّت عنه، ويلتبس منها جواباً على رسالته.

ولا ينسى أخيراً، وقد بلغ به الشوق منتهاه، أن يختم قصيدته بما يناسب جلال الموقف وروعته:

عليك منا سلامُ الله ما بقيت صباةً بكٍ نخفها فتخفينا

الطبائع الفنية

أولاً: اللفظة المفردة والعبارة

1. اللفظة المفردة: وقد تميزت اللفظة المفردة في هذه القصيدة برصد التحولات التي طرأت على العلاقة بين ابن زيدون وولادة مثل: بديلاً، ناب، وحالت، وبدلاً، وبديلاً، وأبدلنا، ونعدل، واستعضنا. فضلاً عن ألفاظ تدل على التبدل في المكان (الجنة / الآخرة) والزمان (أيامنا / ليالينا)، وألفاظ تدل على الفراق مثل: البين، تفرقنا، النأي، البعد.

2. وتختص عبارة ابن زيدون بالحوية المتولدة من تبدل الأساليب وفقاً لتبدل الألفاظ والمعاني مثل:

أ. النداء: استخدمه الشاعر في عدة مواضع، هي:

يا ساري البرق، يا نسيم الصبا، والنداء فيهما موجه لغير العاقل وقد قصد به التمني.

يا روضة، يا حياة، يا نعيماً، يا جنة، والنداء فيها موجه إلى ولادة للدلالة على شقائه وحسرتة، فهي الروضة والحياة والنعيم والجنة التي افتقدها وأخذ يأسى عليها.

ب. صيغة الجمع: وهناك أسلوب آخر دأب عليه كثير من شعراء الغزل وابن زيدون واحد منهم، وهو صيغة الجمع، إذ يخاطب ولادة بضمير المخاطب الجمعي (أعاديكم، بعدكم، تفرّقوا بنتم، عهدكم، كنتم، منكم، عنكم،) في إطار الحنين إلى الماضي، في حين يخاطبها بضمير المخاطب المفرد (نُسميك،

انفردت، هواك، أنت، عليك، دومي.....) في إطار الحديث إليها عن قرب وتخصيصها بوصف ما .

ويلاحظ المتأمل للقصيد أن ابن زيدون ظلّ يقدم نفسه بالضمير الجمعي، «نا» في مثل قوله: (كنا نرى، نكاد، ضمائرنا، أهواؤنا، تحيتنا، أنا قرأنا.....) في إطار التّديّة التي تنبع من اعتزازه بنفسه إزاء امرأة جرححت كبرياءه، وكأنه يحاول التغلب على شعوره بالنقص تجاه ولادة يوصفها أعلى منه نسباً، وكذلك من باب التعالي على الوزير ابن عبدوس منافسه في حب ولادة، الذي استأثر بها، الذي ورغبة منه في ترجيح كفته عليه. ومن هنا ارتبطت هذه القصيدة بسيرة صاحبها، وأصبحت من خلاصات حياته وتجربته الشعرية، وغدّت من أبرز عيون الشعر العربي في الغزل.

ج. الاستفهام: وهو يوافق الحوار الداخلي الذي يُجريه الشاعر في قصيدته ويصعبه كذلك معنى التعجب والدهشة والحسرة، كقوله:

• هل نال حظاً من العتبى أعادينا؟

• هل عنى تذكّرنا إلفاً، تذكّره أمسى يُعَيّننا؟

• فهل أرى الدهر يقضيّنا مساعفة فيه ، وإن لم يكن غباً تقاضينا؟

د. التضاد في القصيدة: تتحرك قصيدة ابن زيدون النونية عبر شبكة من الثنائيات الضدية من طباق ومقابلة، ترصد التحولات التي طرأت على حياة الشاعر إثر تحوّل ولادة عنه ووقوعها على غيره.

ولا شك في أن هذا التحول في العلاقة بين ابن زيدون وولادة يشكل القضية الرئيسة في القصيدة، ومن هنا نجد الشاعر يحشد هذه المفارقات ليوضّح بها معانيه المتناقضة، من ذلك :

أضحى التناهي بديلاً من تدانينا ونابَ عن طيب لقيانا تجافينا

فالمقابلة بين اثنين واثنين، بين «التناهي» و «التداني» وهي ثنائية مكانية ، وبين ثنائية أخرى هي «التجافي» و «طيب اللقيا» .

أَنْ الزمان الذي ما زال يُضحِكنا أنساً بقربهم قد عاد يُبكيُنَا
 فالطباقي واضح في «يُضحِكنا» و «يبكيُنَا» ويدلّ على تحول الزمن من زمان أنس
 ، وضحك إلى زمن بكاء وعويل. وفيه ثنائية مكانية بين «القرب» و«البعْد»
 وثنائية تتصل بحال الشاعر قبل أيام الوصال وبعد فراق صاحبتِه.
 بنْتُمْ وبنّا فما ابتَلتْ جوانِحُنَا شوقاً إليكم ولا جفّت مآقِينَا
 وفيه ثنائية الفراق بين الشاعر وصاحبتِه «بنْتُمْ وبنّا» تعزّزها ثنائية أخرى بين
 «ابتَلتْ» و «جفّت» .

فالأولى علامة خصب وإمراع والثانية علامة يأس وجذب بسبب الفراق .
 حالتْ لفقدِكُمْ أيامُنَا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
 فالمقابلة واضحة بين «الأيام السود» و«الليالي البيض» وتدلل على تحوّل أوقات
 الهناء والسُرور إلى أوقات الأحزان والهموم.

إن كان قد عزّ في الدنيا اللقاء ففي مواقف الحشر نلقاكم ويكفينَا
 وطابق بين «الدنيا» و «الآخرة» وهي مواقف الحشر، وهذه ثنائية مكانية وزمانية
 معاً، تدلّ على يأس الشاعر من لقاء محبوبته في الدنيا، وأمله في أن يلقاها في
 الجنة.

يا جنة الخلدِ أبدلنا بسدرتها والكوثرُ العذبُ رُقوماً وغسلينا
 فقد طابق بين «الجنة» التي تمثلت بسدرتها وكوثرها العذب، و «النار» التي
 تمثلت في الرقوم والغسلين، وهي مطابقة تدل على ما آلت إليه الحال إثر
 الافتراق عن «ولادة»، فقد كانت جنته أيام الوصال وأصبحت الحياة من دونها
 جحيماً، والأمثلة في ذلك كثيرة.

والإسراف في هذه الثنائيات الضدية يدلنا إلى أي مدى وقع ابن زيدون تحت
 وطأة الفراق، والآثار التي تركتها هذه التحولات.

• الاقتباس والتضمين: ألم ابن زيدون ببعض الألفاظ والتعبيرات القرآنية، ففي
 قوله:

وإذ هصرنا فنون الوصل دانيةً قطافها، فجئنا منه ما شينا
فهو إذ يجعل الوصل حقل ثمار يجني منه ما يشاء نظر إلى قوله تعالى: ﴿ فِي جَنَّةٍ
عَالِيَةٍ ۖ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۚ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۚ ﴾ (٢٤) (١).
وفي قوله:

لُيَسَّقَ عَهْدُكُمْ عَهْدَ السُّرُورِ فَمَا كُنْتُمْ لِأُرَواحِنَا إِلَّا رِياحِينَا
نظر في شطره الثاني إلى قوله تعالى: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ بِعِيمٍ ۚ ﴾ (٨٩) (٢)؛ ليضفي
على عهد ولادة البهجة والسعادة والسرور.
وفي قوله:

رَيْبُ مُلْكٍ كَأَنَّ اللَّهَ أَنْشَأَهُ مِسْكَاً وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِيناً
يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ۚ ﴾ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقَنِي
مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُمْ مِنْ طِينٍ ۚ ﴾ (١٢) (٣)، ليضفي على ولادة صفة التميز على سائر البشر الذين
خلقوا من طين .

تجدر الإشارة إلى أن العباس بن الأحنف سبقه إلى هذا الاقتباس ، إذ يقول:
لم يخلق الله في الدنيا لها شبيهاً إنني لأحسبها ليست من البشر
في سياق غزله بمحبوبته قُوز.

أما التضمين فلا نفع عليه إلا نادراً، وأظهر ما جاء فيه قوله:
دومي على العهد ما دمنا محافظةً فالحرّ من دان إنصافاً كما دينا
فقد ضمّنه المثل العربي «أنجز حرُّ ما وعد» ولم يصرفه عن معناه.

(1) الحاقّة، الآيات 22_24.

(2) الواقعة، الآية 89.

(3) الاعراف، الايتان 11 و 12.

ثانياً: الأفعال

استخدم ابن زيدون الأفعال الماضية والمضارعة والأمر بصيغها المتعددة على النحو الآتي:

1. الفعل الماضي

تطغى على بنية القصيدة سلسلة من الأفعال الماضية (نحو سبعين فعلاً)، في نطاق الحديث عن نضارة الماضي وحسنه قبل انتهاء العلاقة بينه وبين ولادة ومن هنا نراه يتشبث بالماضي ويتلذذ بذكره ويتحسر على فراق ولادة ومغادرة جنته، فيقول:

بنتم وبنّا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا حفّت مآقينا
ويقول:

يا جنة الخلد أبدلنا بسدرتها والكوثر العذب زقوماً وغسلينا
كأننا لم نبث والوصل ثالثنا والسعد قد غصّ من أجفان واشينا
ثم لا يلبث أن ييأس من لقائها في الدنيا، ويرجو أن يكون اللقاء بها في الآخرة، بقوله:

إن كان قد عزّ اللقاء بكم في موقف الحشر نلقاكم وتلقونا
ونراه يكثر من استعمال الفعل (كان) ومشتقاته (نحو خمس عشرة مرة)، للدلالة على حنينه إلى الماضي الذي ولّى ولم يعد قائماً، نحو قوله:

فما انحلّ ما كان معقوداً بأنفسنا وابنت ما كان موصولاً بأيدينا
وقوله:

كنا نرى اليأس تُسلينا عوارضه وقد يئسنا فما لليأس يُغرينا

2. الفعل المضارع

وفي المقابل استعمل الفعل المضارع (نحو خمسين مرة)، في نطاق الحديث عن الحاضر واليأس منه وذلك أن الزمن قد تحول من زمان أنس وبهجة وقرب، إلى زمن بكاء وحزن وفراق على نحو ما يظهر في قوله:

أنّ الزمان الذي مازال يُضحكنا أنساً بقربهم قد عاد يُبكيينا

إذ وازن فيه بين الماضي والحاضر.

3. صيغة الأمر

ألم ابن زيدون بصيغة الأمر لتألفها وطبيعة التجربة التي يمرّ بها، وبخاصة بعد أن وقع في حال من اليأس، فكان لا بدّ من توسل الأمر بصيغته المتعددة للعبور إلى حال من الأمل، وطرق الأبواب التي توصله إلى ولادة، ووردت صيغة الأمر في المواضع التالية:

- أ. «لَيْسَقَ عهدكم» استخدم صيغة الأمر وقصد بها الدعاء والغرض هو الحنين إلى المحبوبة.
- ب. «لا تحسبوا نأيكم عنا يُغيرنا»، ليدلل على بقاءه على العهد مع أنها صدّت عنه وفارقتة.
- ج. «يا ساري البرق غادِ القصر واسقِ به» استخدم الفعلين «غادِ» و «اسقِ» وقصد بهما التمني. والغرض هو الدعاء لها بالخير.
- د. «ويا نسيم الصبّا بلّغ تحيّننا»، يتمنى على النسيم أن يحمل تحيته إلى المحبوبة.
- هـ. «دومي على العهد» و «أولي وفاء» قصد بهما الالتماس.

ثالثاً: وسائل التجسيد

ألم ابن زيدون بالتصوير في قصيدته النونية، رغم قيامها على الثنائيات الضدية والمقابلات، وقد جاءت صوره نابضة بالحياة، حافلة بالحركة في مواضع متعددة من قصيدته، سواء في تشابهه أو في استعاراته أو في كنياته التي أجاد في توظيفها.

1. التشبيه

ألم ابن زيدون بالتشبيه في قصيدته، في تمثيله لبعض المعاني، وأظهر ما جاء منه قوله:
إذ جانبُ العيشِ طَلَقَ من تألّفنا ومربّعُ اللهوِ صافٍ من تصافينا
فقد شبّه اللهو بالمرور العذب، وشبه عدم التكدّر بصفاء المورد.
وقوله:

لَيْسَقَ عهدكم عهدُ السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحيناً

فقد شبّه ولادة بالرياحين، ليضفي على ماضيه صورة بارعة الظلال للمرأة التي ملأت عليه حياته سروراً وسعادة.

وقوله:

كانت له الشمسُ ظئراً في أكلته بل ما تجلّى لها إلا أحياناً
شبّه الشمس بالمرضعة لحبيته، وهو تشبيه بليغ ليدل على أنها كانت تعيش مرفهة ومُدلّة.

2. الاستعارة

وقد عرض الاستعارة المكنية في مواضع من قصيدته، وأظهر ما جاء منها قوله:

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغضّ فقال الدهر: آمينا
نكادُ حين تُناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى، لولا تأسينا
وفيه استعارة مكنية، إذ شخّص الضمائر في الناس الذين يتناجون.
وقوله:

والله ما طلبتُ أهواؤنا بدلاً منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
فقد صوّر الأمانى بإنسان ينصرف، على سبيل الاستعارة المكنية.
وقوله:

ويا حياةً تمّلينا بزهرتها منى ضروباً ولذات أفانينا
فقد شبه الحياة بصورة إنسان وشخصها على سبيل الاستعارة المكنية.
وقوله:

يا جنّة الخلد أبذلنا بسدرتها والكوثر العذب زقوماً وغسلينا
فقد شبّه ولادة بالجنة بسدرتها وكوثرها وحذف المشبه، فالاستعارة تصريحية وهي أدنى إلى طبائع التشبيه، وكذلك شبّه حياته بالنار بزقومها وغسلينها على سبيل الاستعارة التصريحية.

صنو ذلك قوله:

يا روضةً طالما أجنّت لواحظنا ورداً جلّاه الصّبّا غضاً ونسرينا
فقد استعار صورة الروضة بوردها الغض والنسرين لمحبوته ليدلّل على أنه كان
يتملّى جمالها ومحاسنها.
وقوله:

كأننا لم نبّت والوصل ثالثنا والسعد قد غَضّ من أجفان واشينا
سرّان في خاطر الظلماء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يُفشيّنا
فقد استعار الوصل في المشاركة للتدليل على السعادة والهناء بين الشاعر
وصاحبته، وجعل السعد يأمر الواشين وينهاهم ويغضّ من جفونهم، وجعل الليل
خاطراً يكتّم الأسرار، وللصبح لساناً يُفشيها. وهذه الاستعارات مشبعة بالبديع القائم
على التشخيص فطابق بين الخاطر واللسان، وبين الظلماء والصبح، وبين يكتمنا
ويُفشيّنا.
وقوله:

ويا نسيم الصّبّا بلّغ تحيتنا من لو على البعد حيّا كان يُحيينا
ففخذ شخص النسيم، إذ ينوب عن الشاعر ويُمثّله، ويتجه إلى المحبوبة ناقلاً
إليها تحيّاته.
3. الكناية

وهو يعتمد إليها في مواضع من قصيدته عندما يميل عن تقرير الأشياء، وفهمها
إلى تصويرها وتمثيلها، كقوله:

بنتم وبنا، فما ابتلّت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا
ونقع فيه على كنايتين هما:

أ. ما ابتلّت جوانحنا تمثيلاً لحرمانه من الراحة والاستقرار.

ب. ولا جفّت مآقينا تمثيلاً لما أصابه من حزن وأسى.

وقوله:

رَيْبُ مُلْكٍ كَأَنَّ اللَّهَ أَنْشَأَ مَسْكَاً، وَقَدَّرَ إِنْشَاءَ الْوَرَى طِينَا
اتَّخَذَ الْمَسْكَ كُنَايَةً عَنِ الْعِزِّ وَالرَّفَاهِيَةِ، وَالتَّدْلِيلَ عَلَى تَمَيُّزِ وَلَاذَةِ عَنْ سَائِرِ الْبَشَرِ،
وَمِنْ ثَمَّ تَمَيُّزَ عِلَاقَتِهِ بِهَا، فَهِيَ أُمُويَةٌ مِنْ بَيْتِ الْخُلَافَةِ وَهُوَ مَخْزُومِي النِّسَبِ.
وقوله:

حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامَنَا فَعَدْتُ سُوداً وَكَانَتْ بِكُمْ بَيضاً لِيَالِينَا
فَدَلَّلَ بِالْأَيَّامِ السُّودَ عَلَى الشَّقَاءِ، وَدَلَّلَ بِاللَّيَالِي الْبَيضَ عَلَى الْهَنَاءِ وَالسَّرُورِ
وَالسَّعَادَةِ.
وقوله:

وَفِي الْجَوَابِ مَتَاعٌ إِنْ شَفَعْتَ بِهِ بَيضَ الْأَيْدِي الَّتِي مَازَلْتُ تُؤَلِّينَا
فَدَلَّلَ بِبَيضِ الْأَيْدِي عَلَى الْإِيْدِي الْكَرِيمَةِ الْمَحْسَنَةِ الَّتِي تَبْذُلُ الْمَعْرُوفَ.
ونقع عليه في قوله:

بَنْتُمْ وَبَنَّا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقاً إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَآفِينَا
وَالْمَجَازُ الْمُرْسَلُ فِي لَفْظَةِ « جَوَانِحُنَا » عِلَاقَتَهُ الْمَحَلِّيَّةَ أَرَادَ بِهِ الْقَلْبَ.
رابعاً: الموسيقى

1. الموسيقى الخارجية

وتقوم على وحدتي الوزن والقافية، فالوزن هو البحر البسيط، وهو من البحور المركبة والراقصة، لما يمتاز به من نغمات عالية وارتفاع في الأمواج الصوتية. وأما القافية فقد جاء رويها على النون المفتوحة المشبعة بالمد، وهذا الامتداد يساعد على إبراز مشاعر الأسى والحزن، في قصيدة تدور حول موضوع غنائي، يتحدث فيه الشاعر عن وجدانه ومرارة تجربته.

2. الموسيقى الداخلية

ونلمس الموسيقى الداخلية في التجانس الصوتي الذي استعمله الشاعر في التعبير عن الجو النفسي الذي كان يعيشه، وهو جو الفراق والتغير الذي احتشدت بعده غيوم الأسى والحزن على ما فات، والبكاء على عهود مضت وأحلام تبددت، فضلاً عن أن ابن زيدون وهو بحثري الموسيقى أراد أن يُزين قصيدته بهذا التجانس. ومن ثم استعمل هذه التجانسات، بصورها المتعددة، ومنها:

أ. رد العجز على الصدر، وهو لون بديعي يُكسب القصيدة إيقاعاً وجمالاً، ومن أمثلة ذلك كلمتي «أعاديكم» و «أعاديها» في قول ابن زيدون:

يا ليت شعري_ ولم نعتب أعاديكمْ هل نال حظاً من العُتبى أعاديها
وكلمتي « اسق » و « يسقينا » في قوله:

يا ساريَ البرقِ غادِ القصرِ واسقِ به من كان صِرْفَ الهوى والودُ يسقينا
وكلمتي « عنى » و « يُعني » في قوله:

واسألُ هناكَ، هل عنى تذكرنا إلفاً، تذكره أمسى يُعنيها؟

والأمثلة كثيرة.

ب. الألفاظ التي تتكرر فيها بعض الحروف، وتقوم على علاقة اشتقاقية مع المحافظة على معنى مشترك بينها، من ذلك ما ورد في كلمتي «صُبْح» و «صَبَحنا» وكلمات «حان- حَيْن- حين» في قول ابن زيدون:

ألا وقد حان صُبْح الين صَبَحنا حينَ فقام بنا للَحْنِ ناعينا
وكلمتي (يلى ويُلينا) في قوله:

من مُبلغِ الملبسِنا بانتزاحهم حظنا مع الدهر لا يلى ويُلينا
وكلمات (تحيِّتنا- حيّاً- يُحيينا) في قوله:

ويا نسيم الصَّبَا بَلِّغ تحيِّتنا من لو على البُعدِ حيّاً كان يحيينا

والأمثلة في ذلك كثيرة.

ج. الألفاظ التي تتكرر فيها بعض الحروف، وهي ألفاظ تشترك في الأصل الاشتقائي الصرفي لكنها تختلف في المعنى، ومن أمثلة هذا اللون في كلمتي (الأسى وتأسينا) في قوله:

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضي علينا الأسى لولا تأسينا
فالأولى بمعنى الحزن والثانية بمعنى التصبر، وتتمثل العلاقة المعنوية بينهما في حاجة أحدهما إلى الآخر.

وكلمتي (أرواحنا ورياحينا) في قوله:

ليُسق عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحيننا
فالعلاقة بينهما ليست علاقة تشابه في المعنى، بل في اللفظ، وتتمثل العلاقة المعنوية بينهما في استدعاء أحدهما الآخر.

د. الجناس الناقص: مثل الجناس في كلمتي (حين وبين) في قوله:

ألا وقد حان صُبْحُ البَيْنِ صَبَحْنَا حَيْنٌ فقام بنا للحَيْنِ ناعينا
وكلمتي (تقرّوا وتسروا) في قوله:

ما حقنا أن تقرّوا عين ذي حَسَدٍ بنا ولا أن تسروا كاشحاً فينا
وكلمتي (سالين وقالينا) في قوله:

لم نجفُ أفقَ جمالٍ أنت كوكبه سالين عنه ولم نهجره قالينا

ه. الترصيع: وهو أن تأتي كل كلمة في عجز البيت بما يقابلها في صدره وزناً وقافية وهذا لون فيه كثير من الزخرفة، يمثل حالة من التكرار الإيقاعي؛ تُحدث موسيقاً داخلية يولدها هذا التناسق في الألفاظ والتراكيب، كقوله:

فانحلّ ما كان معقوداً بأنفسنا وانبتّ ما كان موصولاً بأيدينا

ويمكن ملاحظة التوازن من خلال إعادة كتابة البيت على النحو التالي:

فالمحلّ / ما كان / معقوداً / بأنفسنا

وانبتّ / ما كان / موصولاً / بأيدينا

وقوله:

فما استعضنا خليلاً منك يحبسنا ولا استفدنا حبيباً عنك يُثينا

ويمكن ترتيبه على النحو التالي:

فما استعضنا / خليلاً / منك / يحبسنا

ولا استفدنا / حبيباً / عنك / يُثينا

الشخصيات والمواقف

نقع في هذه القصيدة على شخصيتين رئيسيتين هما: ابن زيدون ولأدة، وتظهران في إطار قصة حب من أشهر قصص الحب في الأدب الأندلسي، وردت في سياق عاطفي حزين احتشدت معالمة بعد الفراق والتغيير، وقد نسج الشاعر خيوط قصيدته من خلال شخصية ولأدة التي اتسمت بتقلّبها وشدة غيبتها، ومن ثم وقع الشاعر في حال من اليأس والشقاء، إذ انطوى على نفسه حزناً باكياً، يستعيد ذكريات الماضي.

أما ولأدة فلم تعد تكثر بالشاعر، ذلك أنها اختارت ابن عبدوس وأثرته عليه. وقد رسمها ابن زيدون في صورة أميرة حسناء مترفة، فهي بيضاء البشرة كالفضة الخالصة، وشعرها أشقر كالتمر، وهي مخلوقة من المسك، ترفل في قصر منيف.

وهناك شخصيات ثانوية كالأعداء والحساد الذين حالوا بين الشاعر وصاحبه وكانوا يكيدون لهم كيداً شديداً كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً، ويجوز أن يكون الدهر شخصاً من الأشخاص، إذ نراه يقف إلى جانب الأعداء ويؤمّن على دعائهم بتفريق الشمل. وكذلك يبدو البرق والنسيم من الأشخاص لدورهما في نقل تحيات ابن زيدون إلى محبوبته.

القصيدة وتأثير البيئة والعصر

حفلت القصيدة بتأثير الطبيعة الأندلسية الذي يظهر في وصف رياضها المزدانة بالورود والرياحين، ونسيمها العليل، وجنانها ومياها العذبة، وبأرضها التي تطيب فيها الحياة، ويدوم فيها الهناء والسرور.

وحفلة أيضا بتأثير البيئة الاجتماعية في ذكره لبعض الأحوال الاجتماعية ومنها مجالس اللهو والموسيقا والغناء، إلا أن الشاعر لا يستجيب لمثل هذه المجالس، إذ يقول:

نأسى عليك إذا حُتْ مُشعشةً فينا الشمول وغنانا مغنينا
لا أكؤسُ الرَّاح بُدي من شمائلنا سيما ارتياح ولا الأوتارُ ثلهينا
ومن ذكره لبعض مظاهر الترف والغنى كالقصور والذهب والفضة والمسك.
وكذلك في إشارته إلى الأعداء والحساد في قوله:

غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأنْ نغصَّ فقال الدهر: آمينا
فالأعداء والحساد لا يسعدهم أن يروا الشاعر وصاحبه يتبادلان كؤوس الهوى ويتناجيان. وهو يشير في ذلك إلى منافسيه في حب ولادة وابن عبدوس على وجه الخصوص. وهو كثيراً ما يتحدث عن الدهر الذي يقف إلى جانب هؤلاء الأعداء.

تأثره بالشعراء السابقين

وقف النقاد عند قصيدة ابن زيدون النونية، فاستقروا معانيها ودرسوا ألفاظها، ووجدوا أنه قد استعار كثيراً من معاني الأقدمين من الشعراء والبحثري على وجه الخصوص حتى لقبه صلاح الدين الصفدي بلقب «بحثري الغرب» وذلك «لحسن دياجة نظمه وسهولة معانيه⁽¹⁾». وورد في الذخيرة لابن بسام «ويقول بعض أدبائنا إن ابن زيدون بحثري زماننا، وصدقوا لأنه حذا حذو الوليد⁽²⁾» ووقف الدكتور صلاح

(1) الوافي بالوفيات، 7 / 91.

(2) الذخيرة، 1 / 1 / ص 379.

جرار عند التناص في قصيدة ابن زيدون⁽¹⁾، ووجد تشابها بينها وبين قصيدتين للبحري: الأولى في رثاء الخليفة العباسي الموفق (- 278هـ) ومدح خليفته أبي العباس المعتضد بن الموفق، مطلعها:

نسعى وأيسر هذا السعي يكفيننا لولا تكلفنا ما ليس يعيننا
والثانية في مدح أبي الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون، نظمها سنة 281هـ،
ومطلعها:

يكاد عاذلنا في الحب يُغريننا فما لجاجك في لوم المحبين
فوجد تشابهاً في الوزن والقافية واشتركا في عدد من الألفاظ والمعاني، مع
اختلاف موضوع القصيدتين عن موضوع قصيدة ابن زيدون.

لا غرو في أن يعجب ابن زيدون بشعر البحري الأنيق، وأن يحذو حذوه في
حسن النظم وجمال الإيقاع، وأن يشترك معه في كثير من الصور، وذلك في نطاق التأثير
والتأثير بين الشعراء. ومن ثم تظل قصيدة ابن زيدون من عيون الشعر العربي بما
حوته من سمات جذابة في معانيها وعاطفتها وأساليبها وألفاظها وإيقاعاتها ونفسها
الطويل.

وهناك تشابه وتقارب بين ابن زيدون وشعراء الغزل العذري، فقد صور في
قصيدته كثيرا من معاني هذا الغزل كالحزن الشديد لفراق المحبوبة، والوفاء لها والحفاظ
على العهد، ومن أمثلة ذلك قول ابن زيدون:

وقد نكون وما يُخشى تفرقنا فالיום نحن وما يُرجى تلاقينا
متأثر بقول مجنون ليلى⁽²⁾:

وقد يجمع الله الشيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا
وقوله:

ما حقنا أن تقرّوا عين ذي حسد بنا ولا أن تسرّوا كاشحاً فينا

(1) قراءات في الشعر الأندلسي، 83 - 86.

(2) ديوان مجنون ليلى، ص 203.

نظر فيه إلى قول جميل بثينة⁽¹⁾:

وإني لأرضى من بثينة بالذي لو أدركه الواشي لقرت بلائله
وقوله:

يا ساري البرق غادِ القصرَ واسقِ به مَنْ كان صرفَ الهوى والودَّ يسقينا
ويا نسيم الصَّبَا بَلِّغْ تحيتنا من لو على البُعد حياً كان يُحيينا
قد وقع فيه على قول العباس بن الأحنف⁽²⁾:

وإني لأستهدي الرياح سلامكم إذا أقبلت من نحوكم بهبوب
وأسألها حملَ السلامِ إليكم فإن هي يوماً بَلَّغت فأجبي
فكلاهما يصوّر النسيم/ الرياح بإنسان يحمل التحية/ السلام من الشاعر وإليه،
وابن زيدون يرسل تحياته إلى ولّادة، والعباس يرسل السلام إلى محبوبته فوز.
وأما قوله:

عليك منا سلام الله ما بقيت صَبَابَةً تُخْفِيهَا فَتُخْفِينَا
فهو من الأقوال المتداولة في الشعر في الغزل وفي غير الغزل، من ذلك قول
مجنون ليلى⁽³⁾:

عليك منا سلام الله تحية إلى أن تغيبَ الشمسُ من حيث تطلع
وقول جميل بثينة⁽⁴⁾:

عليها سلام الله من ذي صَبَابَةٍ وصبٌّ مُعْنَى بالوساوس والفكر

(1) ديوان جميل بثينة، ص 61.

(2) ديوان العباس بن الأحنف، ص 22.

(3) ديوان مجنون ليلى، ص 129.

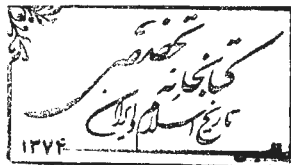
(4) ديوان جميل بثينة، ص 41.

وقول ابن الرومي في ختام مرثيته لإبنه الأوسط⁽¹⁾:

عليك سلام الله مني تحيةً ومن كل غيثٍ صادقِ البرقِ والرعدِ
وأياً كان الأمر، فقد استعار ابن زيدون كثيراً من معاني الأقدمين في نطاق
التأثر والتأثير، والتناص مع النصوص السابقة، وهو ما دأب عليه الشعراء جميعاً.

وتعرض ابن بسام إلى بعض أقوال ابن زيدون التي تأثر فيها بالسابقين، كقوله:
كأننا لم نبتْ والوصل ثالثنا والسعد قد غصَّ من أجفان واشينا
سرّان في خاطر الظلماء يكتمننا حتى يكاد لسانُ الصُّبحِ يفشينا
ويرى ابن بسام أنه مما زاد فيه للمليح الاستعارة على قول أبي الطيب⁽²⁾:
أزورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصُّبحِ يُغري بي
وقوله:

أما هوالك فلم نعدل بمنهله شرباً وإن كان يروينا فيُظمئنا
ويرى ابن بسام أنه معنى متداول ومن أشهره قول ابن الرومي⁽³⁾:
ريق إذا ما ازددتُ من شربه رياً ثنائي الري ظمناً
كالخمر أروى ما يكون الفتى من شربها أعطش ما كانا



(1) ديوان ابن الرومي، 2 / 7 / 627.

(2) ديوان المتنبي، 1 / 161. الذخيرة، 1 / 363 و 364.

(3) الذخيرة، 1 / 363. والبيتان ليسا في ديوان ابن الرومي.

المبحث الثاني

قصيدة «وصف الجبل» لابن خفاجة

تمثل قصيدة ابن خفاجة في وصف الجبل تجربة نفسية عاناها الشاعر فنقلها إلينا، وترجمها بصدق، إذ تقدمت به السن وفقد معظم أصحابه، وأخذ يشعر بالغربة النفسية وبدنو الأجل، وكان في عهد الشباب مقبلاً على اللهو والمجون، فدبج هذه القصيدة في وصف الجبل ومناجاته على نسق جديد، إذ أشرك النفس الإنسانية بسر الطبيعة وهو ما يُسمى بـ «حسن الطبيعة» فانبرى يصف الجبل وصفاً وجدانياً، يبلغ حد الروعة، دون أن يكتفي بتصوير الظاهر له، وإنما نفذ إلى داخله.

النص

وأرعنَ طَمَاحَ الذَّوَابَةِ باذخٍ	يُطَاوِلُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بَغَارِبِ
يُسَدُّ مَهَبَ الرِّيحِ عَنْ كُلِّ وَجْهَةٍ	وَيَزْحَمُ لَيْلاً شُهَبَهُ بِالْمَنَاقِبِ
وَقُورٍ عَلَى ظَهْرِ الْفَلَاةِ كَأَنَّهُ	طَوَالَ اللَّيَالِي مُطَرِّقٌ قِي الْعَوَاقِبِ
يَلُوثُ عَلَيْهِ الْغَيْمُ سُودَ عِمَائِمِ	لَهَا مِنْ وَمِضِرِّ الْبَرْقِ حُمْرُ ذَوَائِبِ
أَصْخَتْ إِلَيْهِ وَهُوَ أَخْرَسُ صَامِتٍ	فَحَدَّثَنِي لَيْلَ السَّرَى بِالْعَجَائِبِ
وَقَالَ: أَلَا كَمْ كُنْتُ مُلْجِئاً فَاتِكِ	وَمَوْطِنٍ أَوَّاهٍ تَبَثُّلَ تَائِبِ!
وَكَمْ مَرَّ بِي مُدْلِجٍ وَمُؤَوِّبِ	وَقَالَ بظَلِّي مِنْ مَطْيٍ وَرَاكِبِ!
وَلَا طَمَ مِنْ تُكْبِ الرِّيحِ مَعَاظِفِي	وَزَا حَمَ مِنْ خُضْرِ الْبَحَارِ جَوَانِبِي
فَمَا كَانَ إِلَّا أَنْ طَوَّتَهُمْ يَدُ الرَّدَى	وَطَارَتْ بِهِمْ رِيحُ التَّوَيِّ وَالنَّوَائِبِ
فَمَا خَفَقَ أَيْكِي غَيْرَ رَجْفَةٍ أَضْلَعِ	وَلَا نَوْحَ وَرَقِي غَيْرَ صَرْخَةٍ نَادِبِ
وَمَا غِيَضَ السُّلْوَانُ دَمْعِي وَإِنَّمَا	نَزَفَتْ دُمُوعِي فِي فِرَاقِ الْأَصْحَابِ
فَحَتَّى مَتَى أَبْقَى وَيَطْعَنُ صَاحِبُ	أَوْدَعُ مِنْهُ رَاحِلاً غَيْرَ آيِبِ؟!
وَحَتَّى مَتَى أَرَعَى الْكَوَاكِبَ سَاهِراً	فَمَنْ طَالَعَ أُخْرَى اللَّيَالِي وَغَارِبِ؟!

فَرُحَاكَ يَا مَوْلَايَ دَعْوَةً ضَارِعٍ يَمُدُّ إِلَى نِعْمَاكَ رَاحَةً رَاغِبٍ
فَأَسْمَعْنِي مِنْ وَعْظِهِ كُلِّ عِبْرَةٍ يُتَرَجِّمُهَا عَنْهُ لِسَانُ التَّجَارِبِ
فَسَلِّ بِمَا أَبْكِي وَسَرِّ بِمَا شَجَا وَكَانَ عَلَى لَيْلِ السُّرَى خَيْرَ صَاحِبِ
وَقُلْتُ وَقَدْ نَكَبْتُ عَنْهُ لِطَيْهِ: سَلَامٌ فَإِنَّا مِنْ مُقِيمٍ وَذَاهِبِ

بنية النص ومساره

يتمحور النص في ثلاثة محاور هي: وصف الجبل، وحديثه، والتعقيب على حديث الجبل.

المحور الأول: وصف الجبل

يتحدث ابن خفاجة في هذا النص عن جبل عالي القُتَّة، يُطاول السماء بكاھله ويحول دون سير الريح وهبوبها، ويُزاحم الكواكب بمناكبه. ثم لا يلبث أن يضيف عليه بُعداً إنسانياً، فشخصه فإذا هو شيخ وقور، يطوي الليالي مفكراً في العواقب، وجعل له عمامة سوداء، لفتها السُّحب التي ارتطمت به، وقد تدلّت منها ذوائب حُمُر من وميض البرق. ولعله يوحي بذلك إلى أن الجبل مثله مثقل بالهموم وأنه دائم التفكير.

المحو الثاني: حديث الجبل

يسرد علينا الشاعر الحوار الطريف الذي دار بينه وبين الجبل، فنراه يُصغي إليه بوصفه صاحب تجربة، مع أنه أخرس صامت، ثم يحدّثه بالعجائب ويقصّ عليه قصصاً غريبة، وذكر بين يديه أخبار من يفرون إليه، من مجرمين، ومن ثقة صالحين، فضلاً عن المسافرين والركبان.

وهو بذلك جمع بين صنفين مختلفين من البشر: القتل والعباد ليدلّل على أن الإنسان يحمل صفات الخير والشر معاً، وكأنه يومئ إلى نفسه فقد تحوّل من المجنون واللّهو (عهد الشباب) إلى زاهد متبتل (عهد الشيخوخة).

ويذكر المصير الذي آلوا إليه جميعاً وهو الموت، فيبكي عليهم ويندب حاله بعدهم، معبراً عن ضيقه من الحياة وطول البقاء، الذي ليس وراءه سوى الأسى على

فراق الأحبة، وتوديع الأخلاء إلى غير رجعة، بحيث أصبح يعيش وحيداً في غربة نفسية.

المحور الثالث: التعقيب على حديث الجبل

وإذ يفرغ الجبل من حديثه، يظهر الشاعر على مسرح القصيدة، ويُشعرنا أنه يعبر عن نفسه في هذه الأبيات، كاشفاً القناع عن الجبل. وأخذاً الاعتبار من حديثه، فالجبل مثله محزون لما يرى من مصير الناس جميعاً إلى الموت، وهو مثله أيضاً يستطيل البقاء بعد رحيل أصحابه، ولذا ينتظر نهاية رحلته في الحياة. ويضع على لسانه حسرته على نفسه، في البيت الأخير، إذ يبقى الجبل مُقيماً على حاله، أما هو فسيرحل.

اللغة

ارتبطت مفردات القصيدة بطبيعة فن الوصف، وجاءت مناسبة للموضوع الذي يتصدى له الشاعر، فهو عندما أراد أن يصف الجبل وشموخه اختار ألفاظاً قوية مثل: أرعن، وطمّاح، وباذخ، والمناكب، ووقور) وهي ألفاظ جزلة تناسب الجبل المشمخر. وعندما أراد أن يعبر عن حزنه وألمه لمصير الناس اختار الألفاظ الرقيقة، والعبارات السهلة مثل: (طوتهم يد الردى، طارت بهم ريح النوى، أرعى الكواكب.....).

وقد ترددت عبارته على الصيغ التالية:

1. الأفعال: يطغى الفعل المضارع على المحور الأول من القصيدة، إذ ترد فيه الأفعال المضارعة الآتية: (يطاول، يسدّ، يزحم، يلوث) وهي أفعال تدل على بقاء الجبل واستمراره على حاله منذ وُجد، تسعفها في ذلك بعض المشتقات (طمّاح، باذخ، وقور، مطرق). في حين يطغى الفعل الماضي على المحور الثاني، إذ ترد فيه الأفعال الماضية الآتية (أصخت، فحدّثني، وقال، كنت، مرّ، لاطم، زاحم، طوتهم، وطارت) وهي أفعال تناسب أسلوب السرد، فالجبل يتحدث بالعجائب ويقصّ على الشاعر قصصاً وقعت أحداثها في الماضي.

2. النداء: استعمل المنادى المضاف (فرحماك يا مولاي) وقصد به الدعاء، ذلك أن الشاعر قصد كثيراً من أصحابه، وأحسن بالغربة، فابتهل إلى الله على لسان الجبل بأن يرحمه ويُخلصه مما هو فيه من هذه الحال.

3. الاستفهام: استعمل الاستفهام للتعبير عن دهشته من طول عمره، فهو يستطيل البقاء بعد أن مات معظم أصحابه، فيتساءل على لسان الجبل الذي بدا محزوناً مثله حين يرى مصائر الناس والمخلوقات إلى الموت:

- فحتى متى أبقي؟

- وحتى متى أرعى الكواكب ساهراً؟!

وكأنه يستعجل الموت.

4. كم الخبرية: استعمل كم الخبرية للدلالة على الكثرة؛ كثرة الذين التجأوا إلى الجبل، من القتلة، والعُباد التائبين، والمسافرين، وذلك في قوله:

وفال: ألا كم كنت ملجأ فاتك وموطن أواه تبثّل تائب!

وكم مرّبي من مُدليج ومؤوب وقال بظلي من مطي وراكب!

الصور والأخيلة

يمثل الخيال عنصراً مهماً في القصيدة، إذ تُمثل - برمتها - صورة خيالية، ومن أبرز معالمها ما نجده في البيت الثالث:

وقورٍ على ظهر الفلاة كأنه طوال الليالي مُفكّرٍ بالعواقب

فقد شخّص الجبل وتخيّل شيخاً وقوراً، يفكر في الأيام التي مرّت من عمره، والأحداث التي جرت فيها.

وكذلك في قوله:

يلوث عليه الغيمُ سودَ عمامٍ لها من وميض البرقِ حُمُرُ ذوائبٍ

فقد صوّر السُحب التي تحيط بقمة الجبل بالعمامة السوداء، وصوّر وميض البرق بذوائب حُمُر تتدلّى من تحت تلك العمامة.

وفي قوله:

فما كان إلا أن طوتهم يدُ الرّدى وطارت بهم ريح النوى والنوائب

فقد صوّر الردى بمخلوق هائل له يد تطوي الناس جميعا، وصوّر التوى والنواب بالطيور الضخمة التي تحمل الخلق وتطير بهم، ليدل على حتمية الموت والفناء.

ألوان البديع

استعان الشاعر ببعض ألوان البديع لتوضيح معانيه وإعطاء أسلوبه شيئا من الجمال والإيقاع الموسيقي كالطباق في قوله، «سود عمائم، وحمر ذوائب» و «أبقى، ويظعن» و «طالع، وغارب» أو الجناس في قوله: «التوى، والتواب» وهو جناس ناقص أفاد به معنى الزوال والفناء والتشتت.

كما استعمل الترصيع، وأحدث به لونا من التكرار الإيقاعي في تناسق الألفاظ، في قوله:

ولا طمّ من نُكبِ الرياح معاطفي وزاحم من خُضر البحار جوانبي
ويمكن ملاحظة هذا التوازن بإعادة كتابة البيت على النحو التالي:

ولا طمّ / من نُكبِ / الرياح / معاطفي
وزاحم / من خُضر / البحار / جوانبي

وقوله:

فما خَفَقُ أيكي غيرَ رجفة أضلع ولا نُوحُ ورقي غير صرخة نادب
ويمكن ترتيبه على النحو التالي:

فما خَفَقُ / أيكي / غير رجفة / أضلع
ولا نُوحُ / ورقي / غير صرخة / نادب

الموسيقا

1. الموسيقا الخارجية: جاءت القصيدة على وزن البحر الطويل وأجزاؤه فعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن في كل شطر. وهو من البحور المركبة التي يلجأ إليها الشعراء كثيرا.

وأما القافية فقد قام رويها على الباء المكسورة المسبوقة بحرف صحيح، وقبله حرف مد هو الألف وهو ما يُسمى «التأسيس». ومطلع القصيدة هو:

بعيشك هل تدري أهوجُ الجنائب تحبُّ برحلي أم ظهورُ النجائب⁽¹⁾

2. الموسيقى الداخلية: وتقوم على براعة الشاعر في اختيار الكلمات في نسق معبر، وهو ما أشرنا إليه آنفاً. وقوام هذه الموسيقى أن الشاعر نقلنا إلى تجربته النفسية بما فيها من تأمل في المظهر من مظاهر الطبيعة، ويطل من خلاله بروحه وقلبه وفكره، كذلك نجد في بعض الصور الخيالية وفي المحسنات البديعية نوعاً من الموسيقى الداخلية وأظهر تحليل هذه الأبيات براعة الشاعر في وصف الطبيعة، ونجح في إدخال إحساس موحد في نفوسنا هو الهيبة والروعة، خلافاً لما هو عليه الحال في شعر الطبيعة في الأندلس.

التأثر بالشعراء السابقين

تأثر ابن خفاجة في حديثه عن الجبل بأبيات مجنون ليلى في جبل التوباد، فجعلنا نحسُّ بأنها صدى لها، وإذ يصف ابن خفاجة حواراه مع الجبل فإن مجنون ليلى يخاطبه وقد مرَّ به، فأجهش بالبكاء، وراح يقول:

وأجهشتُ للتوباد حين رأيته وكبر للرحمن حين رأيته
وأذريتُ دمع العين لما عرفته ونادى بأعلى صوته ودعاني
فقلتُ له: أين الذين عهدتهم حواليك في خصبٍ وطيب زمان؟
فقال: مَضَوْا واستودعوني بلادهم ومن ذا الذي يبقى مع الحدَّانِ
وإني لأبكي اليوم من حذري غداً فراقك والحيان مجتمعان

والنصان متقاربان إلى حد كبير مع اختلاف غرض الشاعرين، فابن خفاجة قال قصيدته في معرض وصف الطبيعة، يتحدث عن الناس جميعاً في حين يقصد المجنون بالناس ليلى وأهلها، وجاءت مقطوعته في معرض الغزل.

أما التشابه بينهما فيبدو في جملة أمور:

(1) هوج الجنائب: رياح الجنوب الهوجاء. التجائب: مفردتها نجبية وهي الناقة الكريمة.

1. النّصّان يجريان على وزن البحر الطويل.
2. كلا الشاعرين يحاور جبلاً.
3. كلا النصين يتسم بجمال الأسلوب وصدق العاطفة.
4. النّصان يهدفان إلى الاعتبار بأحداث الدنيا، وتقلبات الزمن ومصائر الناس⁽¹⁾

(1) انظر : صلاح جرّار، قراءات في الشعر الأندلسي، ص 108_111.

المبحث الثالث

قصيدة رثاء الأندلس لأبي البقاء الرندي

جو القصيدة

هذه القصيدة للفقير أبي محمد صالح بن شريف الرندي (-684 هـ / 1285 م) يرثي بها بلاد الأندلس. وهو لم ينظمها بعد خروج المسلمين من الأندلس، وإنما قبل خروجهم النهائي منها بحوالي قرنين من الزمان، وذلك حين نزل ابن الأحمر لنصارى الأندلس عن عدد كبير من ثغور الأندلس، وهو ما ورد في أحداث سنة 665 هـ، إذ قيل: «إن جملة ما أعطى ابن الأحمر لأنفونش من بلاد المسلمين من المدن والحصون المسورة مئة مسور وخمس مسورات من بلاد شرق الأندلس.... ولما أعطى ابن الأحمر البلاد المذكورة لأنفونش قال الفقير أبو محمد صالح بن شريف الرندي يرثي الأندلس ويستنصر بأهل العدو من مرين وغيرهم بهذه القصيدة⁽¹⁾».

1. الشكوى من الزمن وتحولاته (1-14)

لَكلِّ شَيءٍ إِذا ما تَمَّ نُقصان	فلا يُغَرِّ بطيب العيش إنسان
هِيَ الأُمورُ كما شاهدتها دُولٌ؛	«من سرّة زمنٍ ساءتُهُ أزمانٌ»
وهذه الدارُ لا تُبقي على أحدٍ،	ولا يدومُ على حالٍ لها شأنٌ
يُمزِقُ الدَهرُ حتماً كُلَّ سابغةٍ	إِذا تَبَّتْ مشرفياتٌ وخرُصانٌ
وَيَتَضَي كُلُّ سيفٍ للفناء، ولو	كانَ ابنُ ذي يَزَنٍ والغَمدُ غَمدانٌ
أينَ الملوكةُ ذوو التيجانِ مِن يَمَنٍ؟!	وأينَ مِنهم أَكاليِلٌ وتيجانٌ؟!
وأينَ ما شادَهُ شَدادٌ في إِرَمٍ؟	وأينَ ما ساسَهُ في الفُرسِ ساسانٌ؟!
وأينَ ما حازَهُ قارونٌ من ذهبٍ؟	وأينَ عادٌ وشَدادٌ وقحطانٌ؟
أتى على الكلِّ أمرٌ لا مردُّ له	حتى قَضوا، فكانَ القومُ ما كانوا

(1) علي بن أبي زرع الفاسي، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص 112.

وصار ما كان من مُلكٍ ومن مَلِكٍ
دارَ الزمانَ على دارا وقَاتِلِهِ
كأنما الصعبُ لم يَسْهُلْ له سببٌ،
فجائعُ الدَّهْرِ أنواعٌ مُنَوَّعةٌ،
وللحوادثِ سُلُوانٌ يُسْهَلُها؛
كما حكى عن خيال الطَّيفِ وسنانُ
وأُمِّ كَسْرَى فما آوَاهُ إيوانُ
يوماً، وما مَلَكَ الدنيا سُلَيْمانُ
وللزمانِ مَسَرَّاتٌ وأحزانُ
وما لِمَا حلَّ بالإسلامِ سُلُوانُ

2. الحديث عن المدن التي سقطت (15-24)

دهى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاءَ له
أصابها العينُ في الإسلامِ فأمْثَحِنَتْ
فاسألْ بِلَنَسِيَّةٍ: ما شأنُ مُرْسِيَّةٍ؟
وأيْنَ قرطبَةُ دارِ العلومِ فكَمْ
وأيْنَ حمصُ وما تحويه من نُزْهِ
قواعدُ كُنْ أركانُ البلادِ، فما
تبكي الحنيفةُ البيضاءً من أسفٍ،
على ديارٍ من الإسلامِ خاليةٍ؛
حيثُ المساجدُ قد صارت كنائسَ ما
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ
هوى له أخذٌ وانهدَّ ثهلانُ
حتى خلتْ منه أقطارٌ وبُلدانُ
وأيْنَ شاطِبةٌ أم أين جِيانُ؟
من عالمٍ قد سما فيها له شانُ؟!
ونهرُها العذبُ فياضٌ وملائنُ؟
عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ؟
كما بكى لِفراقِ الإلفِ هيمانُ
قد أفقرتْ ولها بالكُفْرِ عُمرانُ
فيهنَّ إلّا نوافيسٌ وصُلبانُ
حتى المنابرُ تُرثي وهي عيدانُ

3. تنبيه المسلمين من غفلتهم (25-35)

يا غافلاً، وله في تالدِ الدَّهْرِ موعظةٌ
وماشياً مرحاً يُلْهِيه موطنُهُ،
تلك المصيبةُ أنستْ ما تقدَّمها،
يا أيها الملكُ البيضاءً رايته،
با راكبين عِناقَ الخيلِ ضامرةً
«إن كُنتَ في سِنَةِ الدَّهْرِ يَقْظانُ»
أبعدَ حمصٍ تغرُّ المرءَ أوطانُ؟
وما لها مع طولِ الدَّهْرِ نسيانُ
أدركَ بسيفك أهلَ الكُفْرِ، لا كانوا
كأنَّها في مجالِ السبقِ عُقبانُ

وحاملين سيوف الهند مرهفة
ورائعين وراء البحر في دعة
أعندكم نبأ من أهل أندلس؟
كم يستغيث بنا المستضعفون، وهم
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم،
ألا نفوس أليات لها همم!

4. وصف حال المسلمين في الأندلس (35-43)

يا من لذلة قوم، بعد عزهم،
بالأمر كانوا ملوكاً في منازلهم،
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم
يا رب أم وطفل حيل بينهما
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت،
يقودها العلج للمكروه مكرهة
لمثل هذا يذوب القلب من كمد،

أحال حالهم كفر وطغيان
واليوم هم في بلاد الكفر عبداً
عليهم من ثياب الدل ألوان؛
هالك الأمر واستهوتك أحزان؛
كما تفرق أرواح وأبدان؛
كأنما هي يا قوت ومرجان،
والعين باكية والقلب حيران
إن كان في القلب إسلام وإيمان!

بنية القصيدة ومسارها

- تتمحور قصيدة أبي البقاء الرندي في أربعة محاور، هي:
- المحور الأول: الشكوى من الزمن وتحولاته (الآيات 1-14).
 - المحور الثاني: الحديث عن المدن التي سقطت (الآيات 15-24).
 - المحور الثالث: تنبيه المسلمين من غفلتهم (الآيات 25-35).
 - المحور الرابع: وصف حال المسلمين في الأندلس (الآيات 36-43).

1. المحور الأول: الشكوى من الزمن وتحولاته (1-14)، ويدور حول الحكمة وضرب الأمثال بالدول البائدة والملوك الأعزّة. فالمطلع مطلع حكّمي، كلاسيكي يقوم على المنطق العقلي وبقينه، جاء به الشاعر ليخفف وقع المأساة على المتلقي، ذلك أنه نظم قصيدته إبان محنة سقوط المدن والثغور الأندلسية في أيدي أعداء المسلمين، إلا أنّ القصيدة تبدو بمنزلة مرثية للأندلس كلها، أو أنها توحى بالسقوط النهائي. وتدور حكمته حول قضية تمام الأشياء ونقصانها، ليدل على أن سقوط الدول في حدّ ذاته أمر طبيعي، وهو ما يعرف بالحتمية التاريخية في نشوء الدول وزوالها التي فطن إليها ابن خلدون فيما بعد، فالدول كالأفراد والكائنات الحية تمر في أدوار ومراحل مختلفة من نمو وقوة وضعف وفناء. وقد عزز الشاعر حكمته بجملة حقائق منها أن أمور الدنيا دول بين الناس وهو معنى استمدّه من قوله تعالى: ﴿وَلَئِكَ الْآيَاتُ لِنُذَاهِبَ بَيْنَ النَّاسِ﴾⁽¹⁾ وأن الزمن يسرنا حيناً ويفجعنا أحياناً، وأن الدنيا لا تُبقي على أحد ولا تثبت على حال، وأن الدهر يأتي على كل شيء ويبدّده. ومن ثم انطلق إلى ضرب الأمثال بالدول التي بادت والملوك الأعزّة الذين مضوا رغم عِظم سطوتهم وسعة ملكهم، وهو ما دأب عليه الشعراء في مرثيتهم، فردّد أسماء بعض الدول والملوك التي ذكروها، وهي موغلة في أعماق الزمن ومنها: سيف بن ذي يزن وملوط حُمير والتّابعة في اليمن، وإرم ذات العماد، وساسان الفارسي، وقارون وكنوزه، ومملكة سليمان عليه السلام، وغيرها من أحداث تاريخية يشير إليها في قوله:

فجائع الدهر أنواعٌ منوعة وللزمانِ مسراتٌ وأحزانٌ

ثم خلاص من إيراد هذه الشواهد التاريخية إلى نتيجة مؤداها أن مأساة الأندلس تُجُلُّ عن العزاء وتستعصي على السلوان، لأنها تحولت إلى حسرة دائمة.

(1) سورة آل عمران، من الآية 140.

2. المحور الثاني: الحديث عن المدن الأندلسية التي سقطت في أيدي الأعداء (15-24).

وهكذا بعد أن طفق يتحدث عن الأحداث التاريخية وعن زوال الدول والملوك، تمثلت له المأساة التي حلت بالأندلس، واختار جبلي أحد وئهران⁽¹⁾ لتهويل هذه المأساة، إذ سقطت مدن جميلة عظيمة، واحدة تلو الأخرى، فقد علمنا أن بلنسية سقطت في حدود سنة 636هـ بعد حصار طويل، وتلتها مرسية سنة 640هـ، فجيان سنة 643هـ، فشاطبة سنة 644هـ، أما قرطبة فقد سقطت سنة 633هـ وكذلك حمص.

ويذكر محاسن هذه المدن؛ فقرطبة اشتهرت بعلومها وكثرة علمائها، ويذكر ما اشتهرت به حمص من متنزهات يحيط بها نهر الوادي الكبير. ونراه يوازن بين أحوال هذه المدن قبل السقوط وبعده، فيتحدث عن خروج الإسلام منها وحلول الكفر محلها، وكيف صارت المساجد كنائس، واختفى صوت الأذان لتحل محلّه أصوات النواقيس والأجراس، مَرَكَزاً على العاطفة الدينية، بوصف المصيبة التي حلت بالأندلس حلت بالإسلام.

ثم يتصاعد في تهويل المصيبة التي حلت بالأندلس فقد بكت المحاريب وشكت المنابر. والشاعر في تركيزه على المعالم الإسلامية يهدف إلى إثارة العاطفة الدينية في نفوس المسلمين؛ لينطلقوا إلى الجهاد إذا كانت بها بقية نخوة.

3. المحور الثالث تنبيه المسلمين من غفلتهم (25-35)

لم يكتف الشاعر بالوقوف عند إثارة النخوة والحماسة الدينية في المسلمين، وإنما أخذ يتدرّج ويتصاعد في موعظته، فيدعوهم إلى الاعتبار من سقوط المدن والممالك الأندلسية، وألا يتوهموا بالأمن والاستقرار في بلادهم، فالمصيبة التي حلت بالأندلس تفوق ما قبلها من مصائب ولا يمكن نسيانها. ونراه يذهب إلى مدى أبعد إذ يُعزّز موعظته بتقريعهم والسخرية بهم، فهو إذ يصف خيولهم بالعتيقة الضامرة وبأنها تشبه العقبان، وسيفها بالحدة والشدة واللمعان، نراه يسخر بهم قائلاً: هل سمعتم بما حلّ

(1) جبلان في جزيرة العرب، أولهما في الحجاز شمالي المدينة المنورة والثاني في نجد.

بالأندلس؟ ويرى بهم من الإجابة عن سؤاله، فيقول: إن أخبار الأندلس قد سار بها الركبان، ويقرّعهم لأنهم فقدوا الإحساس ليدلل على ما بهم من تقصير.

ولا يلبث أن يعود إلى نصيح المسلمين وإرشادهم باسم الأخوة الإسلامية والرابطة الدينية التي تربطه بهم فيدعوهم إلى نبذ الفرقة بينهم، ونصرة إخوانهم في الأندلس.

4. المحور الرابع: وصف حال المسلمين في الأندلس (36-43)

ونراه يعرض مشاهد مؤثرة من مأساة الأندلس، فيصف حال أهل الأندلس، فقد كانوا أعزّة في بلادهم فصاروا عبيداً في بلاد الكفر، يُباعون في أسواق الرقيق وهم يذرفون الدموع. فهؤلاء أطفال أنزِعوا من أحضان أمهاتهم، وهذه صبية يافعة يسوقها علج من علوج الإسبان ويكرهها على الرذيلة. والشاعر يورد هذه الصور الحزينة المؤلمة بقصد إثارة المشاعر الإنسانية والعاطفة الدينية على وجه الخصوص. وقد نجح في إيصال رسالته إلى المتلقي والنفاذ بها إلى عقله ووجدانه.

وتنتهي القصيدة كما تنتهي المأساة بلحن شجي حزين، يُسدل على النفوس جدار الشكوك والعتمة:

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ إن كان في القلب إسلامٌ وإيمانٌ

اللغة

وتتسم عبارة أبي البقاء الرندي بالحوية المتولدة من تنوع الأساليب وفقاً للمواقف والأحداث، كالنداء والاستفهام:

أ. النداء: استخدمه الشاعر في عدة مواطن، وهي:

- يا غافلاً.... وماشياً مرحاً، والنداء موجه إلى الغافلين الذين تخاذلوا عن نصرة الأندلس، وقد قصد به التذكير والتنبيه لما هو آتٍ من أحداث جسام.
- يا أيها الملك، يا راكبين عتاق الخيل.... وحاملين سيوف الهند.... وراتعين وراء البحر، والنداء موجه إلى المسلمين في بلاد المغرب، وقد قصد به الاستغاثة وطلب النجدة والوقوف إلى جانب إخوانهم في الأندلس.

• يا مَنْ لَذَّة قوم....، ويا رُبَّ أم وطفل....، وقصد بالنداء التحسر والتوجع لما أصاب المسلمين في الأندلس من ذل وانكسار واستباحة أعراض. فهذه نداءات يتبعها تقريع المقصرين في نجدة الأندلس، فهو يصفهم بالغفلة تارة، وبالماشية التي ترعى في المراعي الخصبة تارة أخرى.

ب. الاستفهام

وقد استعمله الشاعر في مواضع عدّة، فجاء به في معرض حديثه عن الدول التي بادت والملوك الذين ذهبوا، على صورة أسئلة متلاحقة: أين الملوك ذوو التيجان...؟ وأين ما شاده شدّاد؟ وأين ما حازه قارون؟ والإجابة واحدة: قضوا فكأن القوم ما كانوا. وقصد بالاستفهام تنبيه المتلقي إلى هذه الشواهد التاريخية في فناء الدول وزوالها، مما يخفف وقع المأساة عليه.

وكذلك في سياق حديثه عن المدن الأندلسية التي سقطت في أيدي الإسبان: ما شأن مرسية؟ أين شاطبة؟ أين جيان؟ وأين قرطبة؟ وأين حمص؟ فما عسى البقاء إذا لم تبقى أركان؟

فهذه أسئلة استنكارية، يتبعها تقريع المقصرين في نصرة أهل الأندلس، واستنهاض أهل العزائم:

- أعندكم نبأ من أهل اندلس؟!
- ماذا التقاطع في الإسلام بينكم؟!
- ألا نفوس أبيات لها همم؟!
- أما على الخير أنصارٌ وأعوان؟!

الصور والأخيلة

يُصوّر الرُّندي المأساة التي حلّت بالأندلس بعد وقوع كثير من المدن في أيدي الإسبان، مستعملاً تقنيّتي العرض والموازنة. وقد تمثلت التقنية الأولى في عرض الصور المتلاحقة، صورة القوم الذين ذلوا بعد أن كانوا أعزة في بلادهم ثم أصبحوا عبيداً في بلاد الأعداء، يسرون حيارى تائهين لهُول المصيبة التي حلّت بهم، وصورة الأسرى

الذين أخذوا سبايا وهم مكبلون في الأغلال، يُذرفون الدموع، وصورة الأم التي يُنتزع طفلها من بين يديها، وصورة الطفلة البريئة التي يقودها علعج من علوج الإسبان ويكرهها على الرذيلة. ولا شك في أن الشاعر نجح في إثارة مشاعر الحزن والغضب في نفوس المسلمين على أعدائهم.

أما تقنية الموازنة بين حال المدن قبل السقوط وبعده فتمثلت في خروج الإسلام منها وحلول الكفر محلّه، وتحويل المساجد إلى كنائس وحلول الناقوس محل الأذان، وهو بذلك يركز على الجانب الديني، ليثير النخوة والحماس في النفوس، وآية ذلك قوله:

تبكي الحنيفة البيضاء من أسفٍ كما بكى لفراق الإلف هيمان
وقوله:

حتى المحارب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان
واعتمد الشاعر في عرضه وموازنته على التشبيهات والاستعارات.
لم يسرف الرندي في تشبيهاته واستعاراته، خلافاً لما هو عليه الحال عند كثير من الشعراء الأندلسيين، إلا أنها جاءت متألّفة ومنسجمة مع سائر أجزاء القصيدة.
ومن التشبيهات التي نقع عليها في القصيدة ، قوله:

وطفلةٌ مثل حُسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجانُ
فالشاعر لم يكد يُعنى بوصف الطفلة، بل قارن بينها وبين الشمس في الحُسن والجمال، ثم شبهها بالياقوت والمرجان، وهي الصورة المضيئة للفتاة، ثم انثنى متابعاً وصفه لينقلنا إلى صورة مفاجئة تُلهب المشاعر وتثير الأسى حين يقودها العلعج إلى الفاحشة.
وقوله:

يا راكبين عتاق الخيل ضامرةً كأنها في مجال السَيْقِ عُقبانُ
وهذا تشبيه تقليدي، يطالعنا في وصفه للخيل الضامرة الذي يتمثل في تصوير شدة عدوها بالعقبان.

صنو ذلك تشبيه السيوف المرففة في لمعانها، بالنيران التي تشبّ وسط الظلام، في قوله:
وحاملين سيوف الهند مرهفةً كأنها في ظلام النقع نيران
ولعلّ هذا التشبيه مثل لتردّي الرندي في تقليده للأقدمين، إذ نسله من بيت
بشار بن برد:

كأنّ مشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
إلا أنه قصرّ عنه.

وتتمثل استعارته في تشخيص الدهر بإنسان يُشهر سيفه ولا يغمض له جفن في قوله:
ويتنضي كلّ سيفٍ للفناء ولو كان ابن ذي يزن والغمد غمدان
وقوله:

يا غافلاً وله في الدهر موعظةٌ إن كنت في سِنّة فالدهر يقظان
فهو ينبّه الغافلين إلى سطوة الدهر وإلى أنه كفيل بتغيير كل شيء وإفناؤه، ومما
زاد من جمال التشخيص الجناس في البيت الأول (الغمد/ الغمدان) والمقابلة في البيت
الثاني (كنت في سِنّة/ الدهر يقظان).

وكذلك في تشخيص المدن الأندلسية بنساء تُوجّه إليها أسئلة عن أخواتها:
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية؟ وأين شاطبة أم أن جيّان؟
(وأين قرطبة... / وأين حمص...)

وفي تشخيص الإسلام والمحارب والمنابر بأناس يندبون ويكون على الأندلس:
(تبكي الحنيفة، المحارب تبكي وهي جامدة، المنابر ترثي وهي عيدان). ولعله أراد
بذلك التأثير في نفوس المسلمين ليدركوا هول المأساة التي حلّت بالأندلس.

الطباق

يعد الطباق لونا بديعيا مهما في قصيدة الرندي، اصطنعه وتصرّف به في تصوير
أحوال الأندلس وأهلها قبل سقوط كثير من المدن وما آلت إليه بعد السقوط، ونلمس
ذلك من خلال حشد الطبافات المتوالية: التمام والنقصان، سرّاً وساء، مسرّات

وأحزان، الإسلام والكفر، العز والذل، منازلهم وبلاد الكفر، ملوك وعُبدان، والإخوان والمتقاطعين.

وقد أفاد الشاعر من حشد هذا الطباقات في تصوير الصراع بين المسلمين وأعدائهم، وتصوير إحساسه بالأسى والمرارة من الحال التي وصلت إليها الأندلس، وكذلك التصوير الواقعي لحال المسلمين الذين تخاذلوا عن نصرة الأندلس وما صاروا إليه من تناحر واقتتال وتحالف مع الأعداء على إخوانهم.

وقد يستعمل الطباقي في تصوير قُبْح الجنود الإسبان ليشير الحميّة نحو العِرض، في قوله:
وظلفةٌ مثل حُسن الشمس إذ طلعت كأنما هي ياقوتٌ ومَرْجانٌ
يقودها العليج للمكروه مكرهَةً والعين باكيةٌ والقلبُ حيرانٌ
فقد طابق بين «الطفلة الحسنة» و «العليج» ليمعن في السخرية بالمعتدين، ويبين قُبْح أفعالهم.

الجناس

استعمل الرندي جناس الاشتقاق، وهو جناس سهل لا يكلف صاحبه جهداً، وهو ليس بالكثير البارز في قصيدته، ويولّده من أسماء الملوك الذين أوردتهم في سياق الأحداث التاريخية التي اختارها. وقد استعمله لمعنى يريده هو السخرية بهؤلاء الحكام الذين دار عليهم الزمن، فقد جانس بين شاد وشذّاد، وساس وساسان، ودار ودارا، وآوى وإيوان، وبذلك نجح في إيجاد علاقة بين التجانس الصوتي والمعنى الذي يريده، فهو يتلاعب بهذه الأسماء على نحو ما عبث الدهر بهم وبممالكهم البائدة.

ردّ العجز على الصدر

وردّ العجز على الصدر من المحسنات اللفظية التي تعد شكلاً من أشكال التجانس الصوتي، وقد أكسب القصيدة إيقاعاً حزيناً ينسجم مع أجوائها وموضوعها:

أين الملوك ذوو التيجان من يمن؟ وأين منهم أكاليل وتيجان؟
وللحوادث سُلوَان يُسهِّلها ومل لما حلّ بالإسلام سلوان

قواعدُ كنَّ أركانَ البلاد فما عسى البقاء إذا لم تبقَ أركانُ؟
وماشياً مَرِحاً يُلْهِيه موطنه أبعد حمصٍ تغرَّ المرءَ أوطانُ؟
تلك المصيبة أنست ما تقدّمها وما لها مع طول الدهر نسيانُ

الاقتباس

ألم الرُّندي ببعض الألفاظ والتعبيرات القرآنية، ففي قوله:

هي الأمور كما شاهدتها دول: من سرّه زمن ساءته أزمان

فهو إذ يجعل أمور الدنيا دُول بين الناس، نظر إلى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ

نُذِرُوا لَهَا يَوْمَ تَأْتِي السَّائِدَاتُ﴾⁽¹⁾.

وفي قوله:

يا مَنْ لذلّة قوم، بعد عزّهم أحال حالهم كفرّ وطغيان

ففي قوله إنهم صاروا أذلاءً في بلاد الكفر، وكانوا من قبل أعزّاء في بلادهم،

نظر إلى قوله تعالى: «يُعْزُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُذِلُّ مَنْ يَشَاءُ.....».

العاطفة

تولى الشاعر في مقدمة القصيدة بمخاطبة عقول المتلقين، فالعاطفة ليست بعد تفجعاً على الأندلس، وإنما هي خاطرة فكرة أو حكمة ثم عرض مشاهد تاريخية لدول عاشت ثم بادت وملوك أعزة أصبحوا من الغابرين.

ولم يلبث أن خاطب الوجدان متدرجاً ومتصاعداً في عاطفته فقد أثار مشاعر الحزن والأسى في نفوس المسلمين من خلال تحسره على المدن الأندلسية التي سقطت وما أصاب الإسلام فيها من تحويل المساجد إلى كنائس، وحلول النواقيس والأجراس محل الأذان، ونراه يذهب إلى مدى أبعد في عاطفته فيستبد به الغضب حين يلمس تقصير المسلمين في نصرة أهل الأندلس، ويزداد انفعاله حتى يبلغ به الحال إلى التقريع والسخرية. ولا تلبث أن تسيطر عليه مشاعر الحزن والألم والغضب التي تصوّر بأسه

(1) سورة آل عمران، الآية رقم 140.

المطبق وإحساسه بالمرارة من معاصريه وعصره، وتستولي على الشاعر وساوسه وشكوكه، لا تبرحه ولا يعرف وسيلة تُخلّصه منها، إن كان في القلب إسلام وإيمان. ولعل البيت الأخير يعبر عن حال الشاعر الحزين وعما علق في نفسه من قنوط يكشف عن مأساته ومأساة الأندلس.

الموسيقا

1. الموسيقا الخارجية

جاءت القصيدة على وزن البحر البسيط وأجزاؤه مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن في كل شطر، وهو من البحور المركبة الراقصة التي تتيح مجالاً للشاعر للتعبير عن مشاعر الحزن والأسى.

وأما القافية فقد قام رويها على النون المضمومة المشبعة المسبوقة بحرف المدّ الألف، مما يتلائم مع أجواء الحزن والألم.

2. الموسيقا الداخلية

وتتمثل في اختيار الألفاظ الموحية بمحو المأساة، والأفكار الإنسانية الخصبة والحكم على وجه الخصوص، كما نلمسها في صدق التجربة والعاطفة القوية المعبرة عن أحاسيس الشاعر نحو الأندلس (الأسى والحزن) والمسلمين (الغضب) والأعداء (الاشمئزاز والتقزز)، كما نلمسها في توازن الكلمات في مثل قوله:

يا راكبين/ عتاق الخيل / ضامرة كأنها/ في مجال سبق/ عُقبان

وحاملين/ سيوف الهند/ مرهفة كأنها/ في ظلام النقع/ نيران

كما نلمس نوعاً من الموسيقا الداخلية في المحسنات البديعية وبخاصة الجناس.

تأثره بالشعراء السابقين

استلهم الرندي في قصيدته عدداً من القصائد السابقة، منها قصيدة ابن عبدون الرائية في رثاء بني المظفر سنة 489 هـ التي مطلعها:

الدهرُ يفجعُ بعدَ العينِ بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور؟!

وتأثر به في استعراض أحداث التاريخ الجسام التي أودت بدول كبرى في فارس واليونان، واستقراء صفحاته التي قضت على قبائل مثل طسم وعاد وجرهم وسبأ وغيرها، ونسج على منواله في غدر الدهر وتقلب الأيام، والبكاء والنحيب على المدن والإمارات التي ضاعت.

وتأثر أيضا بقصيدة ابن الأبار في البكاء على بلنسية سنة 636هـ التي مطلعها:

أدركُ بخيلك خيلَ الله أندلساً إنَّ السبيلَ إلى منجاتها دَرَسا

فهذا المطلع يشبه قول الرندي:

يا راكبين عتاقَ الخيلِ ضامرةً كأنها في مجال السَّبْقِ عُقبانُ

وتأثر بمطلع قصيدة أبي الفتح البستي (-401هـ):

زيادة المرء في دنياه نُقصان ورجحه غير محض الخير خسران

وفي مطلع قصيدته:

لكل شيء إذا ما تَمَّ نقصان فلا يغرّ بطيب العيش إنسان

فكلاهما جعل الحكمة في صدر قصيدته، والمعنى واحد له صلة بتراجع الأشياء ونقصانها، إلا أن الرندي فاقه في الصياغة.

النثر الأندلسي

المبحث الأول: الخطابة

المبحث الثاني: المناظرات

المبحث الثالث: الرسائل

المبحث الرابع: المقامات الأندلسية

المبحث الخامس: رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد

المبحث السادس: قصة حي بن يقظان لابن طفيل

المبحث السابع: طوق الحمامة لابن حزم

الفصل التاسع

النثر الأندلسي

المبحث الأول

الخطابة

تعد الخطابة من فنون النثر الشفاهي، بوصفها حديثاً منظوقاً، وهي تحتاج إلى خيال وبلاغة، لتكون شديدة الوقع في النفوس، عرفها العرب منذ الجاهلية، إذ اقتضت المنازعات بينهم أن يتفاخروا، فتوسّلوا بها في عرض قضاياهم في السلم والحرب؛ طلباً لاستمالة الناس وكسب تأييدهم. ومن هنا قيل إن الخطابة فن الإقناع والإمتاع، والأصل في تذوقها أن تُسمع لحظة إلقائها.

ويقوم هذا الفن (الخطبة/ الرسالة) على الاتصال بين الخطيب (المرسل) وجمهور المستمعين (المرسل إليه) مباشرة بوساطة اللغة المنظوقة، عبر حاسة السمع (الأذن) لاستقبال الكلام المنظوق، ثم حاسة البصر (العين) لرؤية الخطيب (الأداء والهيئة)

نشطت الخطابة الأندلسية في العصور الأولى، إذ توافرت عوامل ازدهارها، فكانت أداة يستعين بها الخطباء في استنهاض الهمم وإذكاء روح الجهاد خلال الحروب المتتابعة التي استكمل بها فتح الأندلس، وكانت حافلة بانتصارات المسلمين على أعدائهم، فضلاً عن أن ملوك الإشبانية الذين فقدوا عروشهم كانوا يسعون إلى تفريق كلمة المسلمين كلّما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، مما استوجب أن يقوم الخطباء بالدعوة إلى جمع الكلمة ولم الشمل.

ثم أخذت الخطابة تضعف شيئاً فشيئاً في أواخر عهودهم بالأندلس، فضلاً عن أن الأدباء أخذوا ينصرفون عنها إلى فنون نثرية أخرى كالرسائل بمختلف أنواعها، والمقامات والسرد القصصي والاشتغال بالفلسفة والعلوم، ومن ثم أصبحت مقصورة على الخطابة الدينية.

وأيا كان الأمر، فإن ما وصل إلينا من خطب الأندلسيين نزر قليل، ولعل ذلك يعود إلى تعذر تدوين الكثير منها، لاعتمادها على الارتجال والطول، واحتمال ضياع ما دُوِّنَ منها مع ما ضاع من تراث العرب الفكري الذي أباده الإسبان عندما تم لهم الاستيلاء على الأندلس⁽¹⁾

أنواع الخطابة

تنوعت الخطابة الأندلسية، وأهمها: الخطابة السياسية، والحفلية، والدينية، والجهادية.

1. الخطابة السياسية

نشطت الخطابة السياسية إبان العهود الأولى، فقد اتخذها الساسة وسيلة في بيان سياسة الدولة. إذ تلقانا خطبة الأمير عبد الرحمن الأوسط بن الحكم بعد وفاة والده ودفنه ومبايعة الخاصة والعامة له، إذ يقول: "الحمد لله الذي جعل الموت حتماً من قضائه، وعزماً من أمره، وأجرى الأمور على مشيئته، فاستأثر بالملكوت والبقاء، وأذلّ خلقه فما لهم نجاة من الفناء تبارك اسمه، وتعالى جدّه، وصلى الله على محمد نبيه ورسوله وسلم تسليماً. وكان مصابنا بالإمام _ رحمه الله مما جلّت به المصيبة، وعظمت به الرزية، فعند الله نحتسبه، وإياه نسأل إلهام الصبر، وإليه نرغب في كمال الأجر والدّخر. وعهد إلينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم، ولسنا ممن يخالف عهده، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله"⁽²⁾

فهذه خطبه قصيرة، تقوم على الإيجاز، وتُسم بالسهولة والوضوح، والبعد عن التكلف. وقد جاءت متنامية متصاعدة، فقد بدا الأمير عبد الرحمن خطبته متحدثاً عن الموت بوصفه حتماً لا ينجو منه أحد ثم انتقل إلى المصاب الجلل الذي تمثل في وفاة والده، وتجلّى بالصبر ورغب في كمال الأجر، ثم انتقل إلى بيان موقفه من الناس، فيقرر أن الله قد عهد إليه بما فيه صلاحهم، وأنه لن يخالف عهده، فما عليهم إلا أن يبايعوه.

(1) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس ص 440.

(2) بيان المغرب، 2/ 135.

2. الخطابة الحفلية

لم تعد خطب الوفادة على الخلفاء ذات رونق، وفقدت تلك المكانة التي كنا نعهد لها في العصور الإسلامية الأولى، فلم تعد وفود العرب تفد إلى قصور الخلفاء. واقتصرت الخطابة الحفلية على بعض المناسبات التي يَفد فيها الرسل إلى الخليفة، ففي سنة 338هـ وفد إلى الخليفة الناصر رسل ملك الروم وصاحب القسطنطينية بقصر قرطبة، يطلبون المسألة ويحملون الهدايا، فاحتفل الناصر باستقبالهم احتفالاً تاريخياً، وقام الخطباء بين يديه يعظمون الإسلام والخليفة.

3. الخطابة الدينية

ظَلَّت الخطابة الدينية على نحو ما كانت عليه في العصور السابقة، ثم أخذت تميل إلى التكلف منذ عصر المرابطين، وذلك بظهور الخطب التي تتضمن التورية بأسماء سور القرآن، ومنها خطبة للقاضي عياض (-544هـ)، إذ يقول: ⁽¹⁾

الحمد لله الذي افتتح بالحمد كلامه، ويُن في سورة البقرة أحكامه، ومدَّ في آل عمران والنساء مائدة الأنعام ليتمَّ إنعامه. وجعل في الأعراف أنفال توبة يونس والر كتاب أحكمت آياته بمجاورة يوسف الصديق في دار الكرامة، وسبَّح الرعد بحمده، وجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ليؤمن أهل الحجر أنه إذا أتى أمر الله سبحانه، فلا كهف ولا ملجأ إلا إليه، ولا يظلمون قلامه. وجعل في حروف كهيعص سرّاً مكنونا قدّم بسببه طه ﷺ على سائر الأنبياء ليظهر إجلاله وإعظامه. وأوضح الأمر حتى حج المؤمنون بنور الفرقان، والشعراء صاروا كالنمل ذلاً وصغاراً لعظمته وظهرت قصص العنكبوت، فأمن به الروم، وأيقنوا أنه الحي القيوم، نزل به الروح الأمين على زين من وافى القيامة.

فهذه الخطبة متكلفة، تضمّنت التورية بأسماء السور، والتزم الخطيب فيها السجع. ويبدو أن هذا الطراز من الخطب تفرّد به الأندلسيون، وأخذوا يحاكونه، ومن فعل ذلك الخطيب سعيد بن أحمد المقرئ ⁽²⁾

(1) نفح الطيب، 10\192.

(2) انظر: م.ن، 10\192.

وكذلك عمد بعض الخطباء إلى لون آخر من التكلف كإلغاء بعض الحروف من الخطبة، في مثل خطبة أحمد بن الحسن بن علي الزيات (-728 هـ)، إذ ألغى الألف من حروف خطبته التي يقول فيها: "حمدتُ ربي جلّ من كريم محمود، وشكرته عزّ من عظيم موجود، ونزّهته عن كل ملحد كفور، وقدّسته عن قول كل مفسد غرور... ولو حضره طرف لقطع بتجسّمه... موجود من غير شيء يُمسكه، معبود من غير وهم يُدرّكه... قوي من غير سبب يجمعه، عليّ من غير سبب يرفعه، لو وجد له جنس لعورض في قيوميّة، ولو ثبت له حس لنوزع في ديمومته" (1).

وهذه أيضاً خطبة متكلفة يحوم صاحبها في أجواء الفصاحة المفتعلة، وتخلو من المعاني المترابطة، فهي مفككة يغلب عليها الضعف والركاكة.

4. خطب الجهاد

ازدهرت خطب الجهاد حين توزّعت الأندلس بين ملوك الطوائف، الذين أخذوا يتناحرون فيما بينهم، ويستعين بعضهم على بعض بالأعداء. ومن ثم أخذت مدن الأندلس وأقاليمه تسقط بيد الإسبان واحدة تلو الأخرى. وشرع الخطباء يستنجدون ويحضّون على الجهاد، وتلقانا خطبه الوزير لسان الدين بن الخطيب (-776) التي يحث فيها المسلمين على مساندة إخوانهم في الأندلس وقد دهمهم العدو، فقال: (2)

أيها الناس رحمكم الله تعالى. إخوانكم المسلمين بالأندلس قد دهم العدو -قصمه الله تعالى- ساحتهم، ورام الكفر -خذله الله تعالى- استباحتهم، وزحفت أحزاب الطواغيت إليهم، ومدّ الصليب ذراعيه عليهم، وأيديكم بعزة الله تعالى أقوى، وأنتم المؤمنون أهل البرّ والتقوى، وهو دينكم فانصروه، وجواركم الغريب فلا تحفروه (3) قد وضع فلتبصروه.

الجهاد، وسبيل الرُّشد فقد تعيّن، الجار الجار فقد قرّر الشرع حقّه وبين. الله الله في الإسلام. الله الله.

(1) الإحاطة في أخبار غرناطة، ص 298.

(2) نفخ الطيب، 8 / 271.

(3) لا تحفروه: لا تنقضوا عهده.

في أمة محمد ﷺ، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله. الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله. قد استغاث بكم الدين فأغيثوه، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه.

أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله عند الشدائد، جددوا عوائد الخير يصل الله تعالى لكم جميل العوائد صلوا رحم الكلمة، واسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة، كتاب الله بين أيديكم، والسنة الآيات تناديكم وسنة رسول الله ﷺ قائمة فيكم، والله سبحانه يقول فيه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْزَرٍ يُشْرِكُونَ عَذَابِ اللَّهِ لَهُمْ فِيهِ﴾. وما صح عنه ﷺ: "من اغبرت قدماه في سبيل الله حرهما الله على النار" لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم" من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا" أدركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عبادته، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده.

ماذا يكون جوابكم لنبيكم وطريق هذا العذر غير ممهد
أن قال: لِمَ فرطتم في أمي وتركتموهم للعدو المعتدي؟
تالله لو أن العقوبة لم تخف لكفى الحيا من وجه ذاك السيد

"اللهم اعطف علينا قلوب العباد، اللهم بث لنا الحمية في البلاد، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد. اللهم انصرنا على أعدائك، بأحبابك وأوليائك، يا خير الناصرين، اللهم أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً".

فلسان الدين الخطيب يحث المسلمين على الجهاد، نصرة لدينهم، ودفاعاً عن أوطانهم، وصوناً لعزتهم. والخطبة بعيدة عن التكلف، نلمس فيها صدق العاطفة الدينية، ففيها الحماس الديني والغيرة على المقدسات معتمداً أسلوب الحض، إذ نراه يكثر من العبارات الإنشائية كالنداء والأمر والدعاء، ويضمّن خطبته بأي من القرآن الكريم وأحاديث نبوية شريفة وأبيات من الشعر، لتكون أكثر تأثيراً في نفوس المسلمين، وأقوى دليلاً وحجة.

المبحث الثاني

المنظرات

تعد المنظرات من فنون النشر الشفاهي، التي خاض فيها كتاب الأندلس بأقلامهم، وهي في الاصطلاح فن من فنون القول ينتج عن اجتماع طرفين من أهل الفكر والرأي أو العلم والأدب في مجلس يضم جمهوراً، ويقع بينهما بحث في موضوع، يُتفق عليه سلفاً أو يثار في المجلس، وغاية المتناظرين إظهار الحق، والوصول إلى الحقيقة والإذعان لها من أي طرف جاءت، وعموم الجمهور أو العلماء المتخصصون حكم بين المتناظرين. وقد تبدأ المناظرة برأي أو سؤال، وتنتهي بانقطاع حُجَج أحد طرفيها واعترافه فتكون الغلبة للآخر⁽¹⁾.

وهي بذلك تُعدّ فناً أدبياً يقوم على المجادلة والمجاورة بين شخصين، يُدلي كل واحد بحججه وبراهينه ليثبت تفوقه على الآخر، معتمداً على ثقافته وقدرته على الجدل والحوار في مجلس يضم جمهوراً.

وهذا الفن ليس من مبتكرات الأندلسيين، فقد سبقهم إليه المشارقة من أمثال الجاحظ في مناظراته المتخيلة التي أودعها كتابه "الحيوان" ومنها: مناظرة صاحب الكلب وصاحب الديك، ومناظرة صاحب الكلب وصاحب القط، فضلاً عن رسائله مثل رسالته في مناقب الترك، ورسالته في مفاخرة السودان على البيضان، ورسالته في مفاخرة الجواري والغلمان.

أنواع المنظرات

يحسن بنا أن نتعرف إلى أهم أنواع المنظرات الأندلسية، وهي: المنظرات المتخيلة والمنظرات الواقعية

أولاً: المنظرات المتخيلة

وقد وردت على شكل رسائل، فمنها ما كتب على ألسنة الأزهار، ومن ذلك رسالة ابن برد الأصغر في تفضيل الورد، وتتألف من مقدّمة يشرح فيها الناطق باسم

(1) رحيمة الحسنائي، المنظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية الإسلامية، ص 54

الأزهار جمال كل نوع منها، ثم يُذكر المجتمعين أنّ فيهم من يستحقّ الرياسة وهو الورد، فقام النرجس الأصغر وقال: والذي مهّد لي حجر الثرى وأرضعني ثدي الحيا، لقد جئت بها أوضح من لبّة الصباح، وأسطع من لسان المصباح، ولقد كنت أسرّ من التعبد له والشّغف به والأسف على تعاقب الموت والرجعة دون لقائه، ما أنحل جسمي ومكّن سقمي، وإذ قد أمكن البوح بالشكوى، فقد خفّ ثقل البلوى.

ثم قام البنفسج وقال: "على الخبير سقطت، أنا والله المتعبد له، الداعي إليه، المشغوف به كلفاً. المغموض بيد النأي عنه أسفاً. وكفى ما بوجهي من ندب، وجسمي من عدم نهوض ولكن في التآسي بك وفي الاستواء معك وجدان وسلو"⁽¹⁾.

وبعد أن تتابع الخطباء، كتب الجميع كتاباً بتفضيل الورد على غيره من الأزهار، ووضعوا فيه شهادتهم شعراً.

وتلقانا مناظرته الثانية الموسومة "برسالة السيف والقلم"⁽²⁾، واستوحاها من واقع الحال في دول الطوائف، وقد أجرى ابن برد بينهما حواراً شديداً يبلغ حد التهاجي، من مثل:

قول السيف:....لقد تحاول امتداداً بباع قصيرة، وانتفاضاً بجناح كسيرة. أمستغربٌ والفلس ثمنك، ومستجلب وكل بقعة وطنك.

فيرد القلم:....إن ازدراءك بتمكّن وجداني، وبخس أثماني، لنقص في طباعك، وقصر في باعك. ألا وإن الذهب معدنه في العفر، وهو أنفـس الجواهر، والنار مكنها في الحجر وهي إحدى العناصر.....

وعلى هذا النحو يمضي الحوار بينهما وفي كل مرّة يحاول أن يحطّ من مناقب الآخر ويُعلي من مناقب نفسه بأسلوبه الأنيق.

عندئذ يقول ابن برد: "ولمّا كثر تعارضهما، وطال تراوضهما...تبادرا إلى السلم يعتقدان لواءها، وإلى المؤالفة يردان ماءها، وقالا: إن من القبح أن تتشّت أهواؤنا، وقد جمعنا الله في المألّف الكريم، وأحلّنا بمحل غير ذميم...))

(1) نهاية الأرب، 11/ 196.

(2) انظر الذخيرة، 1/ 2، ص 435.

ثم اتفقا أخيراً على أن يُبرما عقداً، يستظهر به بعضهم على بعض، "فقد يدبُّ الدهر بعقاربه بين المرء وأقاربه"، وعلى أن يكون ذلك العقد أو المعاهدة شعراً لا نثراً لأن "الشعر شدو الحادي، وزاد الرائح والغادي"

وأياً كان الأمر، فقد كتب ابن برد هذه الرسالة في ظل الموفق أبي الجيش مجاهد العامر، وقد حمل طابع الحوار الحاد بين السيف والقلم، الذي لم يلبث أن انتهى إلى التصالح بموجب عقد بينهما، ويقصد الكاتب من التوصل إلى هذه النتيجة التدليل على أن الدول لا ترقى إلا برجال السيف وأرباب القلم معاً، في عصر تأخرت فيه مرتبة أصحاب القلم بمن فيهم ابن برد نفسه.

ومن ذلك تلقانا رسالة لابن حسداي في تفضيل النرجس، ورسالتان في تقديم البهار على غيره من الأزهار، إحداهما لحبيب الحميري والثانية لأبي عمر الباجي. ثانياً: المناظرات غير المتخيلة

وتدور هذه المناظرات حول الفخر بمناقب الأندلس، وتفضيلها على سائر البلدان، ومن ذلك رسالة للوزير أبي محمد علي بن حزم (-456) التي بيّن فيها فضائل علماء الأندلس، وردّها على رسالة لابن الربيب القيرواني التي تحامل فيها على أهل الأندلس واتهمهم بالتقصير في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم. ومنها مناظرة دارت بين أبي الوليد إسماعيل الشقندي (-629هـ) وأبي يحيى بن المعلم الطنجي، فضل الأول فيها الأندلس، وفضل الثاني بر المغرب.⁽¹⁾

وتدور أيضاً بين مدن الأندلس، حيث تفخر كل مدينة بما خصّها الله من محاسن ونعيم، ومنها رسالة أبي بحر بن إدريس إلى الأمير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي التي استهلها بدعاء للأمير يقول فيه.⁽²⁾

"مولادي، أمتع الله ببقائك الزمان وأبناءه، كما ضمّ على حبك أحناءهم⁽³⁾ وأحناءه، وأصل ما شئت من المن والأمان، كما نظم قلائد فحرك على لبة الدهر نظم

(1) نفح الطيب، 4/ 154.

(2) م. ن، ص 177.

(3) الأحناء: الصدور، وأحداها حني.

الجُمان.... ولما تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار وطالب بها الوقوف على حبك والاعتصار، كلها يفصح قولاً، ويقول: أنا أحق وأولى، ويُصيح إلى إجابة دعوته ويصغي، ويتلو إذا بُشّر بك: ذلك ما كنا نبغي، تميّزت حمص غيظاً⁽¹⁾، وكادت تفيض فيظاً⁽²⁾، وقالت:

«ما لهم يزدون وينقصون، ويطمعون ويحرصون؟ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يحرصون⁽³⁾. ألهم السهم الأسد، والساعد الأشد، والنهر الذي يتعاقب عليه الجزر والمد. أنا مصر الأندلس والنيل نهري، وسماي التأس والنجوم زهري. إن تحاربتم في ذلك الشرق، فحسي أن أفيض في ذلك الشرف⁽⁴⁾، وإن تبجّحتم بأشرف اللبوس، فأني إزار اشتملتوم كشتتبوس؟ لي ما شئت من أبنية رحاب، وروض يُستغنى بنضرته عن السحاب، قد ملأت زهراتي وهاداً ونجاداً، وتوشّح سيف نهري⁽⁵⁾ بجدائقي نجاداً، فانا أولاكم بسيدنا الهمام وأحق، الآن حصّص الحق.

فنظرتها قرطبة شزراً⁽⁶⁾، وقالت، لقد كثرت نزرأ⁽⁷⁾، وبذرت في الصخر الأصم بزراً، كلام العدا ضرب من الهذيان، وأنى للإيضاح والبيان؟ متى استحال المستقبح مُستحسناً؟ ومن أودع أجفان المهجور وسناً؟ إن ادّعيتم سيفاً، فما عند الله خير وأبقى. لي البيت المطهر الشريف، والاسم الذي ضرب عليه رواق التعريف، في بقيعي محلّ الرجال الأفاضل، فليرغم أنف المناضل، وفي جامعي مشاهد ليلة القدر، فحسي من نباهة القدر، فما لأحد أن يستأثر عليّ بهذا السيد الأعلى، ولا أرضى له أن يُوطئ

(1) تميّزت غيظاً: تمرّقت بسبب غيظها.

(2) كادت تفيض فيظاً: كادت تموت موتاً.

(3) يحرصون: يكذبون.

(4) الشرف الأول: رفعة القدر وعلو المنزلة، والشرف الثاني: بلد بجوار إشبيلية يحتوي على قرى كثيرة.

(5) سيف النهر بكسر السين: ساحله وشاطئه.

(6) نظرتها بإعراض، ويكون ذلك في حال الغضب.

(7) النزر: الفاقة، والمعنى صيرت القليل كثيراً.

غير ترابي نعلًا، فأقروا لي بالأبوة، وانقادوا لي على حُكم النبوءة، ولا تكونوا كالتّي
نقصت غزلها من بعد قوة، وكُفُّوا عن تباريكم، ذلكم خيرٌ لكم عند باريكم⁽¹⁾.

ثم تأتي بعد ذلك على التوالي دُور خمس مدن أخرى هي: غرناطة، ومالقة،
ومُرسية، وبلنسية، وتُدْمير، فتُباهي كل واحدة منها بمحاسن بها تزعم أنها أحق وأولى،
بهذا السيد الأعلى، ويختتم الكاتب رسالته كما بدأها بدعاء للأمير.

يغلب على هذه الرسالة أسلوب القاضي الفاضل، بما فيها من سجع وجناس.

(1) نفح الطيب، 159/1.

المبحث الثالث

الرسائل

تمهيد

تعد الرسائل من فنون النثر التي حفلت بها صناعه الكتابة، وقد تنوعت بتنوع أغراضها ومراميها، وهي: الرسائل الديوانية (الرسمية)، والرسائل الإخوانية (الشخصية)، والرسائل الأدبية العامة (المقالية).

وقد عُرفت الرسائل بمختلف أنواعها في النثر الفني الأندلسي عند طائفة من الكتاب معظمهم من كبار الشعراء الأندلسيين من أمثال ابن زيدون، ولسان الدين بن الخطيب.

وإذ تأثر هؤلاء الكتاب في نثرهم بعامة ورسائلهم بخاصة بأساليب النثر العربي في المشرق، المتمثلة في الجاحظ وابن العميد والقاضي الفاضل فإنهم استطاعوا أن ينشئوا فنا راقيا.

وسوف نعرض لأهم رسائلهم بمختلف أنواعها، مع نماذج لها توضح خصائصها وسماتها.

أولاً: الرسائل الديوانية (الرسمية)

والرسائل الديوانية تصدر عن ديوان الخليفة أو الملك، لتصريف أعمال الدولة وما يتصل بها من تولية الولاة والعمال وقادة الجيوش، وقد تُوجّه إلى الأعداء على سبيل التهديد والوعيد. وكان لكل خليفة أو ملك كاتبه الذي يتولى الكتابة نيابة عنه في كل ما يخصّ أمور الدولة من رسائل وعهود ومبايعات وغيرها. وتوافرت في هؤلاء الكتاب ثقافة لغوية وأدبية ودينية. ومن أبرزهم أبو حفص بن برد الأصغر، وابن زيدون، وابن شهيد، وابن درّاج القسطلي، ولسان الدين بن الخطيب، وقد نالت رسائلهم الإعجاب والتقدير.

ومن نماذج الرسائل الديوانية رسالة لأبي حفص بن برد الأصغر على لسان من كان يكتب له من العامريين، وهي موجّهة لقوم طلبوا الأمان من مولاه: ⁽¹⁾

(1) الذخيرة، 2/1، ص32.

أما بعد، فإنكم سألتكم الأمان أو أن تلمّظت السيوف إليكم، وحامت المنايا عليكم، وهمت حظائر الخذلان أن تُفَرِّجَ لنا عنكم، وأيدي العصيان أن تتحفنا بكم.

ولو كلنا لكم بصاعكم، ولم نرغ فيكم ذمة اصطناعكم. لضاق عنكم ملبس الغفران، ولم ينسدل عليكم ستر الأمان. ولكننا علمنا أن كهولكم الخُلوْف⁽¹⁾ عنكم، وذوي أسنانكم المعاصين لكم. ممن يهاب وسم⁽²⁾ الخُلَعان، ويخاف سطو السلطان.

ولولا تحرُّجنا أن نقطع أعضادهم بكم، ورجاؤنا أن يكون العفو على المقدرة تأدياً لكم، لشربت دماءكم سباع الكمأة، وأكلت لحومكم ضباع⁽³⁾ الفلاة. وقد أعطيناكم، بتأميننا إياكم، عهد الله وذمته.

ونحن لا نخفّرهما أيام حياتنا إلا أن تكون لكم كَرَّةً، ولغدرتكم ضَرَّةً، فيومئذ لا إعذار لكم، ولا إقصار عنكم، حتى تحصدكم ظباة السيوف، وتقتضي ديون أنفسكم غرماء الختوف⁽⁴⁾

ونموذج آخر لابن برد الأصغر، وهو كتاب مبايعة يقول فيه:

"بايع الإمام عبداً لله فلان بانسراح صدر وطيب نفس ونصاحة جيب وسلامة غيب، ببيعة رضا واختيار، لا ببيعة إكراه وإجبار، على السمع والطاعة، والمؤازرة والنصرة، والوفاء والنصيحة، في السر والعلانية، والجهر والئية، والعمل على موالاته من والاه، ومعاداة من عاداه، من بعيد وقريب، وغريب ونسيب.

ويُقسم على الوفاء به والقيام بشروط بيعته، بالذي لا اله إلا هو الرحمن الرحيم، عالم الغيب والشهادة، والقائم على كل نفس بما كسبت، ويعطيه على ذلك كله ذمة الله وذمة محمد رسوله وذمة الأنبياء والمرسلين، والملائكة المقربين، وعباد الله الصالحين.

(1) الخلوْف: الغيب بضم الغين وتشديد الياء.

(2) وسم الخُلَعان: أثر نقص العهد.

(3) الضباع: جمع ضبع بفتح الضاد وضم الباء، وهو ضرب من السباع، أنثى.

(4) الذخيرة: 2/1 ص 32.

ومتى خلعت رِبْقَةً بِخَيْرٍ⁽¹⁾ أو غدر، أو طويت⁽²⁾ كشْحاً على نكث⁽³⁾ أو حَنَث⁽⁴⁾، فعليك المشي إلى بيت الله الحرام ببطحاء مكة من مستقرك ثلاثين حِجَّةً، نذرا واجبا لا يقبل الله تعالى إلا الوفاء به.

و كل زوجة لك مَهيرة⁽⁵⁾، أو تنكحها إلى ثلاثين سنة فطالق تحتك طلاق الحرج ثلاثا. وكل أمة أو عبد لك أو تملكه فأحرار لوجه الله العظيم.

وكل مال لك من صامت أو ناطق أو تملكه إلى ثلاثين سنه غير عشرة دنانير أو قدرها، فصدقة على الفقراء والمسكين. وقد برئ الله تعالى منك ورسوله وملائكته. والله بجميع ما انعقد عليك في هذه البيعة شهيد وكفى بالله شهيدا، وعلى الأعمال والنيات مثيبا⁽⁶⁾.

ولعلنا نلاحظ في الرسالة سمات خاصة بأسلوب التهديد والوعيد، فجاءت بالألفاظ والتراكيب التي تناسب هذا الأسلوب، كما حفلت بالسجع والصور البيانية من استعارات وكنيات لطيفة.

ومن الرسائل الديوانية أيضا رسالة للوزير الكاتب لسان الدين بن الخطيب، كتبها على لسان سلطانه محمد الغني بالله بن الأحمر، يُبشِّرُ فيها بالفتح⁽⁷⁾، إذ يقول:

أيها الناس، ضاعف الله بمزيد النعم سروركم ! وتكفل بلطفه الخفي في مثل هذا القطر الغريب أموركم!

أبشركم بما كتب به سلطانكم السعيد إليكم، المترادفة بيمينه وسعادته نعم الله عليكم ! أمتع الله الإسلام ببقائه ! وأيده على أعدائه ! ونصره في أرضه بملائكة سمائه !

(1) الخنز: الخديعة.

(2) طوى الرجل كشحة على كذا: أضمره وعزم عليه.

(3) النكث: نقض العهد.

(4) الحنث: الحلف في اليمين.

(5) الزوجة المهيرة: الغالية المهر، أي الصداق.

(6) الذخيرة 1/ 2 ص 30.

(7) نفح الطيب، 9/ 41.

وإن الله تعالى فتح له الفتح المبين، وأعزَّ بمحركة جهاده الدين، وبَيَّض وجوه المؤمنين، وأظفَره بطرير⁽¹⁾ البلد الذي فجَّع المسلمين بأسرهم فجيسة تثير الحمية، وتحرك النفس الأبية.

فانتقم الله تعالى منهم على يده، وبلغه من استئصالهم غاية مقصده، فصدق من الله تعالى لأوليائه وعلى أعدائه الوعد والوعيد، وحكم بإبادتهم المبدئ والمعيد، وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى وهي ظالمة، إن أخذه أليم شديد.

وئحْصَل من سببه بعدما رُويت السيوف من دمائهم آلاف عديدة، لم يُسمع بمثلها في المدد المديدة، والعهود البعيدة، ولم يُصب من إخوانكم المسلمين عدد يذكر، ولا رجل يعتبر.

فتح هنيء، وصنع سنيء، ولطف خفيء، ووعد وفئ، فاستبشروا بفضل الله تعالى ونعمته، وقفوا عند الافتقار والانقطاع لرحمته، وقابلوا نعمه بالشكر يزدكم، واستبصروا في الدفاع عن دينكم يؤيدكم، واغتبطوا بهذه الدولة المباركة التي لم تعدموا من الله تعالى معها عيشاً خصيباً⁽²⁾، ولا رأياً مصيباً ولا نصراً عزيزاً ولا فتحاً قريباً، وتضرعوا في بقائها، ونصر لوائها، إلى من لم يزل سميعاً للدعاء مجيباً. والله عز وجل يجعل البشائر الفاشية فيكم عادة، ولا بعْذِمُكُمْ⁽³⁾ ولا أولى الأمر منكم توفيقاً وسعادة. والسلام الكريم يخلصكم، ورحمة الله تعالى وبركاته من مبلغكم ذلك فلان⁽⁴⁾.

ولعلنا نلاحظ أن الكاتب يميل إلى التائق في عبارته، مقتفياً أسلوب القاضي الفاضل من حيث التزام السجع والإكثار من صيغ الدعاء وهو أسلوب دأب عليه الكتاب في المشرق في رسائل البشارات، في العهدين الأيوبي والمملوكي.

(1) بطرير البلد: الطاغية المتماذي في غيه.

(2) لم تعدموا: لم تفقدوا بفتح الياء.

(3) لا يعدمكم: لا يفقركم بضم الياء.

(4) نفح الطيب، 9 / 41.

ثانياً: الرسائل الإخوانية (الشخصية)

وهي ضرب من الرسائل المتبادلة بين الإخوان والأصدقاء، والخلصاء، تدور حول العلاقات الاجتماعية والمشاعر الخاصة من عتاب وشكوى ومديح ورثاء وهجاء، ومن تهنئة وتعزية واعتذار واستعطاف.

وساعد على إزاحتها بين الناس ظهور طبقه من الأدباء والكتاب، عنيت بتجويد الكلام واحتفلت بأساليبه. ومَن برع فيها ابن برد الأصغر، والفتح بن خاقان، ولسان الدين بن الخطيب. وقد تعددت موضوعاتها تبعاً لتعدد المشاعر والأحاسيس التي يتصف بها أصحابها، ومنها:

1. رسائل العتاب

ويلجأ إليها الكتاب لإزالة جفوة بين الأصدقاء، من ذلك ما كتبه ابن برد الأصغر في عتاب صديق يقول فيها: ⁽¹⁾

أظلم لي جو صفائك، وتوغَّرت عليّ أرضُ إخائك - وأراك جَلَدَ الضمير على العتاب، غير نافع الغُلة ⁽²⁾ من الجفاء. فليت شعري ما الذي أقسى مُهجة ذلك الوُدِّ، وأدوى زهرة ذلك العهد؟

عهدي بك وصلَّتنا ففرَّق من اسم القطيعة، ومودَّتنا تحلُّ عن صفة العتاب ونسبة الجفاء، واليوم هي آنسُ بذلك من الرَضيع بالشدي، والخليع بالكأس. وهذه تُغرة إن لم تحرَّسها المراجعة، وتُدكَّ فيها عيون الاستبصار، توجَّهت منها الحيلُ على هذم ما بيننا، ونقض ما اقتنينا، وتلك ناعية الصَّفَاء، والصَّارِخَةُ بموت الإخاء.

لا أنتبذ ⁽³⁾ - أعزَّك الله - من الكتاب ⁽⁴⁾ إليك وإنَّ رَغَمَ أنف القلم، وانزوت أحشاء القرطاس، وأخرس فم الفكر، فلم يَبْقَ في أحدها إسعادٌ لي على مكاتبتك، ولا

(1) الذخيرة، 2/1 ص 33.

(2) نافع الغُلة: أروى للعطش.

(3) لا أنتبذ من: لا أنتحي وأكف عنه.

(4) والكتاب هنا: مصدر بمعنى الكتابة.

بشاشة عند محاولة مخاطبتك، لقوارص عتابك، وقوارع ملامك، التي قد أكلت أفلامك، وأغضت كُتُبَك، واضجرت رُسُلك....⁽¹⁾

ويبدو تأثر الكاتب بأسلوب ابن العميد، فقد راوح بين السجع والازدواج، وجَّسَم معانيه باستخدام الاستعارة.

2. رسائل الشكوى

وكان الكتاب يبعثون بها إلى أولياء الأمر، من ذلك ما كتبه الفتح بن خاقان الذي كان يعيش في عصر المرابطين، إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وفيها يشكو إليه وزيره أبا العلاء زهر بن عبد الملك⁽²⁾:

«أطال الله تعالى بقاء الأمير الأجلّ سامعاً للدعاء، دافعاً للتطاول والاعتداء، لم ينظم الله تعالى بلبَّتِكَ الملك عقداً وجعل للأمور عقداً، وأوطأ لك عِقباً، وأصار من الناس لعَوْنِكَ مُنتظراً ومُرتقباً، إلا أن تكون للبرِّية حائطاً، وللعدل فيهم ولا ينال أحدهم اهتمام، ولتقصّر يد كل مُعتدٍ في الظلام.

ويعد أسلوبه امتداداً لأسلوب ابن العميد، إذ التزم بالسجع، واستعمل بعض ألوان البديع كالجناس والطباق. وجاءت عباراته قصيرة، زاج فيها بين الجمل الخبرية والجمل الإنشائية.

3. رسائل في السؤال عن الصديق

وقد اعتاد الكتاب في السؤال عن الصديق، أن يُعبّروا عن لواعج أشواقهم، والصبر على فراقهم، ومنها رسالة طويلة بعث بها الوزير لسان الدين بن الخطيب إلى صديقه ابن خلدون في الشوق إليه، ومنها بعد استهلاكها بقصيدة من اثني عشر بيتاً:⁽³⁾

أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج، وأما الصبر فسل به أية درج، بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج، والمؤمن ينشق من روح الله الأرج. وأني بالصبر على إبر

(1) الذخيرة، 2/1 ص 33.

(2) نفع الطيب، 14/3.

(3) م. ن، 9/94.

الدُّبَر⁽¹⁾، لا بل الضرب الهَبَر⁽²⁾، ومُطاولة اليوم والشهر، حتى حكم القهر؟ وهل العين إن تسلو سُلُوْ مقصر، عن إنسانها المُبصر، أو تذهلَ ذهولَ الزاهد، عن سرّها الرائي والمشهد؟ وفي الجسد مضغة يصلح إذا صلحت، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت؟ وإن كان الفراق هو الانحناء الأول، فعلام المعول؟ أعت مرأوضه الفراق، على الرّاق، وكادت من لوعة الاشتياق، أن تُفضي إلى السياق⁽³⁾.

تركتُموني بعد تشييعكم أوسع أمر الصبر عصيانا
أقرع سني ندما تارة وأستمح الدمع أحياناً⁽⁴⁾

ثالثاً: الرسائل الأدبية

وهي رسائل يُنشئها الكتّاب والأدباء عامة وتكون في موضوعات أدبية بعينها، مثل رسائل ابن زيدون، ورسائل أبي الحسين بن سراج الموسومة بالزرزوريات، ورسائل أبي عبد الله محمد بن مسلم الموسومة بـ "طي المراحل".

أ. رسائل ابن زيدون

ولابن زيدون رسائل أدبية، منها: الرسالة الجدية، والرسالة البكرية، والرسالة المظفرية، والرسالة العامرية، والرسالة العبادية. وأهم هذه الرسائل اثنتان: الرسالة الجدية، والرسالة الهزلية، وهما وثيقتا الصلة بحياة ابن زيدون.

أما الرسالة الجدية فقد كتبها وهو في السجن لأبي الحزم بن جَهْوَر أمير قرطبة إبان الفتنة، يستعطفه فيها ويتبرأ مما اتهم به، ويسأله العفو ويرجو إطلاق سراحه إذ يقول: "يا مولاي وسيدي الذي ودّأدي له، واعتمادي عليه واعتدادي به، وامتدادي منه، ومن أبقاه الله تعالى ماضي حد العزم، واري زَند الأمل، ثابت عهد النعمة.

(1) الدبر: النحل والزناير.

(2) الضرب الهبر: الذي يقطع اللحم ويفريه.

(3) السياق: نزع الروح.

(4) نفح الطيب، 94/9.

إن سلبتي - أعزك الله - لباس إنعامك، وعطّلتني من حليّ إيناسك، وأظمتني إلى برود⁽¹⁾ إسعافك، ونفضت بي كفّ حياطتك، وغضضت عني طرف حمايتك بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصم ثنائي عليك، وأحسّ الجماد باستنادي إليك - فلا غرو⁽²⁾: قد يغصّ بالماء شارب⁽³⁾، ويقتل الدواء المستشفي به، ويؤتي الحذر من مأمنه، وتكون منية المتمني في أمنيته، والحين قد يسبق جهد الحريص:

كلّ المصائب قد تمرّ على الفتى وتهوّن غير شماتة الحساد

ومنها: وأعود فأقول: ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك؟ والجهل الذي لم يأت من ورائه حلمك؟ والتطاول الذي لم يستغرقه تطوّل⁽⁴⁾؟ والتحمل الذي لم يف به احتمالك؟ ولا أخلو من أن أكون بريئا فأين العدل؟ أو مسيئا فأين الفضل؟

إلا يكن ذنب فعذلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع!

حنانيك⁽⁵⁾ قد بلغ السيل الزبي⁽⁶⁾، ونالني ما حسي به وكفى! وما أراني إلا لو آتني أمرت بالسجود لأدم فأبيت واستكبرت⁽⁷⁾ وقال لي نوح: «اركب معنا» فقلت: «سأوي إلى جبل يعصمني من الماء» وأمرت ببناء الصرح لعلّي أطلع إلى إله موسى، وعكفت على العجل، واعتديت في السبت، وتعاطيت فعقرت....»

(1) البرود: البارد.

(2) لا غرو: لا عجب.

(3) قد هنا للتقليل، والمعنى: إن الماء الذي يزيل الغصة قد يكون هو سببا للغصة.

(4) التطاول: الترفع والكبر، والتطول: التفضل والإحسان.

(5) حنانيك: أسألك حنانا بعد حنان.

(6) مثل يضرب لكل ما جاوز الحد.

(7) أخذ ابن زيدون يعدد هنا بعض كبار الذنوب ويقول: ولو أني ارتكبتها جميعا لكفاني ما نلت من عقابك، وقد ابتدأ بذكر إبليس وتكبره عن السجود لأدم عصيانا منه لأمر الله.

((فكيف؟ ولا ذنب لي إلا نعمة أهداها كاشح، ونبا جاء به فاسق⁽¹⁾، وهم الهمازون المشاءون بنميم⁽²⁾، والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا⁽³⁾، والغواة الذين لا يتركون أديما⁽⁴⁾ صحيحا، والسعاة الذين ذكرهم الأحنف بن قيس فقال: «ما ظنك بقوم الصدق محمود إلا منهم».

حلفت فلم أترك لنفسك ربةً وليس وراء الله للمرء مذهبٌ والله ما غششتك بعد النصيحة، ولا انخرفتُ عنك بعد الصاغية⁽⁵⁾، ولا نصبت لك بعد التشيع فيك.... فقيم عيث الجفاء بأذمتي⁽⁶⁾، وعاث العقوق في مودتي؟ وتمكن الضياع من وسائلي؟ ولم ضاقت مذاهي، وأكدت مطالبي؟..... وأني غلبني المغلب؟ وفخر عليّ العاجز الضعيف؟ ولطمتني غير ذات سوار⁽⁷⁾؟ وما لك ما تمنع مني قبل أن أفترس، وتدركني ولما أمزق⁽⁸⁾؟ الخ.

ولم يفلح ابن زيدون في نيل استعطاف ابن جهور، فضلاً عن أن هذه الرسالة وجدناها تفتقر إلى العاطفة الصادقة، إذ خلت من مشاعر الألم والتلهف، إلا إنها تنم عن ثقافة واسعة، فقد حشد فيها كثيراً من الأمثال والوقائع التاريخية والأشعار المقتبسة من الشعر القديم، وختمها بقصيدة شعرية، مما ينم عن موهبة أدبية جمعت الشعر إلى جانب النثر.

وأما الرسالة الهزلية فقد كتبها على لسان ولادة بنت المستكفي لمنافسه في جها الوزير أبي عامر بن عبدوس، وقد سخر فيها من الوزير سخرية شديدة تصل إلى حد

(1) الفاسق: الخارج عن طاعة الله.

(2) النميم والنميعة: السعي بين الناس بالفتنة، ونقل الأحاديث المثيرة الكاذبة بقصد الوقعة بين الناس.

(3) صدع العصا: كناية عن تفريق الجماعة.

(4) الأديم: الجلد.

(5) الصاغية إلى الشيء: الميل إليه.

(6) الأذمة: جمع ذمام، وهو الحرمة وصلة المودة والقربى.

(7) معنى العبارة: ظلمني من ليس كفثا لي.

(8) الرسالة كاملة في ديوان ابن زيدون ص 680.

الهجاء المقذع، وهي تنبئنا عن مدى غيظه من منافسه. وكان ابن زيدون قد كتب لولادة قصيدته العنيفة التي قصمت روابط الحب بينهما، اذ يقول:

ألم أوثر الصبرَ كيما أخفَ ألم أكثر الهجرَ كي لا أمل؟!
ألم أرضَ منك بغير الرضا وأبدي السرور بما لم أنل؟!
ألم اغتفر موبقات الذنوب عمداً أتيت بها أم زل؟!

ويبدو أن الرسالة لم تؤت أكلها، فلا هي نالت من منافسه بالقدر الذي أرادها، ولا هي أعادت إليه ولادة، فقد انصرفت عنه إلى ابن عبدوس، وذلك لأنه قد أهانها وعرض بها حين أراد الثأر منها والسخرية بمنافسه الذي كان يلقبه بالفار⁽¹⁾.

وفي ما يلي بعض الفقر من الرسالة الهزلية:

أما بعد أيها المصاب بعقله، المورط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلظه، العاثر في ذيل اغتراره، الأعمى عن شمس نهاره، الساقط سقوط الدّابة على الشراب، المتهافت تهافت الفراش إلى الشهاب، فإنّ العجب أكذب، ومعرفة المرء نفسه أصوب.

وإنك راسلتي مستهدياً من صلتي ما صفرت منه أيدي أمثالك، مُتصدّياً من خلّتي⁽²⁾ لما قرعت دونه أنوف أشكالك، مرسلًا خليلتك مرتادة، مستعملاً عشيقتك قوادة، كاذباً نفسك أنك ستنزّل عنها إلي، وتخلّف بعدها علي:

ولست بأول ذي همّة دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ

ولا شك أنها قلّتكَ إذ لم تضنّ بك، وملّتكَ إذ لم تُعزّ عليك، فإنها أعذرت في السفارة لك⁽³⁾، وما قصّرت في النيابة عنك، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه، والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه!⁽⁴⁾ قاطعة أنك انفردت بالجمال، واستأثرت بالكمال، واستعليت في مراتب الجلال، واستوليت على محاسن الحلال، حتى خيلت

(1) سرح العيون، ص 23.

(2) خلّتي: صداقي ومودتي.

(3) السفارة: المني في الصلح.

(4) الهيولي: الصورة المعنوية التي يصب الجسم على مثالها، والمعنى: إن الإنسانية تجسّمت فيك بمعناها ومبناها.

أن يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه،⁽¹⁾ وأن امرأة العزيز رأتك فسلت عنه! وأن قارون أصاب بعض ما كنزت....، وكسرى حمل غاشيتك⁽²⁾، وقيصر رعى ماشيتك، والاسكندر قتل دارا⁽³⁾ في طاعتك.... وأن إياس⁽⁴⁾ بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك، وسحبان إنما تكلم بلسانك.... وأن الحجاج تقلد ولاية العراق بمجديك، وقُتبية⁽⁵⁾ فتح ما وراء النهر بسعدك، والمهلب⁽⁶⁾ أو هن شوكة الأزارقة بأيديك، وفرق ذات بينهم بكيدك.... وأن أفلاطون أورد على أرسططاليس ما نقل عنك... إلخ وهبها لم ثلاحظك بعين كليلة عن عيوبك، ملؤها حبيها، وحسن فيها من ثود، وكانت إنما حلتك مجلالك، ووسمتك بسيماك....، ولم تكن كاذبة فيما أثنت به عليك، فالمعدي تسمع به خير من أن تراه.

هجين القذال،⁽⁷⁾ أرعن السبال⁽⁸⁾، طويل العنق والعلاوة⁽⁹⁾، مفرط الحمق والغباوة، جافي الطبع، سيئ الجابة⁽¹⁰⁾ والسمع، بغيض الهيئة، سخيذ الذهاب والجئنة، ظاهر الوسواس، منتن الأنفس، كثير المعاييب، مشهور المثالب، كلامك تمتمة، وحديثك غمغمة، وبيانك فهفهة، وضحكك قهقهة ومشيك هرولة، وغناك⁽¹¹⁾ مسألة، ودينك زندقة، وعملك مخرقة⁽¹²⁾.

(1) حاسنك: باراك في الحسن، وغضضت منه: نقصت من قدره.

(2) الغاشية: غطاء السرج أو المظلة.

(3) دارا: ملك الفرس الذي حاربه الاسكندر الأكبر وقتله وضم مملكته إليه.

(4) كان إياس بن معاوية مشهوراً بحدة الذكاء وسداد الإجابة.

(5) هو قتيبة بن مسلم الباهلي، كان والياً على خراسان من قبل عبد الملك بن مروان.

(6) هو المهلب بن أبي صفرة الذي كان له شأن في محاربة الخوارج.

(7) هجين القذال: لئيم النسب.

(8) أرعن السبال: أحق الشارب.

(9) العلاوة: أعلى الرأس، والعرب يعدون طول الرأس والعنق من دلائل الحماقة.

(10) الجابة: الإجابة، وفي الأمثال: «أساء سمعاً فأساء جابة».

(11) غناك مسألة: أي من سؤال الناس واستجدائهم.

(12) مخرقة: اختلاق.

معان، لو قُسمنَ على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق⁽¹⁾

وأسلوب ابن زيدون في هذه الرسالة التي سخر فيها بابن عبدوس سخريّة لاذعة، يذكّرنا بأسلوب الجاحظ في رسالته الموسومة بـ التريّيع والتدوير التي سخر فيها وتهكم بأحد كتاب عصره، وهو أحمد بن عبد الوهاب.

وقد حشد ابن زيدون في رسالته معلومات وأخباراً تاريخية، وأمثالاً عربية وشواهد شعرية لعدد من الشعراء بدءاً بامرئ القيس وانتهاء بالمثنى، بحيث بدت نتاجاً مشرقياً يدور حول قصة أندلسية.

وأياً كان الأمر، فإن الرسالة تعد ثروة أدبية، وآية ذلك اهتمام النقاد والشارحين بها، فقد شرحها ابن ثباتة في كتابه الموسوم "بشرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون" تجدر الإشارة إلى أن ابن برد الأصغر كتب رسالتين أدبيتين، هما: "رسالة في النخلة" ورسالته الموسومة بـ "البديعة"، كان فيهما أسبق من ابن زيدون في تأثره بأسلوب الجاحظ التهكمي الساخر، وأسلوب سهل بن هارون في رسالته "البخلاء" التي صدر بها الجاحظ كتابه "البخلاء".

في رسالته الأولى في "النخلة" يعاتب ابن برد بخيلاً كنى عنه بأبي عبد الله، كان قد وعده بأن يهدي إليه قليلاً من جنى نخلته ثم أخل بوعده، وقد استمد فكرته من المثل العربي المعروف "مواعيد عرقوب" وقصة المثل معروفة.

وفي ما يلي فقر منها توضح تأثره بأسلوب الجاحظ التهكمي الساخر: (2)

«أما بعد: جعلك الله من المؤثرين على أنفسهم والموقّنين شُحّها، والمنجزين لمواعيدهم والمعطين صدقها. فقد علمت ما سلف لنا في العام الفارط من عتابك، ولبسنا شِكَّتَه من ملامك، لما كتمتنا صِراماً⁽³⁾ النخلة التي هي بأرضنا إحدى الغرائب، وفريدة العجائب، هرباً من أن نلزمك الإسهام في رطبها، وحرصاً على تمام لذة

(1) الرسالة كاملة في ديوان ابن زيدون: ص 634.

(2) الذخيرة، 2/1، ص 441.

(3) صرام النخلة، وقت قطع ثمارها.

الاستبداد بها، وقلت، وقد سألتك من جناها قليلا، ورجونا أن تنيلنا منها ولو فتيلًا: «لو علمت أن لكم به هذا الكلف، وإليه هذا النزاع، لأمسكته عليكم، وجعلت حكم جذاذه⁽¹⁾ إليكم، ولكنها إن شاء الله في العام الأنف غلتكم، عتاذ نفيس لكم، وذخر حبيس عليكم».

فأما نحن فرسمنا تلك العدة في سويداوات قلوبنا، ووكلنا بها حَفَظَةَ خواطرنا، وأما أنت فهَلَّتَ عليها التراب، وأسلمتها إلى يد البلى. حتى إذا أخذت النخلة زُخرفها، وأزَيْنت زينتها، وبلغت غايتها، وأشيع القمر صبغها، وأحكمت الشمس نُضجها، دببت إليها الضراء⁽²⁾ بَصْرَامِك، ومشيت نحوها الجهر بجوابك، على حين نام السمار، وغفلت الجارة والجار، وأبَّت⁽³⁾ بها إيابة الأسد بفريسته، وتحكمت فيها تحكمه في عنيزته!

ولما رأينا على ذلك طلائع الرُطْب في الأسواق، والجني من بكر النخيل على الأطباق، هَزَتْ جوانحنا ذكر العِدَّة، وقلقل أحشاءنا حذر الخيبة، فركضنا الهماليج⁽⁴⁾ إلى حرمتك، وجعلنا نشد طمعا في لقائك...».

وعلى هذا النحو يمضي ابن برد في تصويره الساخر، حتى يأتي على ذكر حديث الرسول ﷺ القائل: «نعمت العمة لكم النخلة» فيعلق عليه بقوله:

«والخطاب لجميع المسلمين. وأنت قد استوليت على عمة من عماتهم تستبد بخيرها دونهم، وتُمسك معروفها عنهم. ونحن رجال من بني أخيها أتينا نعتفيها، فإن أنت سوئتنا مع نفسك فيما تدرُّ به عليك، وتملأ منه يديك، وإلا نافرناك إلى السلطان، وألبنا عليك أبناء الزمان. ونستغفر الله ونسأله أن يُبدلنا من بخلك نوالا، وبمطلق إعجالاً».

(1) جذاذه بفتح الجيم: قطعه.

(2) دببت إليها الضراء: أي مشيت إليها مستخفيا فيما يوارى من الشجر مخاتلة ومكرا.

(3) أبَّت بها: عدت ورجعت بها.

(4) م. ن، ص 446.

وفي رسالة الثانية الموسومة "البديعة" يحدثنا عن تفضيل جلد الشاء على ما يفرش من الوطاء، وقد تأثر فيها بسهل بن هارون في رسالته "البخلاء"، التي تصمه بالبخل والتقتير في الإنفاق. ونقتطف فقرتين منها: ⁽¹⁾

«جُلّ ماله عبت، وفيه قلت وردّدت، وبه أبدأت وأعدت، من إشاري في الصيف والشتاء، أهب الشاء، ومُراوحي منها في البرد والحر، بين البطن والظهر. وأيُّ بساط منها أدل على التواضع وأعرب عن القناعة، وأدفاً في السبرة ⁽²⁾، وألين في المس، وأخف في الحمل، وأمكن للنقلة، وأوفق لمقدار الحاجة وأجدر بطول المتعة، وأبقى على حَدَث الدهر، وأغنى عن تكلف التبطين، ومراعاة أوقات الترقيع، والمحافظة على الطي والنشر؟» ⁽³⁾... إلخ

والجاحظ في رسالته على لسان سهل بن هارون يقول: «وعبتموني بخصف ⁽⁴⁾ النعال، وبتصدير ⁽⁵⁾ القميص، وحين زعمتُ أن المخصوفة أبقى وأوطأ وأوقى، وأنفى للكبر وأشبه بالنسك، وأنّ الترقيع من الحزم، وأنّ الاجتماع مع الحفظ. والتفرق مع التضييع... فترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر. وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكسبين، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين ⁽⁶⁾».

ومن قبيل الرسائل الإخوانية رسائل الاستغاثة التي كان يُوجِّهها الأندلسيون إلى إخوانهم ملوك المغرب وغير المغرب في العهود الأخيرة، لعل فيهم من يُصغي إلى

(1) الذخيرة، ص 446.

(2) السبرة: برد الصباح.

(3) انظر الرسالة كاملة في الذخيرة: 2 / 1 ص 446.

(4) خصف النعال: ترقيعها.

(5) تصدير القميص: تبطينه لتقويته.

(6) كتاب البخلاء للجاحظ: ص 24.

صرخهم فيمد لهم يد العون، لنهاضة عدو عقد العزم على استئصالهم جميعاً من الأندلس.

ومن أمثلة ذلك الرسالة التي كتبها لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه الغني بالله بن الأحمر إلى سلطان مصر المنصور أحمد بن قلاوون، فيقول:

«كما صُعُر سهيل وذؤيب وهذيل، وقيل العذيق والجذيل، وكما صغروا العذيب، وقال عمر (رض) أخاف على هذا الغريب، وكقولهم يا سُميراء، وقوله عليه السلام لعائشة يا حُميراء... أقام عندنا زماناً، لا يتألف إلا رنداً وباناً، ولا يلتقط إلا عَنَاباً أو سيسباناً، يتدرّج في البساتين، يتطلب المنتقى والتين».

وإذا كان من رأي من حول هذه الرسائل فإنها متأثرة بروح الفكاهة التي بدت عند كتاب مشاركة مثل بديع الزمان في مقاماته وأبي إسحاق الصابي في مرجه. فلماذا نظرنا في مضمونها فإننا نجدتها تقوم على التلاعب اللفظي وما فيها من إيماء واستعارات، كما يحرص أصحابها على حشد المعلومات التاريخية والعلمية واللغوية.

ب. الزروريات

وهي لون من الرسائل الأدبية الفكاهية، وأول من كتبها الوزير أبو الحسين بن سراج، إذ نراه يخاطب بعض أهل العصر برسالة يشفع فيها لرجل يدعى الزرزي، يقول في فقرة منها: ⁽¹⁾

كُتِبْتُ أحرفي والودُ صَقِيلُ الودائل، مطلول الخمائل، جميل البكور والأصائل، والله تعالى يزيد أزهاره وضوحاً، وأطيّاره صدوحاً، وظباءه تيامناً وسنوحاً... يصل به، وصل الله علوك، وكبتَ عدوك، شخص من الطيور يعرف بالزرزي، أقام لدينا أيام التحسير، وزمان، التبليغ بالشكير، فلما وافى ريشه، ونبت بأفراخه عشوشه، أزمع عنا قطوعاً، وعلى ذلك الأفق اللدن تدلياً ووقوعاً، رجاء أن يلقي في تلك البساتين معمرًا، وعلى تلك الغصون حبا وثمرًا».

(1) الذخيرة، 2/1، ص 179.

ولا شك في أن هذا النوع من الرسائل يقوم على التلاعب اللفظي، يُبرز فيه الكاتب براعة في التفكه والسخرية، فضلاً عن أنه استخدم فيه مفردات تتصل بالطيور من تحسير وشكير وريش وفرخ وعش وغيرها.

ويبدو أن هذا اللون الطريف من الرسائل أعجب بعض الأدباء، فقد عارض أبو القاسم بن الجحد هذه الرسالة برسالة أقامها على التلاعب اللفظي، ومنها: ⁽¹⁾

«لئن سُمِّيَ زرزير، لقد صُعِّرَ للتكبير، كما قال خُريقيص، ودويهيّة وهي تلتهم الأرواح والمهج. ومعلوم أنّ هذا الطائر الصافر يفوق جميع الطيور في فهم التلقين، وحُسن اليقين، فإذا علم الكلام لهج بالتسبيح، ولم ينطلق لسانه بالقبيح ثم تراه يقوم كالنصيح، ويدعو إلى الخير بلسان فصيح، فمن أحبّ الاتعاظ لقي منه قس إباد بعكاظ، أو مال إلى سماع البسيط والشديد، وجدّ عنده نخب الموصللي للرشيد».

وله من هذا الطراز رسالتان أخريان، واحدة في العتاب، والثانية في معنى الشفاعة، وقد عارضهما الكاتب أبو بكر عبد العزيز بن سعيد البطليوسي ومن ذلك قوله: ⁽²⁾

"ويصل به، وصل الله سعودك، من الطّير نطّاق، من غير ذوات الأطواق، يمس من المسك في حبرة أو طاق، صُعّروه على جهة التعجب والإشفاق.

ج. رسائل في وصف الرحلات

وتلقانا رسائل أدبية ينتقل فيها الأديب من مدينة إلى مدينة، وتتمثل في رسائل أبي عبد الله محمد بن مسلم الموسومة "بِ طي المراحل" والتي خاطب بها ابن أغلب صاحب ميورقة.

فيسافر إلى عدة مدن، يطرق أبوابها واحدة بعد أخرى، ويُصوّر ما لاقاه من وعثاء السفر خلال رحلاته التي دامت سنوات عدّة، فنسمعه يقول: ⁽³⁾

(1) الذخيرة، ص 140.

(2) م. ن، 1/2 ص 290.

(3) م. ن، 1/3، ص 141.

فُجئنا فلانة (يكني عن إحدى المدن) وقد سُدَّ بابُها، ونام بوابها، والسييل قد طمى، يحمل غثاء أحوى، فلم نشكَّ في أن نفوسنا ذائقة الموت، حتى إذا بلغت النفس التراق، وقيل من راق، وأشعر صاحب الحصن بمكاني، وقصَّ عليه شأني، فأمر بفتح باب المدينة وآواني إلى دار حصينة، وتقدَّم بالضرام فأجَّج، وبالطعام فرَّوج، وبالمدام فشبَّ وأسرج، وقلنا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وكفانا الحنَّ.

ثم يمضي في رحلته إلى مدينة المريّة، فيلقى المعتصم بن صمادح، ويرحب به ويعرض عليه أن ينزل عنده، فيعلمه أنه سيمضي. ونراه يصف الطبيعة الأندلسية الخلابة، ويصور بعض مظاهر الترف الاجتماعي عند من ينزل بهم من الموسرين، إذ يُطاف عليهم بصحاف من فضة وجفان كالجواب أترعت من كل أدب، ويتوضأون بطساس من التبر وأباريق رُصِّعت بالدر. وكذلك يصف مجالس الغناء والشراب.

ولم تقتصر الرحلات على الأندلس وحدها وإنما امتدت إلى بلدان أخرى وأرض الحرمين على وجه الخصوص. فلابن أبي الخصال رسالتان بعث بهما إلى الرسول ﷺ، يتشوق في الأولى إلى زيارته، وفي الثانية يُحمِّل الحجاج ثلاث قصائد في مدحه.

وهكذا نجد ابن مسلم يسير في ركب بديع الزمان وينسج على منواله، ويشبهه في دقة الوصف والتزام السجع. ونجده أيضاً يدخل فيها كثيراً من الألفاظ والتعبيرات القرآنية، نذكر منها: غثاء أحوى، ذائقة الموت، بلغت النفس التراق، وقيل من راق وغيرها.

المبحث الرابع

المقامات الأندلسية

المقامة في أصل وضعها اللغوي تعني « المجلس » إذ يقال للجماعة من الناس يجتمعون في مجلس «مقامة». ومقامات الناس مجالسهم، وهو معنى ورد في قول لبيد بن ربيعة، وذلك إذ يقول:

ومقامة غلب الرقاب كأنهم جنٌ لدى باب الحصير قيام⁽¹⁾
وورد في قول زهير بن أبي سلمى بمعنى «السادة»:

وفيهـم مقامات حسان وجوههم وأنديةً يتابها القول والفعلُ
ولم يلبث أن تطور هذا المفهوم فأصبحت المقامة تعني الأحداث؛ فالقلقشندي يقول: «وسُميت الأحداث من الكلام مقامة، كأنها تُذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة من الناس لسماعها⁽²⁾»

وإذا تجاوزنا المعنى اللغوي لكلمة مقامة وتطورها الدلالي (المجلس _ الناس _ الحديث في المجلس) إلى المعنى الاصطلاحي، فيمكن تعريفها بأنها «قصة قصيرة الحجم تُكتب بلغة موسقة (إيقاعية)، وموضوعها يدور حول حدث واحد متخيل، وشخصياتها الثانوية محدودة، ويؤدي دور البطولة فيها بطل محتال، جواب، أفاق ويشاركه راوية يتعرف إليه إثر كل مغامرة، ويرويها عنه. وتقع أحداثها في حدود معينة أو منطقة واحدة في زمن لا يتجاوز مقدار يوم وليلة⁽³⁾».

وقد ظهر هذا الفن النثري في المشرق على يد بديع الزمان الهمذاني (-398هـ/1008م) ثم هذا الحريري (-516هـ/1122م) حذوه فيه، ومن ثم انتقل إلى الأندلس عن طريق من رحلوا منها إلى الشرق في ذلك الوقت طلباً

(1) غلب الرقاب: غلاظ الرقاب والأعناق، والحصير هنا: الملك.

(2) صبح الأعشى، 14/117.

(3) محمد رجب النجار، النثر العربي القديم، ص282.

للعلم، فقد درسوا هذا اللون الجديد من الأدب في جملة ما درسوه من العلوم والفنون، ثم عادوا إلى بلادهم محدّثين به ناشرين إياه في مواطنهم⁽¹⁾.

ويروي ابن بسام أنه في أيام المعتضد بن عباد (434_461هـ) وضع ابن شرف القيرواني مقامات «عارض بها البديع في باب، وصبّ فيها على قلبه»⁽²⁾. وبذلك انتشرت مقامات بديع الزمان بوجه خاص إبان عصر ملوك الطوائف، في حين انتشرت مقامات الحريري في أوائل عهد المرابطين بالأندلس، ويروي ابن الأبار أن كثيراً من الأندلسيين سمعوا من الحريري مقاماته الخمسين في بستانه ببغداد⁽³⁾.

ثم عادوا إلى بلادهم حيث حدّثوا عنه، ومن هؤلاء الحسن بن علي البطليوسي، وأبو الحجاج يوسف القضاعي، وكان لأبي القاسم بن جهور أثر كبير في نشرها بالأندلس، مما أدى إلى اهتمام الأندلسيين بهذه المقامات وشروحها التي حصلوا عليها من المشرق، ومن الذين شرحوها في الأندلس، محمد بن أحمد المالقي الأصل (-617هـ) وعبد الله بن ميمون الغرناطي (-567هـ)⁽⁴⁾.

أما ما أنتجه الأندلسيون من مقامات فيقع في اتجاهين:

1. اتجاه تقليدي يقتفي كتابه أثر بديع الزمان أو الحريري في معظم رسوم مقاماته، وهؤلاء هم القلة.
2. اتجاه جديد يخرج بالمقامة إلى صورة أشبه بالرسالة، وتدور حول وصف المدن أو الرحلات، أو النقد الأدبي، أو موضوعات شعرية كالغزل والمدح والهجاء والمجون. كذلك لم يتفرغ هؤلاء الكتاب لهذا الفن، إلا السرقسطي الذي أنشأ خمسين مقامة عارض بها مقامات الحريري الخمسين، أما من عداه فكان همّ الواحد أن يُنشئ مقامة أو مقامتين أو بضع مقامات.

(1) انظر مقالة الدكتور العبادي بعنوان «مقامة العيد» بمجلة المعهد المصري بمديرد: ص 159 سنة 1944 نقلاً عن عبد العزيز عتيق، الأدب الأندلسي، ص 479.

(2) الذخيرة، 1/4، ص 154.

(3) م.ن، 2/1 ص 117.

(4) انظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ص، 244.

وسيتضح ذلك في عرضنا لأهم المقامات التي تنتسب إلى عصر الطوائف والمرابطين:

1. مقامة أبي عبد الله محمد بن شرف القيرواني

وهي مقامة عارض بها البديع في مقامته «القرىضية» وموضوعها النقد الأدبي، فيذكر في مستهلها أنه ضمّه وشخصاً يُدعى «أبا الريان» مجلساً ذكر فيه الشعراء ومنازلهم في الجاهلية والإسلام والعصر العباسي، ومنهم بعض شعراء الأندلس. فقال أبو الريان: «لقد سميت المشاهير، وأبقيت الكثير. فقال ابن شرف: بلى، ولكن ما عندك فيمن ذكرت؟»

عندئذ بدأ أبو الريان يبدي رأيه فيمن سمّاهم ابن شرف من الشعراء. وفي ما يلي ثلاثة نماذج من هذا النقد توضح طبيعته وأسلوبه:

قال أبو الريان في امرئ القيس: «الضليلُ مؤسس الأساس، وبنائه عليه الناس. كانوا يقولون «أسيلةُ الحذّ» حتى قال «أسيلةُ مجرى الدمع». وكانوا يقولون «تامةُ القامة، وطويلةُ القامة، وجِداءُ وتامةُ العنق» حتى قال «بعيدةُ مهوى القُرط».

وكانوا يقولون في الفرس السابق «يلحق الغزال والظليم» وشبّهه، حتى قال «قيدُ الأوابد». ولم يكن قبله من فطن لهذه الإشارات والاستعارات غيره فامثلوه بعده، وكانت الأشعار قبل سواذج، فبقيت هذه جُذُداً وتلك نواهج، وكل شعر بعد ما خلاها فغير رائق النسيج، وإن كان مستقيم النهج».

وقال في البحترى: «وأما البحترى: فلفظه ماءٌ ثَجَّاجٌ⁽¹⁾، وذُرٌّ رَجراج، ومعناه سراج وهّاج، على أهدى منهاج، يسبقه شعره. إلى ما يجيش به صدره، يُسرُّ مُراد، ولين قياد. إن شربته أرواك، وإن قَدَحْتَهُ أوراك. طبع لا تكلف يعييه، ولا العناد يثنيه، لا يملُّ كثيره، ولا يستكفُ غزيره، لم يَهفُ أيامُ الحُلُم، ولم يَصِفَ زمنُ الهرم».

وقال في ابن عبد ربه: «وأما ابن عبد ربه القرطبي: وإن بُعدت عَنَّا دياره، فقد صاقتنا أشعاره، ووقفنا على أشعار صَبوته الأنيقة، ومُكفَّرات توبته الصدوقة،

(1) ثَجَّاج : شديد الإنصباب.

ومدائحه المروانية، ومطاعنه في العباسية. وهو في كل ذلك فارس ممارس، وطاعن مُداعس⁽¹⁾، وأطلعنا في شعره على علم واسع، ومادة فهم مضيء ناصع. ومن تلك الجواهر نظم عقده، وتركه لمن تجمل بعده⁽²⁾.

2. مقامات عبد الرحمن بن فتوح

أوردها ابن بسام في ذخيرته بوصفها حديثاً من أحاديث ابن فتوح، ولم يسمها مقامة. وتشبه مقامة ابن شرف السابقة في قيامها على النقد الأدبي، إلا أن النقد فيها يدور حول شعراء أندلسيين، هم ابن برد وابن شهيد، وابن زيدون، وأبو بكر بن الطيني. وخلاصتها أن ابن فتوح كان يطوف بالمسجد الجامع بالمرية، في ليلة من رمضان (سنة 430هـ)، وهو يردد بيتاً من الشعر، فسمعه فتى حسن المنظر، فسلم عليه سلاماً ارتاحت له نفسه، واستحلفه إعادة ما قال فأعاده، فقال له أنت أخذته من قول العباس بن الأحنف:

وأحسن أيام الهوى يومك الذي ثرؤع بالهجران فيه وبالعتب

إذا لم يكن في الحب سُخط ولا رضاً فإين حلوات الرسائل والكتب؟

ثم سألته عن السبب الموجب لترديده البيت، فأخبره أن ذلك كان لفراق حبيب مولع بخلافه، فدعا له الفتى بقوله: «قلِّبَ الله لك قلبه، وجنَّبَكَ عَتْبَهُ» ثم ولَّى عنه «وقد غرس في كبده ثمرة وُدّه».

وإلى هنا يحكي ابن فتوح قائلاً: «فبتُ الليلة مستأنساً بخياله، جذلان بوصاله، حتى غرَّة الفجر.....، فلم ألبث أن سمعته يَنشدُ ويطلب منزلي، فقرع الباب وأذنت له فدخل، فرحبتُ به، وقمتُ إليه، وأقبلتُ عليه، فقال لي: يا ابن الكرام! إن هذا يومٌ قد بكى ماء غيمه، ونبض عرق بَرَقه، وخفق قلب رعده، واغرُورقتُ مقلّة أفقه، ونحن لا نجد الخمر، ففيمَ نقطع تأويبه⁽³⁾؟ فقلتُ؛ الرأيُ إلى سيدي أبقاه الله، فقال لي: كيف ذكرك لرجال مصرك، ووَقُوفُك على شعراء عصرك؟ قلت: خير ذكر.

(1) مداعس: طعان بتشديد العين.

(2) الذخيرة، 1/4 ص 154.

(3) نقطع تأويبه: نغضي وقته.

فقال: مَنْ أَعَذَّبَهُمْ لَفْظاً، وَأَرْجَحَهُمْ زِناً؟ قلت: الرقيقُ حاشية الظرف، الأنيق ديباجة اللطف، أبو حفص بن بُرد. قال: فمن أقواهم استعارات، وأصحهم تشبيهات؟ قلت: البحر العجاج، والسراج الوهاج، أبو عامر بن شهيد. قال: فَمَنْ أذكَّرهَم للأشعار، وأنظمهم للأخبار؟ قلت: أبو الوليد بن زيدون. قال: فمن أكلفهم بالبدیع، وأشغفهم بالتقسيم والتتبع⁽¹⁾؟ قلت: «الراتعُ في روضة الحسب، المستطيل بمرَّجِه الأدب، أبو بكر يحيى بن ابراهيم الطُّيْنِي، فأنشد:

وحاطَ قُصّاً في عكاظٍ مُحاوراً على البعد سَجَبانَ فأفحمَه قُصٌّ⁽²⁾

3. مقامة أبي حفص عمر بن الشهيد

أورد ابن بسام بعض فصولها وحذف بعضها الآخر لطولها. وتتألف من مقدمة عن صناعة الكتابة، بيّن فيها قيمتها وفائدتها الخاصة والعامة، ويقول: «إن صناعة الكتابة محنة من المحن، ومهنة من المهن، والسعيد من خدمت دولة إقباله، والشقي من كانت رأس ماله، والعامل من إذا أخرجها من مثالبه، لم يُدخلها في مناقبه، لا سيما وقد تناولها يدُ كثيرٍ من السُّوق..... وباعوها بيع الخلق⁽³⁾»

ثم يدخل في وصف رحلة قام بها، فيذكر أنه مال إلى منزل بدوي ذي هيئة وزيّ، فهشّ وبشّ، وكنس منزله ورشّ، وصيّر عياله ناحية، وجمع أطفاله في زاوية. ويصف البيت الذي نزل فيه ساخراً، فيردّ عليه البدوي بقوله⁽⁴⁾:

يا أخِي نحن على أُنّا نتاج بدويّ
سادة ناسٍ لنا في هذه الدنيا دويّ
عندنا إن جاء ضيفٌ، شبع جَمٌ وريّ

(1) التتبع والاستتباع: هو أن يذكر الناظم أو النائر معنى مدح أو ذم أو غرض من أغراض الشعر، فيستتبع معنى آخر من جنسه يقتضي زيادة في وصف ذلك المعنى.

(2) الذخيرة: 2/1، ص 286.

(3) انظر: م. ن، 2/1، ص 184.

(4) م. ن.

ثم قام من مكانه، ودعا بصبياناه، وأغراهم بديك له هرم ليذبحه في طاعة الكرم. وهنا وقف الديك خطيباً وذكرهم بفضائله وأنه يوقظهم بالأسحار ويؤذن لهم بالليل، واستثار فيهم الحمية لكي يتورعوا عن ذبحه، فرقت له أنفس القوم ولاموا صاحب المنزل على نكران الجميل، فأبى إلا ذبحه، ليشبع الضيفان من لحمه. ويعود الديك إلى الكلام، فيثني على البدوي سوى أنه يريد ذبحه، وغمزكرمه حين قارن بين الديوك الهرمة التي لا يصلح لحمها طعاماً، والفروج الذي يصلح لحمه للأكلين.

وإذا أنعمنا النظر في هذه المقامة وجدنا أنها تخرج عن نسق المقامة المعروفة، إلا إنها تتسم بالسرد الجميل، مع التزامها بالسجع والتفنن في الصناعة اللفظية.

4. مقامة أبي محمد بن مالك القرطبي

أورد ابن بسام في ذخيرته فصولاً من هذه المقامة التي تبلغ خمسة عشر فصلاً، وكان أبو محمد يقطن بالمرية في ظل ابن صُمادح، على فقر بالغ، فقد زاره بعض أصحابه فلم يجدوا عنده غير قلة فحار وقدح للماء، ونحو ثمانية أرطال دقيق في مخلاة⁽¹⁾.

ويبدو أنه كتبها عقب عودة ابن صُمادح منتصراً، وآية ذلك أنه افتتحها بتهنئة دولته بهذا النصر، وإعلان البشري بذلك « الفتح الذي تفتحت له أزهير النجاح⁽²⁾ » ثم يمضي في وصف يوم من أيام المعركة، أو الاستعداد لها « لا تسمع إلا همهمة وصهيل، وقعقة وصليل، فخلت الأرض تميل ميلاً، والجبال تكون كثيراً مهيلاً، لا تسمع إلا أصوات تلك الغماغم، وضوضاء تلك الهماهم من وهواه صهيل ودرداب طبول، أثير ليوث بأجام أم قعقة رعد في ازدحام غمام⁽³⁾ ».

ونراه يمعن في مدحه، فيصفه بمختلف النعوت، من سماحة، وحلم، وندى، وكمال، وصفاء خلق، ووفاء بوعد، ووقار، وطهر، وطيب أصل، ونقاء عرض،

(1) انظر: الذخيرة، 2/1، ص 246.

(2) م. ن.

(3) م. ن، 2/1، ص 246.

وصواب رأي، وعذوبة لفظ، وبأنه هو «ثالث القمرين، وسراج الخافقين، وعماد الثقيلين»، شافعاً كل ذلك بالدعاء.

ثم يشكو حاله وكيف غادر زوجه وأولاده وهم في وضع بائس، ويعتذر عن عدم خروجه في الحرب معه بقوله: «ولولا أفرخ كزغب القطا، يدبّون في نائله ديبب الكرى، فيستشفّون غلالتي، ويستزفون بلالتي لامتطيت من جدواه السابح اليعبوب، وتقلّدت من نداء الصارم الرّسوب»

فهذه المقامة أشبه ماتكون بالرسالة؛ لخلوّها من سمات المقامة المعروفة، وهي تقوم على حشد الغريب، وحلّ الأبيات الشعرية، ومعانيها مُستلّة من الشعراء والكتاب السابقين، وقد فطن ابن بسام لذلك بقوله: «مدّ ابن مالك في رسالته هذه أطناب الإطناب، وشنّ الغارة فيها على عدّة شعراء وكُتّاب، من جاهلين ومخضرمين، ومحدثين ومعاصرين، ولو ذكرت من أين استلب واختطف، جميع ما وصف، وانصرف إلى كل أحد كلامه: نثره ونظامه، لحصل هو ساكتاً، ووقف باهتاً⁽¹⁾».

5. المقامات اللزومية للسرقسطي

هي خمسون مقامة كتبها محمد بن يوسف التيمي السرقسطي (538هـ)، حاكي فيها مقامات الحريري الخمسين، من حيث التركيز على الصناعة اللفظية، إلا أنه سمّاها بأسماء مختلفة، فالسابعة اسمها «البحرية»، وسمى بعضها بنوع السجع فيها، فواحدة سماها «المثلثة»، لأنها بُنيت على ثلاث سجعيات، وأخرى سماها «المرصعة» لتقابل عبارتها في سجعيتين، في حين أطلق على بعضها أسماء مختلفة كالحمقاء، والذب، والحمامة، والعنقاوية، والأسدية. ولزم في نثرها المسجوع ما لا يلزم، وهي طريقة أبي العلاء في لزومياته.

وتقوم مقاماته على شخصيتين رئيسيتين هما: السائب بن تمام والشيخ أبو حبيب وهو رجل سدوسي أصله من عُمان، وقد يرد في بعض المقامات شخص ثالث اسمه «المنذر بن حمام» يقوم بدور الراوي، كما يتدخل في قصة المقامة أحياناً فتیان هما ابنا الشيخ السدوسي - أو أحدهما - فالأول منهما حبيب والثاني غريب.

(1) الذخيرة، 2/1، ص 257.

وشخصية المكدي في مقاماته لا تختلف عن التي نجدها في مقامات بديع الزمان و الحريري، إلا أنه غيّر في الحيل والأساليب. وتُصوّر بعض مقاماته البيئة البحرية، ففي المقامة السابعة وهي « البحرية » ومكانها مرفأ « الشحر »، يخطب في الناس ويهول عليهم السفر في البحر ، بقوله: «وما الذي حملكم على ركوب هذا العجاج، وخرق هذا الماء الثجاج، ولكم في البر منفسح ومجال، ودونكم من هوله أوحال وأوجال، كأنكم قد ملكتم عنانه، وسلكتم نينانه. هل سُدّت عليكم المسالك أو طويت دونكم الممالك.

وكذلك ينقد العيوب الاجتماعية في مقامتين هما: مقامة «الدب» وفيها يصوّر الشيخ أبا حبيب يتكسّب من ترقيص دُب له، والناس مجتمعون من حوله. والمقامة التاسعة والأربعون وفيها يصوره وهو يتحل مهنة الطب والعرافة معاً؛ فهو يداوي فتى معه يُظهر المرض، وشيقه مائل والزبد من فمه سائل، ويقول مخاطباً الجن: «يا مارد، سهمك صار، يا مريد ماذا تريد، ما أطعاك ما أعصاك، ما أبعدك عن الخير وأقصاك، اخرج يا واغل، فإنك شاغل، أبعد يا خاتل، فإنك قاتل».

وتكثر أسماء البلدان في مقاماته وتتعدّد، فمن نواحي الجزيرة العربية يذكر اليمن وعدن والشحر وظفار واليمامة والبحرين وغيرها، ومن نواحي العراق وإيران يذكر مدينة السلام وسنجان وحرّان والأنبار والرّقة وواسط والزاب والأهواز وأصبهان ومرو والرّي و صُول، ومن نواحي مصر والشام يذكر الإسكندرية ودمياط وحلب وفلسطين. ومن نواحي المغرب والأندلس يذكر القيروان وطنجة وطريف. وقد يخطيء في تصور بعض هذه الأماكن، وقد تنقصه الدقة في وصفها⁽¹⁾.

6. مقامة لسان الدين بن الخطيب

للوزير لسان الدين بن الخطيب (776هـ) مقامة في السياسة، وهي مقامة طويلة. تبلغ خمس عشرة صفحة⁽²⁾، يذكر أنه أملاها في ليلة واحدة.

(1) انظر: إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين) ص 255.

(2) انظر: نفع الطيب، 9/ 134_149.

والشخصيتان الرئيستان فيها هما: الخليفة هارون الرشيد، وحكيم فارسيّ الأصل عربيّ اللسان، تمثل الأولى رجل الدولة والثانية تمثل الحكمة والتجربة، ومن ثمّ فهي تدور حول الإصلاح السياسي، وقد اتسمت بالإثارة والتشويق، ويستهلها بمقدمة يقول فيها:

«سهر الرشيد ليلةً، وقد مال في هجر النبيذ ميله، وجهّد ندماءؤه في جلب راحته، والمالم النوم بساحته، فشحت عهادهم⁽¹⁾، ولم يُغنِ اجتهادهم، فقال: اذهبوا إلى طرق سمّاها ورسمها، وأمّهاتٍ قسمها، فمن عثرتم عليه من طارقٍ ليل، أو غُثاءٍ سيل⁽²⁾، أو صاحب ذيل، فبلغوه، والأمنة⁽³⁾ سوغوه، واستدعوه، ولا تدعوه.

فطاروا عجالى⁽⁴⁾، وتفرّقوا ركبناً⁽⁵⁾ ورجالا⁽⁶⁾، فلم يكن إلّا ارتدادُ طرف أو فواق⁽⁷⁾ حرّف، وأتوا بالغنيمة التي اكتسحوها، والبضاعة التي ربحوها، يتوسّطهم الأشعث الأغبر، واللّج⁽⁸⁾ الذي لا يُعبر، شيخٌ طويل القامة، ظاهر الاستقامة،.... فلمّا مثّل سلّم، وما نبس⁽⁹⁾ بعدها ولا تكلم.

فأشار إليه الملك فقعد، بعد أن انشمر⁽¹⁰⁾ وابتعد وجلس فما استرق النظر ولا اختلس،.... فابتدره الرشيد سائلاً، وانحرف إليه مائلاً، وقال: ممن الرجل؟ فقال: فارسيّ الأصل، أعجميّ الجنس عربيّ الفصل، قال: بلدك وأهلك وولدك؟ قال: أما الولد فولد الديوان، وأما البلد فمدينة الإيوان، وقال: النحلة، وما أعملت إليه

(1) العهاد في الأصل: المطر، وشحت: بخلت ولم تنزل، والعبارة مجاز عن أنهم لم يبلغوا ما أرادوه.

(2) غثاء السيل: عبارة عن أراذل الناس وسقطهم بفتح السين والقاف.

(3) الأمنة: الأمن.

(4) عجالى: جمع عجلان، وهو السريع.

(5) ركبناً: جمع راكب.

(6) رجال هنا: جمع راجل، الماشي على رجله.

(7) الفواق: ما بين الحلبتين من الوقت، والحرف بفتح الحاء وسكون الراء: الناقه.

(8) اللّج: البحر.

(9) نبس: تفوّه بتشديد الواو، أو نطق.

(10) انشمر: تهيأ للأمر.

الرحلة؟ قال: أما الرحلة فالاعتبار، وأما التُّحلة فالأُمور الكبار، قال: فُتُك الذي اشتمل عليه دُتُك؟ فقال: الحكمة فُتِي الذي جعلته أثيراً، وأضجعتُ فيه فِرَاشاً وثِيراً، وسبحان الذي يقول « وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً » وما سوى ذلك فُتَبِع، ولي فيه مُصْطافٌ ومُرتَبِع.

قال: فتعاضد⁽¹⁾ جَذَلُ الرشيد وتوفّر، وأغشى⁽²⁾ وجهه قطعةً من الصبح إذا أسفر، وقال: ما رأيت كالليلة أجمع لأمل شارد، وأنعم بمؤانسة واردا! يا هذه إنني سائلك، ولن تخيبَ بعدُ وسائلك، فأخبرني ما عندك في هذا الأمر الذي بُلينا بحمل أعبائه، ومُنينا بمراوضة إباطه⁽³⁾.

فقال: هذا الأمر قِلادةٌ ثَقِيلَة، ومن خُطّة العجز مُسْتَقِيلَة، ومفتقرةٌ لِسَعَة الذَّرَاع⁽⁴⁾، ورَبَط السياسة المدنيّة بالشرع، يُفسده الحكمُ في غير محلّه، ويكون ذريعةً إلى حلّه، ويُصلحه مُقابلةُ الشكل بشكله، ومَنْ لم يكن سَبْعاً أَكْلاً تَدَاعَت السَّبَاع لأكله!

فقال الملك: أَجملتَ ففَصِّل، وَبَرَيْتَ فنصِّل، وَكَلِمَتَ فأوصل، وانثر الحبَّ لمن يُحوصل، واقسيم السياسة فنونا، واجعل لكل لقبٍ قانونا، وابدأ بالرعيّة، وشروطها المرعيّة.

ومن ثم انتقل الحكيم إلى الحديث عن السياسة، فبيّن الشروط التي تتوافر في الرعيّة، وصفات الوزير الصالح، وأحوال الجند وتعويدهم على الطاعة، وتوفير أرزاقهم، وأحوال الولاية والعمال ومواصفاتهم وأهمها الكفاية والأمانة.

وأحاطنا علماً بآداب الخليفة وصفاته، فأوصاه بالعدل وحثّره من مغبة الغضب، وأوصاه بصيانة المال، وحَبَّب إليه العلماء، وحثّته عن عمارة البلدان.....

(1) تعاضد، هنا: ظهر وبان.

(2) أغشى: غطى بتشديد الطاء.

(3) منينا بمراوضة إباطه: أي دفعنا إلى تذليل صعبه وتيسير مشقاته.

(4) الذرع في الأصل: الطاقة، وسعة الذرع هنا: يراد بها سعة الخلق بضم الخاء والام على المثل.

وختم مقامته بخاتمة طريفة يقول فيها:

« ثم لما أرى - الحكيم - الليل قد كاد ينتصف، وعموده يريد أن ينقصف،
ومجال الوصايا أكثر مما يصف، قال: يا أمير المؤمنين، بحر السياسة زاهر، وعمر المتمتع
يناديك مستأخر⁽¹⁾، فإذا أذنت في فن من فنون الأنس يجذب بالمقاد إلى راحة الرقاد،
ويعتق النفس بقدرة ذي الجلال، من ملكة الكلال⁽²⁾ فقال: أما والله وقد استحسنا ما
سردت، فشأنك وما أردت.

فاستدعى عوداً فأصلحه حتى حمده، وأبعد في اختباره أمدّه، ثم حرك بمه،
وأطال الجسّ ثمة، ثم تغنى بصوت يستدعي الإنصات، ويصدع الحصة⁽³⁾، ويستفز
الحليم عن وقاره، ويستوقف الطير ورزق بني في منقاره، ثم قال:
صاح ما أعطر القبول بئمه أثراها أطالت اللبث ثمة⁽⁴⁾
هي دار الهوى منى النفس فيها أبد الدهر والأمانى جمّة⁽⁵⁾

ثم أحال اللحن إلى لون التنويم، فأخذ كل في النعاس والتهويم، فخط
عيون القوم، بخيوط النوم،، ثم انصرف، فما علم به أحد ولا عرف! ولما أفاق
الرشيد جد في طلبه، فلم يعلم بمنقلبه، فأسف للفراق، وأمر بتخليد حكمه في بطون
الأوراق، فهي إلى اليوم تثلى وثقل، وتجلّى القلوب بها وتصفّل، والحمد لله رب
العالمين».

ولا شك في أن هذه المقامة تقوم على طرح سياسي إصلاحي يُذكرنا ببرنامج
ابن المقفع النهضوي الذي طوّع فيه الأدب للسياسة في أوائل العصر العباسي. مما
يؤكد مدى عمق الفكر العربي في أدبنا العربي.

(1) مستأخر: أصلها مستأخر وسهلت الهزمة.

(2) الكلال: التعب والإعياء.

(3) الحصة، هنا: القلب.

(4) اللبث: الإقامة، وثمة: أي هناك.

(5) جمّة: كثيرة.

وخلاصة القول فإن ما أنتجه الأندلسيون من مقامات لا يرقى إلى المستوى الفني الرفيع الذي نجده عند البديع أو الحريري، ولم يُفردوا لها كتباً جامعة، وإنما اكتفى أصحاب المقامات الأندلسية بإنشاء مقامة واحدة أو اثنتين أو بضع مقامات إلا السرقسطي صاحب المقامات الخمسين التي عارض بها مقامات الحريري «كما أن كثيراً من المقامات الأندلسية أصبح وصفاً للرحلة والتنقل داخل بلاد الأندلس، وفي هذا أيضاً شاركت الرسالة⁽¹⁾».

(1) إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، ص 247.

المبحث الخامس

رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد

وهي رسالة كتبها أبو عامر بن شهيد الشاعر الكاتب الأندلسي بعنوان «التوابع والزوابع»، وقد ضاع أكثرها، ولم يصلنا منها سوى مقتطفات أوردها ابن بسام في الذخيرة.

وقد كتبها ردا على معاصريه من الأدباء والنقاد الذين لم يُصفوه، ومنهم أبو القاسم الإفليحي، وهذاه خياله إلى كتابة هذه القصة الخيالية، ملتصقا بالتقدير عند الأقدمين من الشعراء والكتاب بوصفهم أعلى مكانة من معاصريه، وبوصفه شاعرا وكاتباً. ونراه في مستهلها يخاطب صديقه أبا بكر بن حزم الذي أشاد ببلاغته: « كيف أوتي الحكم صبيا، وهزّ بجذع الكلام فاسأقط عليه رُطباً جَنِيّاً»، ويذكر أنه صاحب موهبة، وسمى هذه الموهبة جَنِيّاً تابعاً له كان يُلهمه ويثير القول على لسانه، ويقف إلى جانبه إذا أرتج عليه حيناً آخر.

بنية القصة ومسارها

تتألف قصة « التوابع والزوابع» من ثلاثة أقسام :

القسم الأول

يحمله صاحبه «زُهير بن نُمير» إلى أرض الجنّ حيث التقى بتوابع الشعراء المشهورين والكتاب المبرزين، كما التقى بشياطين بعض خصومه من معاصريه.

وقد لقي من الجاهليين شياطين امرئ القيس، وطرفة وقيس بن الخطيم أو تابعيهم. أما امرؤ القيس - أو تابعه - فظهر على فرس شقراء كأنها تلتهب، وأما تابع طرفة فإنه كان عند منظر طبيعي متميز. ونسمعه يحدثنا عن هذا اللقاء ، بقوله:

«تذاكرت يوما مع زهير بن نُمير أخبار الخطباء والشعراء وما كان يألّفهم من التوابع والزوابع وقلت: هل حيلة له في لقاء من اتفق منهم؟ قال: حتى استأذن شيخنا. وطار عني ثم انصرف كلمح البصر، وقد أذن له، فقال: حُلّ على متن الجواد.

فصرنا عليه وصار بنا كالطائر يجتاب الجو فالجو، ويقطع الدو فالدو⁽¹⁾ حتى التمحت أرضنا لا كأرضنا، وشارفت جواً لا كجونا، متفرع الشجر، عطر الزهر، فقال لي: حَلَلْتَ أرض الجن ، أبا عامر، فبمن تريد أن نبدا؟ قلت! الخطباء أولى بالتقديم، لكنني إلى الشعراء أشوق. قال: فمن تريد منهم؟ قلت: صاحب امرئ القيس. فأمال العنان إلى وادٍ من الأودية ذي دوح تتكسر أشجاره، وتترنم أطياره، فصاح يا عتبية بن نوفل، بسقط اللوى فحومل، ويوم دارة جلجل، إلا ما عرضت علينا وجهك، وأنشدتنا من شعرك، وسمعت من الإنس، وعرفتنا كيف إجازتك له. فظهر لنا فارس على فرس شقراء كأنها تلتهب، فقال: حياك الله يا زهير، وحيا صاحبك، أهذا فتاهم؟ قلت: هو هذا، وأي جمرة يا عتبة، فقال لي: أنشد، فقلت: السيد أولى بالإنشاد، فتطامح طرفه، واهتز عطفه، وقبض عنان الشقراء، وضربها بالسوط، فسمت تحضر طولاً عنا، وكرّ، فاستقبلنا بالصعدة⁽²⁾ هارزاً لها، ثم ركزها وجعل ينشد:

سما لك شوقٌ بعد ما كان أقصراً⁽³⁾...

حتى أكملها ثم قال لي: أنشد فهممت بالحیصة⁽⁴⁾، ثم اشتدت قوى نفسي وأنشدت:

شَجْتُهُ مَغَانٍ مِنْ سُلَيْمَى وَأَدُورُ⁽⁵⁾.

حتى انتهيت إلى قولي:

ومن قُبّةٍ لا يدركُ الطرفُ رأسَهَا تزلُّ بها ریحُ الصَّبَا فتَحَدَّرُ
تكلّفْتُها واللیلُ قد جاشَ بحرُهُ وقد جعلْتُ أُمَواجَهُ تُتَكَسَّرُ

(1) الدو : الفلاة.

(2) الصعدة: القناة المستوية.

(3) هي قصيدة لامرئ القيس قالها وهو في طريقه إلى بلاد الروم.

(4) الحیصة: الهرب.

(5) المغاني: المنازل والأدور جمع دار.

ومن تحت حضني أبيض ذو سفاسق⁽¹⁾ وفي الكف من عسالة الخط أسمر

هما صاحباي من لدن كنت يافعا مقيلا من جد الفتى حين يعثر
فذا جدول في الغمد تُسقى به المنى وذا غصن في الكف يُجنى فيثمر

فلما انتهيت، تأملني عتبة ثم قال: «أذهب فقد أجزتك» وغاب عنا.

ويمضي هو وصاحبه إلى لقاء عتاب بن حبناء شيطان أبي تمام، غير أبهين بالوقوف على واحد من الشعراء الإسلاميين (صدر الإسلام والدولة الأموية)، وتكون ثمرة اللقاء وصية أوصى بها أبا عامر وقد أنشده شعره: «فلذا دعتك نفسك إلى القول فلا تكذّ قريحتك فإذا أكملت فجمام ثلاثة لا أقل ونقح بعد ذلك» ومن العجيب أن تصدر مثل هذه الوصية عن أبي تمام الذي عُرف بكذّ القريحة وإجهاد نفسه في صنّعه شعره إجهاداً شديداً؛ ليلبغ بالفكرة الشعرية مداها. ويحكي ابن شهيد هذا اللقاء بقوله:

«ثم انصرفنا، وركضنا حتى انتهينا إلى شجرة غيناء⁽²⁾ يتفجّر من أصلها عين كمقلة حوراء، فصاح زهير: يا عتاب بن حبناء، حلّ بك زهير وصاحبه، فبعمرو والقمر الطالع، وبالرقعة المفكوك الطابع⁽³⁾، إلا ما أريتنا وجهك، فانطلق ماء العين عن وجه فتى كفلقة القمر، ثم اشتق الهواء صاعدا إلينا من قعرها حتى استوى معنا، فقال: حيّاك الله يا زهير، وحيّا صاحبك. فقلت: وما الذي أسكنك قعر هذه العين يا عتاب؟ قال: حيائي من التحسن باسم الشعر وأنا لا أحسنه، فصحت: ويلي منه، كلام محدث وربّ الكعبة، واستنشدني فلم أنشده إجلالا له، ثم أنشدته:

أبكيّت إذ ظعن الفريق فراقها

(1) السفاسق: جمع سفيسة وهي فرند السيف.

(2) الغيناء: الشجرة الخضراء.

(3) الطابع بفتح الباء وكسرهما: الخاتم يطبع به، يشير بذلك إلى بيتي أبي تمام:

يا عمرو قل للقمر الطالع اتسع الخرق على الراقع
يا طول فكري فيك من حامل لرقعة مفكوك الطابع

حتى انتهيتُ فيها إلى قولي:

لأني امرؤُ لعبَ الزمانَ بهمّي وسُقيتُ من كأسِ الخطوبِ دهاقها
وكبوتُ طرفاً في العلا فاستضحكتُ حُمُرُ الأنامِ فما تريمُ نُهاقها⁽¹⁾
وإذا ارتمتُ نحوي المنى لأنالها وقَفَ الزمانُ لها هناك فعاقها
وإذا أبو يحيى تأخرُ نفسه⁽²⁾ فمتى أوَمَلُ في الزمانَ لحاقها

فلما انتهيت قال: أنشدني من رثائك، فأنشدته:

أعيننا امرأ نَزَحَتْ عَيْنُهُ ولا تعجبا من جُفونِ جُمادٍ
إذا القلبُ أحرَقَهُ بُلْغُهُ فإنَّ المدامعَ تَلَوُ الفُؤادِ

ويزداد إعجاب عتاب بشعر أبي عامر بعد أن سمع مراثيه كلها فيستزيده إنشاداً لمزيد من الرثاء، فينشدُه قصيدة ميمية رقيقة حزينة كان الشاعر قالها هي وسابقتها في رثاء أبي عبيدة حسان بن مالك وزير عبد الرحمن بن هشام أيام الفتنة:

وكيفَ اهتدائي في الخطوبِ إذا دَجَتْ وقد فَقَدَتْ عَيْنَايَ ضَوْءَ نَجْمِ
مضى السلفُ الوضاحُ إلا بَقِيَّةً كُغْرَةٌ مُسَوِّدُ القَمِيصِ بهيم⁽³⁾
أنا السيفُ لم تتعبْ به كَفُ ضاربٍ صرورٌ إذا صادفتُ كَفُ صَرورِ
سَعَيْتُ بأحرارِ الرجالِ فخاني رجالٌ ولم أنجدُ بجدِّ عَظِيمِ
وضَيَّعني الأملاكُ بدءاً وعودةً فضَعْتُ بدارٍ منهم وَحَرِيمِ

فيُعجب عتاب بشعر ابن شهيد ويأنس إليه ويُسدي له نصيح الأستاذ للتلميذ قائلاً: إن كنت ولا بد قائلاً، فإذا دعتك نفسك إلى القول فلا تكدُ قريحتك، فإذا

(1) طرفاً: أي فرساً كريماً. ما تريم: أي ما تترك.

(2) نفسه: أي همته.

(3) الغرة ليلة استهلال القمر، وغرة الهلال طلوعه، مسود القميص: هو الليل.

أُكملت فجمام ثلاثة لا أقل⁽¹⁾، ونقح بعد ذلك وتذكر قول سويد بن كراع العكلي⁽²⁾:

وجشمني خوف ابن عفان ردها فتقفتها حولاً كريئاً ومربعاً⁽³⁾

وقد كان في نفسي عليها زيادة فلم أر إلا أن أطيع وأسمعاً

ثم يشهد عتاب لابن شهيد شهادة أثلجت صدره أو هي في الواقع صدى لما في نفس ابن شهيد من مرارة وحفيظة على أهل زمانه فيقول: وما أنت إلا مُحسن على إساءة زمانك، فيُقبل ابن شهيد رأسه، ثم يغيض عتاب في العين التي منها ظهر.

ويسأل زهير أبا عامر عن يريد مقابلته من التوابع فيقول إنه يريد صاحب أبي نواس فيقول زهير: إنه بدير حنة منذ أشهر، قد غلبت عليه الخمر، ويُفهمه أن هذا الدير بعيد عن مكانهما بعداً شاسعاً فيركضان ساعيين إليه فيمران على قصر يعيش فيه أبو الطبع شيطان البحرّي ويجري بينه وبين أبي عامر إنشاد واستنشاد، فينشده أبو عامر قصيدة له مطلعها:

هــذه دارُ زينبَ والربابِ

وفي مقابلته لتابع البحرّي يشير إلى أنه متفوق عليه، بقوله: «حتى أكمّلتها، فكأنما غشي وجه أبي لطيع قطعة من الليل، وكرّ راجعاً دون أن يُسلم. فصاح به زهير: أأجزته؟ قال: أجزته، لا بورك فيك من زائر، ولا في صاحبك أبي عامر».

ونراه يمضي إلى تابع أبي نواس، فيجده مخموراً في أحد الأديرة، وينشده خمرية ومرثية في ابنته ومرثية في ابن ذكوان وقصيدة من قصائد السجن وقطعة مجونية، ويقرّ له عند سماعها بقوله: «هذا والله شيء لم نلهمه نحن».

(1) جمام ثلاثة أي راحة أيام ثلاثة.

(2) هو شاعر أموي هجا بعض قومه فشكوه لسعيد بن عثمان بن عفان فطلبه ليؤدبه فهرب، ولم يزل كذلك حتى عفا عنه.

(3) حول كريئ أي سنة كاملة، والمربع المكان يقام فيه في فصل الربيع.

وينتهي به المطاف إلى لقاء شيطان شاعر العربية الأكبر أبي الطيب المتنبي، فأكبره أن ينشده، وأخذ هو يعرض عليه شعره، وتنبأ له أبو الطيب بأنه ستفجّر عبقريته ولكنه سيموت مبكراً.

وهكذا تنتهي لقاءاته هو وصاحبه مع توابع الشعراء، لينتقل إلى منازل شياطين الكتاب، وهو يسميهم الخطباء، فيلقاهم مجتمعين بوادٍ من أودية الجن سماه «مرج دُهمان» وفي مقدمتهم شيطان الجاحظ، وشيطان عبد الحميد الكاتب، وشيطان بدیع الزمان، وشياطين آخر لبعض الأدباء المعاصرين له مثل أبي القاسم الإفليلي وآخرين أشار إليهما بكنيتيهما وهما أبو بكر وأبو محمد.

فيبدو لينا رقيقاً عند حديثه مع شيطان الجاحظ، وفظاً عند حديثه مع شيطان عبد الحميد ويتناول معارضيّه بالنقد الشديد، في مقدمتهم ابن الإفليلي، إذ استدعى جتيه إلى الحضرة ورسم له صورة ساخرة: «جنيّ أشمط، ربعة، واربم الأنف، يتظالع في مشيته، كاسراً بطرفه وزاويّاً لأنفه».

ثم يعود إلى شيطان بدیع الزمان، فينأظره في مواضع سبقه إليها وأظهر فيها براعة وإبداعاً. وأخيراً يميزه صاحباً الجاحظ وعبد الحميد بأنه شاعر خطيب (كاتب)، ويتباهى بذلك قائلاً: «وانفضّ الجمع والأبصارُ إليّ ناظرة والأعناق نحوي مائلة».

القسم الثاني

ويدور حول قضية من قضايا النقد هي أخذ المعنى الواحد وتداوله بين الشعراء، فيورد معنى تداوله كل من الأفوه الأودي والنابعة الذيباني وأبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي تمام والمتنبي وذلك المعنى هو صورة الطير وهي تتبع الجيش (أو الممدوح)، لتيقنّها بانتصاره، فتشيع من لحوم القتلى، وهي صورة ابتكرها الأفوه الأودي (-570م)، وذلك في قوله:

وترى الطيرَ على آثارنا رأي عينٍ ثقة أن سثمار

ثم تبعه الشعراء.

وتدور المحاوره حول المفاضلة بينهم في ذلك المعنى عنه ويحكم ناقد من الجن اسمه شمردل السحابي بأن أكثرهم إحساناً- المتنبي، إذ يقول:

له عسكريا خيلٍ وطيرٍ إذا رمى بها عسكرياً لم تبقَ إلا جماجمه
وبأخذ الكلمة شاعر جني اسمه «فاتك بن الصقعب- وينشد أبياتاً يدعي أنها
أبلغ من قول أولئك الشعراء، ويتبين المجلس أن هذه الأبيات إنما هي لابن شهيد نفسه،
فيهتز المجلس له طرباً وإعجاباً، يقول فيها:

وتدري سباع الطير أن كُماته إذا لقيت صيد الكُماة سباع
لهنَّ لُعابٍ في الهواء وهزّة إذا جدّ بين الدارين قراع
تطيرُ جِباعاً فوقه وتردّها ظُباهُ إلى الأوكار وهي شِباع
تملّك بالإحسان رِبقةً رَقها فهنَّ رقيقٌ يُشترى ويُباع

ويتنقل إلى معنى آخر أورده امرؤ القيس في قوله:

سموتُ إليها بعدما نام أهلها سمو حباب الماء حالاً على حال

ويذكر أن عمر بن أبي ربيعة حاول أن يأتي بهذا المعنى فأخفق. ويسهم ابن
شهيد في الحوار ليظهر قدرته النقدية فيأتي بمبدأ نقدي، ويُجريه على لسان شيخ يُعلم
ابنه صناعة الشعر، فيقول له: «إذا اعتمدت معنى قد سبقك إليه غيرك فأحسن تركيبه
وأرق حاشيته، فاضرب عنه جملة، وإن لم يكن بُدّ ففي غير العروض التي تقدّم إليها
ذلك المحسن، لتنشط طبيعتك، وتقوى مُنتك».

ونسمع ابن شهيد وهو يُقدم لنا نماذج من شعره جاذب بها المتنبي، فيردّ عليه
شخص آخر من الجنّ، ويسأله ساخراً: «على من أخذت هذا الزمير؟» ويتحداه
بنماذج من شعر المتنبي، فيردّ عليه ابن شهيد بقصائد له مُعارضاً، فإذا عرف الجنّي أنه
شاعر كبير، ومن أسرة أكثرها شعراء، أجازته وقال له: «والذي نفس فرعون بيده لا
عرضتُ لك أمراً، إني أراك عريقاً في الكلام، ثم قلّ واضمحل...» ويسأل ابن شهيد
صاحبه زهير عن اسم هذا الجنّي، فيقول له: استعذ بالله، هذا فرعون بن الجون.

القسم الثالث

يمثل هذا القسم مشهداً ختامياً لرسالة التوابع والزّوابع، تغلب عليه الفكاهة
والسخرية، ويتألف من منظرين:

مفاضلة بين شعرين لحمار وبغل من عُشاق الجنّ، إذ ترضى بغلة بحكم أبي عامر في هذه المفاضلة، ثم تقترب لتعرفه بنفسها وتقول له : إنها بغلة أبي عيسى، ويتخذ حوارهما طابع المودة وأسلوب السخرية، ويتطرحان الذكريات، وتسأله البغلة عن أصدقائها، فيجيبها ساخراً: شبّ الغلمان، وشاخ الفتيان، وتنكرت الخِلان، ومن إخوانك من بلغ الإمارة، وانتهى إلى الوزارة.

فلنستمع إلى هذا المنظر الطريف، قبل الحديث عن المنظر الذي يليه:

«ومشيتُ يوماً أنا وزهير بأرض الجن أيضاً، نتقري الفوائد، ونعتمد أندية أهل الآداب منهم، إذ أشرفنا على قرارة غناء⁽¹⁾، تفتّر عن بركة ماء وفيها عانة⁽²⁾ من حُمُر الجنّ وبغالهم، قد أصابها أولق⁽³⁾، فهي تصطك بالخوافر، وتنفخ من المفاخر، وقد علا شحيجها⁽⁴⁾ ونهاقها، فلما بصرت بنا، أجفلت إلينا، وهي تقول: جاءكم على رجليه، فارتعتُ لذلك، فتبسّم زهير وقد عرف القصد، وقال لي: تهيأ للحكم، فلما لحقت بنا، بدأتني بالتفدية⁽⁵⁾ وحيّتي بالتكنية⁽⁶⁾. فقلت: ما الخطب؟ حُمي حماك أيتها العانة، وأخصب مرعاك. قالت: شعران لحمار وبغل من عشاقنا اختلفنا فيهما، وقد رضىناك حكماً. قلت: حتى أسمع. فتقدمت إليّ بغلة شهباء عليها جُلّها وبرقعها، لم تدخل فيما دخلت فيه العانة من سوء العجلة، وسخف الحركة، فقالت أحد الشعرين لبغل من بغالنا، وهو :

على كلّ صبّ من هواه دليلُ سَقام على حرّ الجوى ونُحولُ
وما زال هذا الحُبُّ داءً مبرحاً إذا ما اعترى بغلاً فليس يزولُ

(1) القرارة: المطمئن من الارض، والغناء: الكثير العشب، أو التي تمر فيها العشب غير صافية الصوت لكثافة عشبها.

(2) العانة: القطيع من حمر الوحش.

(3) الأولق: الجنون.

(4) الشحيج: صوت البغل.

(5) بدأته بالتفدية: أي قالت له جعلت فداك.

(6) حيته بالتكنية: أي حيته بكنيته، وفي ذلك مزيد من التحجب والتودد.

بنفسي التي أمّا ملاحظ طَرفِها فسحرَ وأمّا خدّها فأسيلُ
تعبتُ بما حُمِلْتُ من ثِقَلِ حُبِّها وإني لَبَغْلٌ لِلثِقَالِ حُمُولُ
وما نلتُ منها نائلاً غير أنني إذا هي بالت، بُلْتُ حيثُ تبولُ
والشعر الآخر لِدُكَيْنِ الحِمَارِ:

دُهِيتُ بهذا الحُبِّ منذ هَوَيْتُ وراثتُ إراداتي فليستُ أريثُ⁽¹⁾
كَلِفْتُ بِإِلْفِي منذَ عشرين حِجَّةً يَجُولُ هواها في الحشا وَيَعِيثُ
ومالي من بُرَحِ الصَّبَابَةِ مَخْلَصُ ولا لي من فيضِ السَّقَامِ مُغِيثُ
وغيرُ منها قَلْبُها لي نَمِيمَةٌ نَمَاهَا⁽²⁾ أَحْمُ⁽³⁾ الخَصِيَّتَيْنِ خَبِيثُ
وما نلتُ منها نائلاً غير أنني إذا هي راثت رُثْتُ حيثُ تروثُ⁽⁴⁾

فضحك زهير وتماسكت، وقلت للمنشدة: ما هويثُ؟ قالت: هو هويثُ بلغة الحمير، فقلت: والله إن للروث رائحة كريهة، وقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم في هذا الشعر، فقالت: فهمت عنك، وأشارت إلى العانة أن دكيناً مغلوب، ثم انصرفت قانعة راضية.

وقالت لي البغلة أما تعرفني أبا عامر؟ قلت لو كان ثمَّ علامة، فأماطت لثامها، فإذا هي بغلة أبي عيسى، والخال على خدّها، فتباكينا طويلاً، وأخذنا في ذكر أيامنا. فقالت: ما أبقت الأيام منك، قلت: ما ترين؟ قالت: شبَّ عمرو عن الطوق، فما فعل الأحبة بعدي؟ أهم على العهد؟ قالت: شبَّ الغلمان، وشاخ الفتيان، وتنكرت الخلان، ومن إخوانك من بلغ الإمارة، وانتهى إلى الوزارة فتفتست الصُّعْدَاءُ وقالت:

(1) أريث: يعني أبطأ، من الريث.

(2) نَمَاهَا أي نسبها إليه، من النميمة والوشاية.

(3) الأحْم: الأسود.

(4) تروث: أي تُحدث.

سقاها الله سبيل العهد⁽¹⁾، وأن حالوا عن العهد، ونسوا أيام الود بجرمة الأدب، إلا ما أقرأتهم عني السلام، قلت: كما تأمرين وأكثر.

والثاني منظر إوزة تسمى «العاقلة» وكُنيتها «أم خفيف». وهي ترمز لشيخ من شيوخ قرطبة، بوصفها صغيرة الرأس، حمقاء، بلا عقل، ومتكبرة. ومن ثم تأخذ المناظرة بين أبي عامر وأم خفيف طابع التحدي حيناً، والمراوغة والفرار حيناً آخر. ويلقانا ابن شهيد بوصف هذه الإوزة، فنسمعه يقول:

«وكانت بالقرب منا إوزة بيضاء شهلاء، في مثل جثمان النعامة، كأنما ذرٌ عليها الكافور، أو لبست غلالة من دمقس الحرير، لم أر أخفَ من رأسها حركة، ولا أحسن للماء من ظهرها صباً، تثنى سالفتها⁽²⁾، وتكسر حدقتها، وتلوب قمَحْدُوئِها⁽³⁾، فترى الحسن مستعاراً، والشكل مأخوذاً عنها، فصاحت بالبلغة: لقد حكمتكم بالهوى ورضيتم من حاكمكم بغير الرضا.

فقلت لزهير، ما شأنها؟ قال: هي تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة، وتكنى أم خفيف، وهي ذات حظ من الأدب، فاستعد لها، فقلت: أيتها الإوزة الجميلة، العريضة الطويلة، أيحسن بجمال حدقتيك، واعتدال منكبيك، واستقامة جناحيك، وطول جيدك، وصغر رأسك، مقابلة الضيف بمثل هذا الكلام، وتلقني الطارئ الغريب بشبه هذا المقال؟ وأنا الذي همت بالإوز صباية، واحتملت في الكلف بها عرض كل مقالة، وأنا الذي استرجعتها إلى الوطن المألوف، وحببتها إلى كل غطريف⁽⁴⁾، فاتخذتها السادة بأرضنا، واستهلك عليها الظرفاء منا، ورُضيت بدلا من العصافير، ومتكلمات الزراير، ونسيت لذة الحمام، ونقار الديوك، ونطاح الكباش. فدخلها العُجب من كلامي، ثم ترفعت وقد اعترتها خفة شديدة في مائها، فمرة ساجدة، ومرة طائرة، تنغمس هنا وتخرج هناك، قد تقبب جناحها، وانتصبت ذنابها،

(1) السبل: المطر، العهد أول مطر الوسمي وهو أيضا مطر يأتي بعد مطر، يدرك آخره بلل أوله.

(2) السالفة: ناحية مقدم العنق من لدن معلق القرط إلى الترقوة.

(3) القمحدوة: مؤخر القذال أو هي أعلى القذال (القفا) خلف الأذنين.

(4) الغطريف: السيد الشريف.

وهي تُطْرَبُ تطريب السرور، وهذا الفعل معروف من الإوزَ عند الفرح والمرح. ثم سكنتُ وأقامت عنقها. وعَرَضْتُ صدرها، وعملت بمجدافيهها، واستقبلتنا جائية كصدر المراكب، فقالت: أيها الغارُ المغرور: كيف تحكم في الفروع وأنت لا تُحكم الأصول؟ ما الذي تحسن؟ قلت: ارتجال شعر واقتضاب خطبة، على حكم المقترح والنُصبة⁽¹⁾. قالت: ليس عن هذا أسألك. قلت: ولا بغير هذا أجوابك، قالت: حكم الجواب أن تقع على أصل السؤال، وأنا إنما أردت بذلك إحسان النحو والغريب اللذين هما أصل الكلام، ومادة البيان. قلت: لا جواب عندي غير ما سمعت. قالت: أقسم أن هذا منك غير داخل في باب الجدل. قلت: وبالجدل تطليبننا وقد عقدنا سَلَمَةً، وكُفينا حربه، وإن ما رميتك به منه لآنفذُ سهامه، وأحدُ حرابه، وهو من تعاليم الله- عزَّ وجلَّ- عندنا في الجدل في محكم تنزيله، قالت: أقسم أن الله ما علمك الجدل في كتابه! قلت: محمول عنك⁽²⁾ أَمَّ خفيف، لا يلزم الإوز حفظ أدب القرآن، قال الله عزَّ وجلَّ في محكم كتابه حاكياً عن نبيه إبراهيم عليه السلام: «رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ، قال: أنا أحيي وأميت» فكان لهذا الكلام من الكافر جواب، وعلى وجوبه مقال، ولكن النبي ﷺ لما لاحت له الواضحة القاطعة رماه بها وأضرب عن الكلام الأول، قال: «إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ، فَأَتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ» وأنا لا أحسنُ غير ارتجال الشعر، واقتضاب خطبة على حكم المقترح والنُصبة.

فاهتزت من جانبيها، وحال الماء⁽³⁾ من عينها، وهَمَّتْ بالطيران ثم اعترها ما يعترى الإوز من الألفة وحُسن الرجعة، فقدَمَت عنقها ورأسها إلينا تمشي نحونا وريداً، وتنطق نطقاً متداركاً خفيفاً، وهو فعل الإوز إذا أُنِسَتْ واستراضت وتدللت، على أنني أحب الإوز وأستظرف حركاتها، وما يعرض من سخافاتهما.

ثم تكلمتُ بها مَبْسَبَساً، ولها مؤنساً، حتى خالطتنا، وقد عقدنا سلمها وكفينا حربها، فقلت: يا أَمَّ خفيف، بالذي جعل غذاءك ماءً، وحشى رأسك هواءً، ألا أيُّما

(1) النُصبة: السارية المنصوبة علامة للطريق. والمراد هنا الرأي الذي لا يعدل عنه.

(2) محمول عنك: أي لا تؤاخذني عليه.

(3) حال الماء من عينها: سقط منهما.

أفضل: الأدب أم العقل؟ قالت: بل العقل. قلت: فهل تعرفين في الخلائق أحق من إوزة، ودعيني من مثلهم في الحُبّارى⁽¹⁾؟ قالت لا. قلت: فتطلّي عقل التجربة، إذ لا سبيل لك إلى عقل الطبيعة، فإذا أحرزت منه نصيباً، وبُؤت⁽²⁾ منه بحظ، فحيثُ ناظري في الأدب، فانصرفت وانصرفنا».

هذه هي رسالة التوايع والزوايع، إحدى القصص البارعة التي تعدّ في المقدمة من ألوان الأدب الإمتاعى الأندلسي بصفة خاصة، والعربي بشكل عام. عَرَضَ فيها ابن شهيد كثيراً من آرائه النقدية التي واجه بها معاصريه، بأسلوبه الساخر، مستمداً فكرته من مقامات بديع الزمان الهمذاني والمقامة الإبلية على وجه الخصوص، إلا أنه أجحف بحق أستاذه، إذ ثار عليه، وجعل صاحبه يضرب الأرض برجله فتتفرج عن هوة واسعة يتدهدى فيها حتى يغيب أثره.

على أن ذلك لا يقلل من مكانة هذا العمل الأدبي، فهو «ترجمان لنفسية الكاتب ومجتمع زمانه⁽³⁾».

(1) الحبارى: طائر يضرب به المثل في الحمق والغباوة: كما يضرب بالأوز.

(2) باء ييوء: رجع يرجع.

(3) مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، ص 682.

المبحث السادس

قصة حي بن يقظان لابن طفيل

تمهيد

في القرن السادس الهجري- عصر الموحدين- نشطت حركة التفكير وأخذت أعمال ابن سينا وغيره من مفكري الشرق تصل إلى الأندلس، وكان من أول المتأثرين بها الفيلسوف العربي المسلم ابن طفيل (581هـ/ 1185م)، وأكثر ما أعجبه فيها تلك الرسالة التي كتبها ابن سينا وأسمها «حي بن يقظان»، فأنشأ رسالته التي تحمل العنوان نفسه، غير أن فحوى رسالته يختلف كل الاختلاف عن فحوى رسالة ابن سينا.

إن خلاصة القصة عند ابن سينا_ حسب تقديم أحمد أمين لها_ أن جماعة خرجوا يتنزهون فصادفوا شيخاً بهيَّ الطلعة حسن الهيئة مهيباً حسناً، سألوه عن حاله ومهنته، فأجابهم أن اسمه «حي بن يقظان» ومهنته رحالة.

وهو يرمز إلى العقل الذي اكتسب التجارب من خلال السنين والرحلات والأسفار، وأما الرفقة هنا فليست هي الأخرى أشخاصاً وإنما هي الغرائز والغضب وسائر الملكات الإنسانية، وأما المجادلة بين الرفقة والحديث إلى حي بن يقظان فعبارة عن المجادلات التي تحدث بين شهوات الإنسان وغرائزه وبين ضميره وعقله⁽¹⁾.

كما أن رسالة ابن طفيل أكبر حجماً، فهي قصة طويلة تتميز بأسلوبها الأدبي الرفيع وسردها القصصي ومن ثم أصبحت هذه القصة عملاً قصصياً فكرياً من أكبر الأعمال التراثية في نطاق الآداب العالمية، امتزج فيها الفكر بالأدب، وضمت مبادئ فلسفية في نطاق القصة القائمة على أرض أدبية. فمن هو ابن طفيل الذي ارتبط اسمه بهذه القصة؟

ابن طفيل فيلسوف أندلسي في نطاق الفلسفة الإسلامية، واسمه أبو بكر محمد ابن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي، نسبة إلى قبيلة قيس العريية،

(1) حي بن يقظان، تقديم أحمد أمين، ص 16.

ويُلقَّب بالاندلسي تارة والقرطبي تارة أخرى والإشبيلي تارة ثالثة لأنه عاش في تلك المدن ، ويلقب أيضاً بالمراكشي لأنه توفي في مراكش.

ولد ابن طفيل في وادي آش قرب غرناطة، وقد اتخذ الطب مهنة، ثم أصبح طبيباً خاصاً ووزيراً للسلطان أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ونال مكانة رفيعة عنده، وكان له تأثير فيه، إذ جعله يتذوق العلوم والفلسفة والآداب، وقدّم إليه الفيلسوف ابن رشد .

وإلى جانب ذلك كان شاعراً رقيقاً، يعتلّ لاعتلال الأحبة، ويوشك على الهلاك لمرض من يهوى، فيقول:

يقولون لي ظمياء أصبحت عيلةً فقلتُ فما بالي بقيتُ إذا حيًّا!
أصبحُ شمسُ الأرضِ كاسفةَ السَّنا ولا يعترني جسمي لعلتها فيًّا!
إذا ما طوى عني السَّقامُ وصالها طوى الموتُ روحي في مُلاءته طيًّا
توفي ابن طفيل في مراكش سنة 581هـ، وقد سار السلطان أبو يعقوب يوسف في جنازته.

قصة حي يقظان

تعد قصة «حي بن يقظان» خلاصة تجربة فلسفية لابن طفيل، ونلمس فيها جدلية الفكر والأدب، فقد عرفت باسم «أسرار الحكمة الإشراقية»، ضمّنها تفكيره في إطار الفن القصصي، بأسلوبه الأدبي الرفيع وتدور القصة حول طفل نشأ في جزيرة من جزر الهند النائية، وأسماها المؤلف «جزر الواق الواق».

وتلقانا في ولادة هذا الطفل روايتان، تقول أولاهما: إن حي بن يقظان ولد من غير أبوين في جزيرة نائية مقفرة من جزر الهند تحت خط الاستواء، ويناقش ابن طفيل هذه الرواية التي تقول بإمكان التولّد الذاتي عن طريق تحمّر الطين في درجة حرارة معتدلة.

أما الرواية الثانية فتذكر أنه ولد لأم وأب في جزيرة نائية، وخافت أمه من أخيها ملك الجزيرة، إذ تزوّجت بغير علمه من قريب لها يدعى «يقظان» فلما وضعت طفلها

صنعت له تابوتا، ثم إنَّها وضعته فيه، وقذفت به في اليمّ، فأسلمته الأمواج إلى ساحل جزيرة أخرى وارفة الظلال.

وتعهدته ظبية فقدت وليدها، إذ حسبته رضيعها المفقود، فتقوم على إرضاعه وتغذيته، وينشأ حيّ على طباع أمه الظبية، فيحاكيها في صوتها وحركتها، فلما أدرك أخذ يلاحظ ما بينه وبين الحيوانات الأخرى من فوارق، معتمدا على دقة الملاحظة، فوجد أنها مستورة وهو عار، فأخذ يستر جسمه بأوراق الشجر، ولاحظ أنها مسلّحة وهو أعزل، فتسلّح بعضاً من أغصان الأشجار، واهتدى إلى فضل يديه ففكر في الصيد.

ولم يلبث أن أخذ يسلك سلوك الإنسان، فشرع يبني بيتاً يحميه من الحر والبرد وبقية المطر، وبدأ يزرع النباتات من حبوب وفواكه ليعيش مع ما يصطاده من طيور وحيوانات أخرى، يكسو نفسه بصوفها.

فلنستمع إلى ما كتبه ابن طفيل في ذلك الأمر:

« ثم استغاث ذلك الطفل عند فناء مادة غذائه واشتداد جوعه، فربّته ظبية فقدت طلاها.... وافقت خصباً ومرعى أثيثاً، فكثر لحمها ودرّ لبنها حتى قامت بغذاء ذلك الظفل أحسن قيام، وكانت معه لا تبعد عنه إلا لضرورة الرعي، وألف الظفل تلك الظبية حتى كان بحيث هي أبطأت عنه اشتدّ بكاؤه فطارت إليه، ولم يكن بتلك الجزيرة شيء من السباع العادية فتربى الطفل ونما واغتذى بلبن تلك الظبية إلى أن تم له حولان، وتدرج في المشي وأثغر⁽¹⁾.

فكان يتبع تلك الظبية وكانت هي ترفق به وترحمه وتحمله إلى مواضع فيها شجر مثمر، فكانت تُطعمه ما تساقط من ثمراتها الحلوة النضيجة، وما كان منها صلب القشر كسرتة بطواحينها، ومتى عاد إلى اللبن أروته ومتى ظمى إلى الماء أوردته، ومتى ضحى⁽²⁾ ظلّته، ومتى حصر أدفأته، وإذا جنّ الليل صرفته إلى مكانه الأول، وجلّته بنفسها وبريش كان هناك مما ملأ به التابوت أولاً في وقت وضع الطفل فيه، وكان في

(1) ثغر: يعني نبتت أسنانه.

(2) ضحى: تعرض للشمس.

غدوهما ورواحهما قد ألفهما ربرب يسرح ويعيش ويبيت معهما حيث بيتهما، فما زال الطفل مع الطباء على تلك الحال يحكي نغمتها بصوته حتى لا يكاد يفرق بينهما، وكذلك كان يحكي جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنواع سائر الحيوان محاكاة شديدة لقوة انفعاله لما يريده، وأكثر ما كانت محاكاته لأصوات الطباء في الاستصراخ والاستتلاف والاستدعاء والاستدفاء، إذ للحيوانات في هذه الأحوال المختلفة أصوات مختلفة، فألفته الوحوش، وألفها ولم تنكره ولا أنكرها، فلما ثبت في نفسه أمثلة الأشياء بعد مغيبه عن مشاهدته حدث له نزوع إلى بعضها وكرهية لبعض.

وكان في ذلك كله ينظر إلى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالأوبار والأشعار وأنواع الريش، وكان يرى ما لها من سرعة العدو وقوة البطش: وما لها من الأسلحة المعدة للمدافعة من ينازعها مثل القرون والأنياب والخوافر والصياصي والمخالب، ثم يرجع إلى نفسه فيرى مابه من العري وعدم السلاح وضعف العدو وقلة البطش عندما كانت تنازعه الوحوش أكل الثمرات وتستبدّ بها دونه وتغلبه عليها؛ فلا يستطيع المدافعة عن نفسه ولا الفرار عن شيء منها، وكان يرى أترابه من أولاد الطباء قد نبتت لها قرون بعد أن لم تكن وصارت قوية بعد ضعفها في العدو، ولما لم يجد لنفسه شيئاً من ذلك، فكان يفكر في ذلك الأمر ولا يدري ما سببه، وكان ينظر إلى ذوي العاهات والخلق الناقص فلا يجد لنفسه شبيهاً فيهم وكان أيضاً ينظر إلى مخارج الفضول من سائر الحيوان فيراها مستورة أما مخرج أغلظ الفضلتين فبالأذنان، وأما مخرج أرقهما فبالأدبار وما أشبهها، ولأنها كانت أيضاً أخفى قضباناً منه، فكان ذلك كله يكربه ويسوؤه، فلما طال همّه في ذلك كله وهو قد قارب سبعة أعوام ويئس من أن يكمل له ذلك وما قد أضرب به ناقصه، اتخذ من أوراق الشجر العريضة شيئاً فجعل بعضه خلفه وبعضه قدامه، وعمل من الخوص والخلفاء شبه حزام على وسطه علّق به تلك الأوراق، فلم يلبث إلا يسيراً حتى ذوى ذلك الورق وجف وتساقط عنه، فما زال يتخذ غيره ويخفف بعضه ببعض طاقات مضاعفات، وربما كان ذلك أطول لبقائه، إلا أنه على كل حال قصير المدة، واتخذ من أغصان الشجر عَصِيّاً سَوِيّاً أطرافها وعدّل متنها، وكان يَهْشُّ بها على الوحوش المنازعة له، فيحمل على الضعيف منها ويقاوم القوي منها، فنبل ذلك قدره عند نفسه بعض نباله، ورأى أن

لديه فضلاً كثيراً على أيديها، إذ أمكن له بها ستر عورته واتخاذ العصي التي يدافع بها عن حوزته ما استغنى به عما أراده من الذئب والسلاح الطبيعي، وفي خلال ذلك ترعرع وأربى على السبع سنين، وطال به العناء في تجديد الأوراق التي كان يستر بها، فكانت نفسه عند ذلك تنازعه إلى اتخاذ ذئب من أذئاب الوحوش الميتة يعلقه على نفسه، إلا أنه كان يرى أحياء الوحوش تتحامي ميتها وتفرّ منه، فلا يأتي له الإقدام على ذلك الفعل إلى أن صادف في بعض الأيام نسرا ميتاً، فهدي إلى نيل أمله منه واغتنم الفرصة إذ لم ير للوحوش عنه نفرة، فأقدم عليه وقطع جناحيه وذنبه صحاحاً كما هي، وفتح ريشها وسواها، وسلخ عنه سائر جلده وفصله على قطعتين ربط إحداهما على ظهره والأخرى على سُرته وما تحتها، وعلّق الذئب من خلفه، وعلّق الجناحين على عضديه، فأكسبه ذلك سترأً ودفئاً ومهابةً في نفوس جميع الوحوش حتى كانت لا تنازعه ولا تعارضه، فصار لا يدنو إليه شيء منها سوى الطيبة التي كانت أرضعته ورَبّته، فإنها لم تفارقه ولا فارقها إلى أن أَسْتَتْ وضعفت فكان يرتاد بها المراعي الخصبة ويحتني لها الثمرات الحلوة، ويطعمها. وما زال الهزال والضعف يستولي عليها ويتوالى إلى أن أدركها الموت فسكّنت حركتها بالجملة وتعطلت جميع أفعالها⁽¹⁾.

فيحزن حيّ بموت أمه الطيبة، ويشرع في دراسة نفسه، فيلتفت إلى ما عنده من حواس، ويظن أن المرض الذي أودى بأمه كان كامناً في صدرها، فيشقّ صدرها بحجرٍ حاد ويكشف القلب بوصفه مركز الحياة، ويهديه تفكيره إلى أن هناك شيئاً خفياً فارق الجسد، وهو الذي يؤلف الذات. وإذ يتعفّن جسم الطيبة يتعلم من الغربان كيف يواريه التراب.

ويشبّ حريق في إحدى الآجام، فيكتشف النار، ويأتي بقبس منها يودعه مسكناً، ويحرص على أن يظل مشتعلأً. وتتوالى الاكتشافات، فينتبه إلى الحرارة في الأجسام الحيّة فيعاود عمليات التشريح في الحيوانات، فيتعلم أن جلود الحيوانات صالحة لأن يتدبّر بها، فيصنع كساءه منها، ثم يتعلم غزل الصوف والقنب، وصنع

(1) حي بن يقظان، ص 66-68 تحقيق أحمد أمين، ص 26-29 تحقيق جميل صليبا.

الإبر، فيغزل لنفسه ثياباً، ويهتدي إلى بناء البيوت مما رأى من فعل الخطاطيف، ويروض الطيور الجارحة ويستخدمها في الصيد. وهو يُفصل ذلك في قصته وذلك إذ يقول⁽¹⁾:

«واتفق في بعض الأحيان أن انفدحت نار في أجمة قلخ على سبيل المحاكاة، فلما بصر بها رأى منظراً هاله، وخلقاً لم يعتده قبل، فوقف يتعجب منها ملياً وما يزال يدنو منها شيئاً فشيئاً فرأى ما للنار من الضوء الثاقب والفعل الغائب حتى لا تعلق بشيء إلا أنت عليه وأحاليته إلى نفسها، فحمله العُجب بها، وبما ركب الله تعالى في طباعه من الجرأة والقوة على أن يمدّ يده إليها وأرد أن يأخذ منها شيئاً، فلما باشرها أحرقت يده فिम يستطع القبض عليها، فاهتدى إلى أن يأخذ قبسا لم تستولِ النار عليه جميعه، فأخذ بطرفه السليم والنار في طرفه الآخر، فتأثى له ذلك وحمله إلى موضعه الذي كان يأوي إليه وكان قد خلا في جحر استحسنة للسكنى قبل ذلك، ثم ما زال يمد تلك النار بالحشيش والخطب الجزل ويتعهدها ليلاً ونهاراً استحساناً لها وتعجباً منها، وكان يزيد أنسه بها ليلاً لأنها كانت تقوم له مقام الشمس في الضياء والدفع فعظم بها ولوعه واعتقد أنها أفضل الأشياء التي لديه، وكان دائماً يراها تتحرك إلى جهة فوق وتطلب العلو، فغلب على ظنه أنها من جملة الجواهر السماوية التي كان يشاهدها. وكان يختبر قوتها في جميع الأشياء بأن يلقيها فيها فيراها مستولية عليها إما بسرعة وإما ببطء بحسب قوة استعداد الجسم الذي كان يلقيه للاحتراق أو ضعفه.

وكان من جملة ما ألقى فيها على سبيل الاختبار لقوتها شيء من أصناف الحيوانات البحرية، كان قد ألقاه البحر إلى ساحله، فلما أنضجت ذلك الحيوان وسط قُتاره، تحركت شهوته إليه، فأكل منه شيئاً فاستطابه فاعتاد بذلك أكل اللحم، فعرف الحيلة في صيد البر والبحر حتى مهر في ذلك، وزادت محبته للنار إذ تأثى له بها من وجوه الاغتذاء الطيب شيء لم يأت له قبل ذلك، فلما اشتد شغفه بها لما رأى من حُسن أثرها وقوة اقتدارها وقع في نفسه أن الشيء الذي ارتحل من قلب أمه الظبية التي أنشأته كان من جوهر هذا الوجود أو من شيء يجانسه، وأكد ذلك في ظنه ما كان

(1) حي بن يقظان، تحقيق أحمد أمين ص 74-73، تحقيق جميل صليبا 34-37.

يراه من حرارة الحيوان طول مدة حياته، وبرودته من بعد موته، وكل هذا دائم لا يختل وما كان يجده في نفسه من شدة الحرارة عند صدره بإزاء الموضع الذي كان قد شقَّ عليه من الظبية فوق في نفسه أنه لو أخذ حيواناً حياً وشق قلبه ونظر إلى ذلك التجويف الذي صادفه خالياً عندما شقَّ عليه في أمه الظبية لرآه في هذا الحيوان وهو مملوء بذلك الشيء الساخن فيه، وتحقق هل هو من جوهر النار، وهل فيه شيء من الضوء والحرارة أم لا؟ فعمد إلى بعض الوحوش، واستوثق منه كثافاً وشقّه على الصفة التي شقَّ بها الظبية حتى وصل إلى القلب، فقصده أولاً إلى الجهة اليسرى منه وشقّها فرأى ذلك الفراغ مملوءاً بهواء بخاري يشبه الضباب الأبيض، فأدخل أصابعه فيه، فوجده من الحرارة في حد كاد يحرقه، ومات ذلك الحيوان على الفور، فصحَّ عنده أن ذلك البخار هو الذي كان يحرك هذا الحيوان، وأن في كل شخص من أشخاص الحيوانات مثل ذلك، ومتى انفصل عن الحيوان مات.

ثم تحركت في نفسه الشهوة للبحث عن سائر أعضاء الحيوان، وترتيبها وأوضاعها وكمياتها، وكيفية ارتباط بعضها ببعض، وكيف تستمد من هذا البخار الحار حتى تستمر لها الحياة به، وكيف بقاء هذا البخار المدة التي يبقى، ومن أين يُستمد، وكيف لا تنفذ حرارته؟ ففتبع ذلك كله بتشريح الحيوانات الأحياء والأموات، ولم يزل يُنعم النظر فيها، ويحيد الفكرة حتى بلغ في ذلك كله مبلغ كبار الطبيعيين، فتبين له أن كل شخص من أشخاص الحيوان وإن كان كثيراً بأعضائه وتفنن حواسه وحركاته، فإنه واحد بذلك الروح الذي مبدؤه من قرار واحد وانقسامه في سائر الأعضاء منبعث منه، وأن جميع الأعضاء إنما هي خادمة له أو مؤدية عنه، وإن منزلة ذلك الروح في تصريف الجسد كمنزلة من يحارب الأعداء بالسلاح التام وبصيد جميع صيد البحر والبر فيعدُّ لكل جنس آلة يصيده بها، والتي يحارب بها تنقسم إلى ما يدفع به نكاية غيره، وإلى ما يصلح لحيوان البر. وكذلك الأشياء التي يشرح بها تنقسم إلى ما يصلح للشق وإلى ما يصلح للكسر وإلى ما يصلح للثقب، والبدن واحد وهو يصرف ذلك في أنحاء من التصريف بحسب ما تصلح له كل آلة وبحسب الغايات التي تلتبس ذلك التصريف.

كذلك، ذلك الروح الحيواني واحد، وإذا عمل بألة العين كان فعله إبصاراً، وإذا عمل بألة الأنف كان فعله شمّاً، وإذا عمل بألة اللسان كان فعله ذوقاً، وإذا عمل بالجلد واللحم كان فعله لمساً، وإذا عمل بالعضو كان فعله حركة، وإذا عمل بالكبد كان فعله غذاء واغتذاء».

ويزداد حي معرفة، فيدرس المعادن والنبات وأعضاء الحيوان ووظائفها ويصنفها إلى أجناس وأنواع. ثم إنه انتقل إلى فكرة النفس الحيوانية والنباتية، فبدت له الأجسام صوراً تصدر عنها أفعال، ويكتشف العناصر الأربعة. وأخيراً يتوصل إلى معرفة الله، في ضوء تجربته التي جعلته يقتنع بأن لكل موجود علة فاعلة، ومن خلال النظر في صفات الكائنات، ينتهي الأمر به إلى الإيمان بالله خالق الكون ومبدعه، إله قادر عاقل عليم رحيم. ومن ثمّ ينقطع إلى حياة التأمل والعبادة.

وظلت حاله كذلك إلى أن رأى إنساناً يشبهه في الخلقة، واسمه «أبسال»⁽¹⁾، وهو رجل عابد وفد من جزيرة أخرى ليعمل للعبادة في مأمن من صخب الحياة البشرية، فالتقى هذا العابد بحميّ، وأنس كل منهما إلى الآخر، وأخذ عنه حي الكلام وتعلم منه. كان أبسال يؤمن بالله، إذ تلقى تدينه عن رجال الدين الذين فهموا دينهم خلفاً عن سلف وعن الأنبياء، وبمخالطته لحيّ يدرك بأن الدين الذي يؤمن به ليس إلا الصورة الحقيقية للفلسفة الإشراقية التي توصل إليها حيّ بن يقظان.

ويتحدث أبسال على مسامع حيّ، عن أحوال الناس في الجزر الأخرى وعقائدهم المشوبة بمعتقدات ترفضها الفلسفة ثم يصحبه إلى جزيرة عامرة ومأهولة بالناس، ليسيّط فلسفته لملكها «سلامان»، الذي كان أبسال وزيراً له قبل تنسكه، إلا أنه يخفق في رسالته وتذهب جهوده أدراج الرياح، فيرجع أبسال وحيّ مرة ثانية إلى الجزيرة غير المأهولة ليستأنفا حياتهما، حياة التعبد الخالص والتأمل الصافي، في حين يظل الناس في خيالاتهم وتخبّط عقائدهم.

تجدد الإشارة إلى أن ابن طفيل يذكر في صدر رسالته أن كلاً من أبسال وسلامان قد ذكرهما ابن سينا؛ وهما أخوان أصغرهما أبسال الذي عشقته امرأة

(1) يرد هذا الاسم حيناً على أنه آسال وأحياناً أسال وأحياناً أخرى أبسال.

سلامان، ونصبت له الكثير من الخيل وهو متمتع عفيف. ولا تلبث أن تغدر به إذ تواطأت مع طاهيه وخادمه فسقياه السم، فمات⁽¹⁾.

ويفسر نصير الدين الطوسي شخصيات القصة بأن سلامان مثل للنفس الناطقة، وأبسال مثل للعقل النظري المترقي إلى إن حصل عقلاً مستفاداً، وامرأة سلامان هي القوة البدنية الأمارة بالشهوة والغضب⁽²⁾.

وأيّاً كان الأمر، فإنّ قصة حي بن يقظان لابن طفيل، تمثل خلاصة التجربة الفلسفية التي ولدت في أحضان الحضارة العربية الإسلامية، فهي قصة فلسفية رمزية، تهدف إلى التوفيق بين الحكمة والشرعة، بوصفها طريقاً مقنعاً للتوصل إلى معرفة الخالق، بالتأمل في هذا الكون الذي سخر الله ما فيه للإنسان. وقد أفاد ابن طفيل من معرفته الموسوعية، فهو فيلسوف، تجلّت فلسفته في هذه القصة، وهو طبيب توصل إلى القلب فالروح عن طريق التشريح، وهو فلكي له دراية بمعرفة الكواكب والنجوم، وهو أديب يصوغ هذا العمل بأسلوبه القصصي. ومن ثمّ جاء عمله فكرياً أدبياً، اكتسب الشهرة، فكلّف به المسلمون واهتم به غير المسلمين فنقلوه إلى لغاتهم.

ولعله أراد بهذا العمل العبرة والعظمة، فهو يُنبئنا بذلك في مقدمة قصته: «فأنا واصل لك قصة حي بن يقظان، ففي قصصهم عبرة لأولي الألباب وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد».

(1) انظر: حي بن يقظان، تحقيق صليبا وعياد، ص 33 و 34.

(2) انظر: مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي، ص 701.

المبحث السابع

طوق الحمامة لابن حزم

وهو كتاب طريف في فلسفة الحب للمفكر الأديب ابن حزم⁽¹⁾، يدور حول موضوع الحب، تناول فيه أصوله، وأعراضه، وآفاته، فضلا عن قبح المعصية وعن فضل التعفف، في بناء محكم، لا يخلو في بعض الأحيان من الأدب المكشوف.

وقد فطن ابن حزم إلى أن حديثه عن هذا الموضوع محفوف بنقمة المتعصبين عليه، للنهج الذي اتبعه في كتابه، وأنهم سينكرون عليه تأليفه، وهو الفقيه المعروف بمجادلاته الفقهية العنيفة، فيقولون إنه خالف طريقته وتجاوى عن وجهته، فقال: وما أجل لأحد أن يظن في غير ما قصدته، قال الله عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ﴾⁽²⁾، وصرح أنه لا يجب المراءاة ولا أن ينسك نسكا أعجميا.

وابن حزم (-456هـ/1064م) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حرب؛ عالم وفقيه وشاعر أندلسي، وهو من أصل فارسي، شهد انهيار الخلافة الأموية في الأندلس إبان الفتنة التي حلت بقرطبة، فغاردها إلى أن هدأت بها الأحوال. عرف بجدّة لسانه ونقده الشديد لعلماء عصره، وأحرق بعض خصومه كتبه، له مؤلفات كثيرة، منها: "الفصل في الملل والأهواء والنحل" و"الإحكام لأصول الأحكام" و"جمهرة الأنساب" و"طوق الحمامة" وغيرها.

استمد موضوعه من حياته الخاصة ومن تجارب المحيطين به في شؤون عاطفية. مستدلا على ذلك بمقطعات شعرية من نظمه أو نظم سواه. وضع كتابه بعد خروجه من قرطبة، ويذكر أنه كتبه وهو في شاطبة، نزولا عند رغبة أحد أصدقائه، جاءه زائرا من المريّة، واقترح عليه أن يصنف له رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأغراضه. وقد ضمّن هذا الكتاب معلومات وأقاصيص وتعليقات وافيه، تصور مشاهداته في المدن الأندلسية إثر اعتزاله الحياة السياسية وقد وزع كتابه على ثلاثين بابا:

(1) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حرب، عالم وفقيه وشاعر أندلسي.

(2) سورة الحجرات، الآية رقم 12.

عشرة أبواب في أصول الحب، وعلاماته، والحب في النوم، والحب في الوصف، والحب من نظرة واحدة، والتعريض بالقول، والإشارة بالعين، والمراسلة بالكتاب والسفير، متصاعدا بهذه الأصول من الأدنى إلى الأعلى.

اثنا عشر بابا في أعراض الحب وصفاته، مراعى إيراد الصفة بما يناقضها، فإذا تحدث عن كتمان السر شفعه بالحديث عن الكشف والإذاعة، وإذا تحدث عن الطاعة ألحقها بالكلام في المخالفة، وشفع الوفاء بالحديث عن الغدر وهكذا.

سنة أبواب في الأبواب الداخلة على الحب وهي العاذل والرقيب والواشي (وهؤلاء ذوات)، والمهجر والبين والسلو. وهو يتعمد هذا التدرج المتصاعد.

خاتمة في بابين، تحدث فيهما عن قبح المعصية وعن فضل التعفف، ليقرن الحب بروح المتدين ويكون كلامه داخلا في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد كتبه ابن حزم بأسلوب أدبي مرسل بعيد عن الزخرفة البديعية أو التصنع، وضمه معلومات وافية تصور البيئة الأندلسية وملامح طريفة للمرأة، من خلال حديثه عن الغناء وشيوعه في الأندلس، إذ انتشرت المغنيات من صقليّات، وإسبانيات وبربريات وعربيات. وهو بحق سجل حافل بمظاهر الحياة الأندلسية من الداخل، من الحریم، بواقعهنّ الحيّ، البعيد عن الإبهار. ومن ثمّ فقد نقل الكتاب إلى مختلف اللغات الأجنبية.

خلاصة بعض الأبواب

1. الكلام في ماهية الحب

قال ابن حزم إن الحب أوله هزل وآخره جد. ولا تدرك حقيقته إلا بمعناه، وهو ليس بمنكر في الديانة ولا محظور في الشريعة، وأن الحب اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة، فالنفوس المتماثلة تتصل وتتواءم، أما النفوس المتنافرة فتتباعد. والمحبة برأي ابن حزم متعددة: فمنها محبة القرابة ومحبة الألفة ومحبة المصاحبة، ومحبة البر ومحبة الطمع في جاه المحبوب، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه لستره، ومحبة بلوغ اللذة، ومحبة العشق وأفضلها محبة المتحابين في الله.

وكل ضروب المحبة تنقضي بانقضاء عللها، إلا محبة العشق الصحيح المتمكن من النفس، فهي لا فناء لها إلا بالموت.

والإنسان بطبعه يقع في حب الصورة الحسنة للوهلة الأولى، وإذا لم يتجاوز هذا الحب الصورة الحسنة سمي الشهوة. وشبه الحب بالداء، والدواء منه على قدر المعاملة لا يود المصاب به الشفاء.

2. باب علامات الحب

هناك علامات تظهر قبل استعار الحب، يمكن لأي إنسان فطن ملاحظتها، ومنها إدمان النظر إلى المحبوب وملاحقته أينما حلّ، والاندهال عن رؤيته فجأة، واضطراب المحب لدى ورود ذكر المحبوب والإقبال بالحديث عبر الاستماع إليه، وتصديقه حتى ولو كذب، ودعم أقواله حتى ولو جار على الآخرين، ومحاولة لمسه، وعدم الرغبة في مغادرة المكان المقيم فيه.

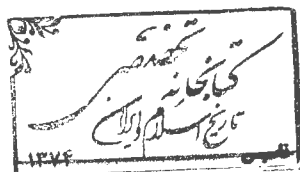
3. باب من أحب بالوصف

وهو من أغرب الأبواب في أصول الحب، إذ يقع المحب في حب محبوبة فقط على الوصف أو لصفة ما يتمتع بها أو لسماع صوته، فيبدأ الهم والوجد، فيكون المحب كمن يبني بناء بغير أساس، إذ إنّ الحب يقوم بتخيل صورة معينة لمحبوبة، فإذا توافقت الصورة مع مخيلة المحب يثبت الحب، وإن حصل العكس انتهى ذلك الوهم. والنساء بحسب ابن حزم أثبت من الرجال في هذا النوع من الحب، وذلك لتمكن هذه العاطفة منهن. وقد وصف ابن حزم هذه الحالة قائلاً:

ويا من لازمني في حب من لم يره طرفي

لقد أفرطت في وصفك لي في الحب بالضعف

فقل: هل تعرف الجنة يوماً بسوى الوصف



المصادر والمراجع

1. ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي.
(1) التكملة لكتاب الصلة، نشرة عزت العطار الحسيني، مصر، 1956.
(ب) الحلة السيرة، تحقيق وتعليق حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1963.
2. ابن الأثير، علي بن محمد، الكامل في التاريخ، دار الفكر، بيروت، 1978، 9 أجزاء.
3. الإلبيري، أبو إسحاق، ديوانه، تحقيق وشرح محمد رضوان الداية، دار قتيبة، دمشق، الطبعة الثانية، 1401هـ / 1981.
4. الأهواني، عبد العزيز، الزجل في الأندلس، القاهرة، 1957.
5. ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1978 _ 1979.
6. ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1929 - 1956، 3 أجزاء.
7. الثعالبي، أبو منصور عبد الملك الينسابودي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، شرح وتحقيق محمد مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1993م.
8. جرار، صلاح، قراءات في الشعر الأندلسي، دار المسيرة، عمان، الطبعة الثانية، 2009.
9. الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1984.
10. حاوي، إيليا سليم، ابن الرومي: فنه ونفسيته من خلال شعره، مكتبة المدرسة ودارالكتاب اللبناني، الطبعة الثانية، 1968.
11. ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، 1962.
12. الحسنائي، رحيمة، المناظرات اللغوية والأدبية في الحضارة العربية الإسلامية، عمان، 1985.
13. ابن حمديس الصقلي، ديوانه، تقديم وتصحيح إحسان عباس، دارصادر، بيروت، 1960.

14. الحميدي، أبو عبد الله محمد بن فتوح، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966.
15. ابن حيّان القرطبي، المقتبس من أبناء أهل الأندلس، تحقيق محمود علي مكّي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973م.
16. ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي الإشبيلي، قلائد العيقان وعحاسن الأعيان، تحقيق وتعليق حسن خربوش، مكتبة المنار، الزرقاء الأردن، الطبعة الأولى، 1989.
17. ابن خفاجة، ديوانه، تحقيق سيد غازي، منشأة المعارف، الاسكندرية، الطبعة الثانية، 1979.
18. ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة ابن خلدون، الطبعة التجارية بمصر.
19. ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1398هـ / 1978.
20. ابن دراج القسطلبي، ديوانه، تحقيق وتقويم محمود علي مكّي، منشورات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2004.
21. الرافعي، مصطفى صادق، تاريخ آداب العرب، (في ثلاثة أجزاء)، القاهرة، 1940.
22. ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد دار الجيل، بيروت، الطبعة الخامسة، 1981.
23. الركابي، جودت، في الأدب الأندلسي، مكتبة الدراسات الأدبية دار المعارف بمصر، 1980.
24. ابن الرومي، أبو الحسن علي بن العباس بن جريج، ديوانه، تحقيق حسين نصار، الهيئة المصرية العامة، وزارة الثقافة مطبعة دار الكتب، 1973 _ 1981.
25. ابن الزقاق البلنسي، ديوانه، تحقيق عفيفة محمد ديراني، دار الثقافة، بيروت، 1964.
26. ابن زيدون
(أ) ديوانه، دار صادر بيروت، د.ت
- ب) ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق علي عبد العظيم ومراجعة أحسان النص، منشورات جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، 2004.
27. ابن سعيد الأندلسي، علي بن موسى، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، 1964
28. ابن سهل الأندلسي، ديوانه، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1400هـ / 1980م.

29. ابن سناء الملك المصري، دار الطراز، في عمل الموشحات، تحقيق جودت الركابي، دمشق، 1949.
30. ابن شاعر الكتي، محمد، فوات الوفيات، نشر محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، 1299هـ.
31. الشكعة، مصطفى، الأدب الأندلسي، دار العلم للملايين، بيروت، 1974.
32. ابن شهيد الأندلسي، ديوانه ورسائله، جمع وتحقيق وشرح محيي الدين ديب، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الطبعة الأولى، 1997.
- (أ) الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، مصر 1959.
33. الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، القاهرة، 1967.
34. ضيف، أحمد، بلاغة العرب في الأندلس، القاهرة، 1342 هـ / 1924.
35. ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في الشعر العربي، دار المعارف بمصر، الطبعة التاسعة، 1976.
36. ابن طفيل، أبو بكر:
 - (أ) حي بن يقظان، تقديم جميل صليبا وكامل عياد، طبعة جامعة دمشق، 1962.
 - (ب) حي بن يقظان، تقديم أحمد أمين، طبعة دار المعارف بمصر.
37. عباس، إحسان
 - (أ) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، دار الثقافة، بيروت، الطبعة السابعة، 1985.
 - (ب) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الشروق، عمان، الطبعة الأولى، 1997.
38. ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي، العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الفكر، بيروت، 1373 / 1954.
39. عتيق، عبد العزيز، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1976.
40. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. ي. كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، 1950.
41. علي، زاهد الحيدر أبادي، تباين المعاني في شرح ديوان ابن هاني، القاهرة، 1932 / 1933.

42. ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، الطلعة الرابعة، 1980.
43. القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة، 1963 - 1972م.
44. لسان الدين الخطيب:
- أ: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق عبد السلام شقور، كلية الآداب، تطوان، المغرب، 1988.
- ب: أعمال الأعلام، تحقيق وتعلق ليفي بروفنال، دار المكشوف، بيروت، الطبعة الثانية، 1956.
45. المتني، أبو الطيب أحمد بن الحسين، ديوانه، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، 1980.
46. المراكشي، عبد الواحد، المعجب في تخلص أخبار المغرب، ضبط وتصحيح محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، الطبعة السابعة، 1978.
47. المقرئ، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968.
48. الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري، مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار القلم، بيروت، د.ت.
49. ابن نباتة المصري، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، القاهرة، 1321هـ.
50. النجار، محمد رجب، النثر العربي القديم (من الشفاهية إلى الكتابة)، مكتبة دار العروبة، الكويت، الطبعة الثانية، 2002م.
51. أبو نواس، الحسن بن هانئ، ديوانه، تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، مطبعة مصر، القاهرة، 1953.
52. نوفل، سيد، شعر الطبيعة في الأدب العربي، القاهرة، 1945.
53. المعتمد بن عباد، ديوانه، جمع وتحقيق رضا أحمد السويسي، الدار التونسية للنشر تونس، 1975.
54. النويري، شهاب الدين أحمد، نهاية الأدب في فنون الأدب، القاهرة، 1923 - 1935، 11 مجلد.
55. ابن هانئ الأندلسي، ديوانه، طبعة مصر وطبعة بيروت.
56. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1979.
57. اليعلاوي، محمد، ابن هانئ المغربي الأندلسي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985.

